

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض



Tokoboko_5@yahoo.com



أغرب القضايا

**بهاء الدين أبوشقة
العامي بالنقض**

المقدمة

من خلال خبرة قانونية امتدت لعدة عقود من الزمن جاءت محصلة هذه السطور بين دفتي هذا الكتاب «أغرب القضايا»، ومن خلال ملاصقة وثيقة للقضايا التي حواها الكتاب، تكشف حقائق مذهلة قد تكون أغرب من الخيال، يقبلها العقل بصعوبة بالغة، لكنها في حقيقة الأمر واقع حي معاش حدث داخل المجتمع المصري.

وقائع هذا الكتاب ليست درباً من الخيال ولا فكراً مجرداً لمبدع، ولا صورة خيالية لفنان عن الواقع، وإنما هي تجربة إنسانية صادقة وعميقة من داخل المحاكم المصرية خلال سنوات طويلة من الزمن.

وأجزم أن هذا الكتاب هو وقائع وأحداث حقيقية شهدتها محاكم مصر المختلفة، وهو ثمرة جهد طويل في التعامل مع القضايا في النيابة العامة أو كقاضٍ في منظومة العدالة أو كمُدافع في مجال المحاماة، ولذلك فإن القضايا التي تم طرحها فيه، تعد بمثابة وقائع حقيقية شهدتها محاكم مصر رغم الغرابة الشديدة فيها، والتي تجعلها تدخل في إطار أغرب من الخيال والتصور.

والعاملون في منظومة العدالة سواء كانت النيابة أو السلك القضائي أو مجال المحاماة يعينهم بالدرجة الأولى الوصول إلى الحقيقة، حيث إن الأصل في الإنسان البراء وأنه برىء حتى تثبت إدانته، ومن خلال المعاشة الحقيقية في كل هذه المجالات جاءت ثمرة هذا الكتاب، فالقاضى أو المحقق أو المدافع تشغله قضية الوصول إلى الحقيقة، والتي قد تأتى أغرب من الخيال كما حوت قضايا هذا الكتاب.. وبالتالي فإن الرسالة التي يقدمها كتاب

«أغرب القضايا»، أنه لا بد من البحث والتدقيق والتمحيص وتحليل كل كلمة ولفظ، ولما كان القانون - كما يقول الرومان - هو علم العلوم، فإنه يجب الغوص في بطون أخرى من المعرفة واللغة والدين والتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والمنطق، من أجل الوصول إلى الحقيقة المنشودة.

وليست المسألة كما يزعم بعض من يجهل دور المحقق أو القاضى أو المحامى فى الكشف عن الحقيقة، وليست كما يظن البعض أن دور المحامى عندما يحصل على البراءة ثمرة حيل، بل الأمر أعمق من ذلك، إذ إن الدليل الجنائى لغز بمجرد فك طلاسمه أصبح سهلاً، ويحار الناس من أمرهم كيف كان أمام أعينهم، ولم يفتنوا إليه.. وهذا هو الدور الحقيقى الذى يلزم أن يتحلى به من يعمل فى الحقل الجنائى وعلى وجه الخصوص المحامى الجنائى، وليس كما يزعم البعض أن هناك حيلاً يستخدمها المحامون فى الحصول على البراءة ولكن الأمر برمته يتعلق بالدليل الجنائى وهذه هى مهمة المحقق الجيد والمحامى الجيد اللذين يملكان المفتاح الحقيقى لكشف اللغز الجنائى.

على أية حال، هذا الكتاب هو رسالة لجميع العاملين فى الحقل الجنائى، تعرض تجربة سنوات طويلة فى مجال البحث عن الحقيقة من خلال معاشته للقضايا سواء كمحقق فى النيابة العامة أو قاض يفصل فى القضايا أو كمُدافع فى مجال المحاماة.

وعلى الله قصد السبيل لا نبتغى منه أجراً وإنما هدايتنا فى ذلك وقصدنا قول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۗ﴾... وخير ما يملك هو علم أو معرفة ينتفع بها. والله ولى التوفيق.. وإلى اللقاء مع الجزء الثانى إن شاء الله.

بهاء الدين أبوشقة

المهندسين - سبتمبر ٢٠١٧

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية الأولى

أديني عمر

وارميني في البحر



■ ■ ادینی عمر.. وارمینى فى البحر

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً في شهر يناير -
قلب الشتاء - شديد البرودة، وأنا أجلس في مكتبي أعانى من
إرهاق يوم طويل.. بدأت صباحاً بالدفاع في قضية كبرى.. وفي
منتصفه قرأت قضية مهمة لليوم التالى.

وفي المساء قابلت الموكلين، ولم يكن في ذهني مكان
لاستيعاب شيء آخر، وقد أشرت لمدير المكتب بالتأهب
للعودة لمنزلي استعداداً ليوم قادم جديد، وحين هممت بذلك
دخل مدير المكتب وأفضى إلى أن سيدة عجوزاً يستبد بها
الأسى ويكسو ملامح وجهها حزن دفين والدموع تنساب من
عينيهما ونظراتها القلقة الحائرة توحى بأنها تعاني من كارثة
كبرى وأنها تصرُّ على مقابلي ولن تنصرف من المكتب قبل
هذا اللقاء، وطلبت منه أن يستمهلها لليوم التالى نظراً لانهاء
مواعيد المكتب فأجاب بأنه حاول معها جاهداً أن يعرف علّة
هذا الإصرار والانتظار لباكر إلا أنها رفضت وازدادت إصراراً



ونحيبًا وعويلًا على اللقاء وإزاء ذلك استجبت مضطرًا رغم آلام الصداق التي كانت تملأ رأسي.

دخلت حانية باكية مرتجفة الوجه واليدين، وأجهشت بالبكاء وازداد نحيبها وأنا أحاول جاهدًا أن أستوقفها لمعرفة مشكلتها التي من أجلها.. أصرت على اللقاء وما الظروف التي أوصلتها إلى تلك الحالة من اليأس والقنوط التي كانت بادية على ملامحها وواضحة من تصرفاتها التي اتسمت بالتلقائية دون تصنع أو تمثيل.

وبعد أن هدأت من روعها قالت لي وهي مازالت تتحبب والدموع تنهار من عينيها كأنها المطر الغزير «أنا أتوسل إليك أن تترافع عن ابن ابني.. بس أنا ممعيش فلوس.. وجيت أستجير بك.. إنك تقف معاه وتسانده لوجه الله.. لأنه كل شيء في حياتي.. وإذا حصله حاجة حياتي تحتتهي».. وقالت بتلقائية: «ربنا يحافظ عليك ويترك دنيا وآخرة» ودي الأتعاب الي ممكن أقدمهالك وإن رفضت أنا مش حا أروح لحد تاني.. المحامي بتاعى هو ربنا وهو الي يتولاه ويتولانى».

كان وقع كلمات تلك السيدة على نفسي عميقًا ومؤثرًا ومسّ شغاف قلبي وصممت بيني وبين نفسي أن أواصل معها المسيرة حتى النهاية ابتغاء وجه الله الذي جعلته سندًا لها وطرقت باب مكتبي وأملها في نصرته كبير، وسألتها قبل أن أوافق أو أرفض: قولي لي إيه الحكاية بالضبط وعلى نحو تفصيلي في هدوء ودون انفعال بعد أن أحضر لها ساعى المكتب كوبًا من الليمون

أحسست وهى ترتشف الليمون أن السكينة والأمل بدأ ينعكس على قسَمات وجهها ونبرات صوتها.. وزاد لدىّ هذا الإحساس وأنا أواصل تهدئتها أنك ما دمت قد وجهت وجهك نحو الله وجعلته سندًا لك فإنّه سيقف معنا وسيساعدنا ويلهمنا طريق الصواب.. بثت هذه الكلمات روح الأمل وبددت جزءًا من اليأس الذى كان بادياً عليها عند رؤيتى لها للمرة الأولى وبدأت تسرد أحداث مأساتها وتستعرضها في تسلسل منظم وكأنّها تعرض أحداث فيلم سينمائى واستطردت قائلة:

في طفولته فقد أبويه في حادث سيارة وكان عمره ثلاث سنوات، ولم يعد له في الحياة غيرى، أنا جدته لأبيه، فرأيت فيه عوضًا عن ابنى الذى اختطفه الموت وهو في ريعان شبابه.. وصممت في إصرار أن يكون كل حياتى وأن أكون له كل شيء في حياته وأعوضه عن حنان الأم وشفقة الأب اللذين حرمه القدر منهما وهو مازال طفلًا يبدأ أولى خطواته المرتجفة على طريق الحياة.

وتمضى أيام العمر بالطفل اليتيم وأنا لا أدخر وسعًا في مراعاته، كان لا يغرب لحظة عن بصرى، لم أدخر وسعًا ولم أتوان لحظة في تلبية رغباته وإجابة مطالبه حتى لا يحس بأنّ شيئًا ينقصه عن أقرانه، وبذلت كل جهدى في إسعاده وأن أنسيه ما كتبه عليه القدر من فقد أبويه في طفولته المبكرة.

كم حبست دموعى في صمت وهو يسألنى في براءة الأطفال قائلاً: فين بابا وماما يا جدتى: كل العيال لهم أب وأم وأنا ملياش؟

كانت تلك الأسئلة التي لا أملك الشجاعة في الإجابة عنها بمثابة المشرط الذي ينهش في جسدى ويعذبني ويؤرق نومي.

كنت أكبت دموعي حتى لا يلحظها وأتظاهر بالقوة وأنا أكذب عليه في ألم يعصرني وأقول له - إنهما سافرا إلى مكان بعيد! كم من مرة سألته - بتسأل ليه يا حبيبي.. هو انت نقصاك حاجة؟

ولكنني كنت أرى الحيرة لا تفارق عينيه مرتسمة على وجهه الذي يكسوه الحزن مستبدة به وتؤرقه حتى عرف الحقيقة التي حاولت إخفاءها عنه.. وقد تسرّبت إلى أعماقه منذ تلك اللحظة عقدة الحرمان من حب الأب وحنان الأم.

وكان لابد لعجلة الحياة أن تستمر في الدوران، فهي لا تتوقف لموت إنسان ومع مرور الأعوام تعمّق في إحساسه أنني كل أسرتة، أنا الذي أدخلته المدرسة، ودفعته بإصرار إلى الاستمرار في دراسته.. لم أبخل عليه بشيء.. كنت أعمل أجيرة في الحقول وأبيع الخضار وأقتر على نفسي وأحرمها من كل ملذات الحياة كي أوفر له مصاريف الدراسة ولوازمها حتى لا يحس بنقص وسط أقرانه، واجتاز مراحل التعليم بتفوق حتى انتهى من دراسته الثانوية وحصل على مجموع كبير.

كان إصراري يفوق كل إمكانياتي، ومع ذلك استعنت بالله فما لي من سند سواء واتكال إلا عليه في أن يمنحني من القوة والاحتمال حتى يكمل دراسته

في الجامعة ويتخرج طبيباً.

كانت تلك هي أمنية حياته وأمنية حياتي أيضاً التي دعوت الله مراراً في أن يستجيب لي ويحققها..

جاء من الريف فتى يمتلئ شباباً وقوة وفتوة نتاج الأرض الطيبة.. سقاه ماؤها.. وامتزج بترابها فسارت في دمائه حرارتها وفي تكوينه صلابتها يحمل في داخله القيم والمثل والمبادئ التي كنت حريصة، أشد الحرص على غرسها في أعماقه منذ طفولته.

والتحق بكلية الطب، فقد كان مجموعه كبيراً، لم يجد عناء في أن يحقق بداية حلمه الجميل في أن يصبح طبيباً.

ولكن الإقامة والمال الذي ينفق منه على مأكله وملبسه ومستلزمات دراسته وقفا حجر عثرة في سبيل مستقبله.. فأين يجد له مكاناً في المدينة المزدحمة بالملايين؟ ومن أين له بالمال الذي يوفر له الاستقرار والاستمرار وهو اليتيم ابن الفلاح المعدم الفقير الذي تركه في رعاية جدته ورحل وهو مازال طفلاً لم يتجاوز الثالثة من عمره وجدته التي تلمح في عينيها الإصرار، وفي ملامحها القوة رغم هزال جسدها وتقدم السن بها، وهي تصر على أن يذهب إلى الجامعة لا ينسى كلماتها وهي تودعه: اتكل على الله.. ورزقي ورزقك على الله.

كان هدفه الأول إصراره وعزمه أن يحقق لها حلم حياتها أن تراه طبيباً..

إنها مازالت تعمل أجيرة في الحقول رغم انحناء ظهرها، وتبيع الخضار، وتحرم نفسها من كل ضروريات الحياة حتى يكمل تعليمه.. ودفعت به إلى شقيقها الذى يعمل بواباً لعمارة كبيرة بالقرب من الجامعة بالجيزة.

واستطاع أن يجد له غرفة فوق سطح العمارة التى يعمل بها.. وبدأ الفتى حياته الجديدة، وقد أغلق أذنيه عن ضوضاء المدينة وأغمض عينيه عن أسرارها ومفاتها وإغراءاتها وهو فى بداية الطريق مشروع طبيب صغير يحلم بمستقبل كبير يعوّض به حياة الشقاء والحرمان والمعاناة التى عاشها بجانب جدته وهى تشقى لتوفر القروش التى تحقق له أمله فى الحياة.

والتقى بها سيدة جميلة ومثيرة وثرية تسكن شقة فاخرة تطل على النيل فى العمارة التى يقف شقيقها على أبوابها.. ووقفت أمامه ورمقته بنظرة طويلة من أعلى رأسه حتى أخض قدميه.. وأطالت النظرة فترة بعد أن فحصته جيداً وسألت البواب - يبقى مين الأمور ده؟

ويرد الرجل باستحياء وخجل: خدامك يا ست.. ده ولد بلدياى.. جه من البلد ودخل الطب.. أصله فقير ويتيم وعاوز يطلع دكتور.

ويستمر فى حديثه إلى الهانم وهو يدور حول سيارتها الفارهة ليزيل ما علق بها من أتربة.. وقدرنى ربنا.. ووفرت له أوضة فوق السطوح.

وقالت له وهى تدير مفتاح سيارتها وعيناها مازالت على الفتى الريفى وتضع فى يد البواب مبلغاً من المال.. والنبي ياسيد ابقى ابعتوا لى فى وقت

فراغه عlishان يقيس لى الضغط.

ويرد البواب العجوز - أنا وهو تحت أمرك يا هانم.

ولم تنقطع نظراتها الفاحصة عنه إلا وهى تنطلق بسيارتها وتختفى من أمامه
بينما صورتها لا تفارق خياله البكر، ونظرتها تلعب بنبضات قلبه الخالى الذى
زادت دقاته وتعالى خفقاته.. منذ تلك اللحظة التى التقت عيناه بعينيها..
عطرها النفاذ أصاب رأسه بالدوار وأنوثنها سحرت عينيه واستقرت في
أعماق وجدانه الخالى.

وصعد إلى حجرته يحاور نفسه.. لماذا وجهت سهام عينيها وركزت
نظراتها عليه؟ لماذا ضغطت على يديه وهى تطلب منه أن يصعد إليها.

لم ينم ليلتها.. جمالها المثير وفتنتها الطاغية أسرت قلبه البكر الذى لم
يخفق بحب امرأة وعينيها التى لم تقع على مثل هذه الأنوثة المتدفقة والجمال
الفيّاض.

لقد عاش طفولته وصباه بعيداً عن عالم النساء.. يتذوّق الجمال تخيلاً
ولكن يده القصيرة عاجزة عن أن تلمسه.. وكان يستعين بالدعاء فى صلواته
من الفتنة.. ويستعيز ويتخيّل صورة جدته العجوز التى تشقى من أجل
تحقيق هدفها وما ترجوه فى حياتها من أن تراه طبيياً ناجحاً وكأنه فى تخيّل
يناجيها ويحاورها ويرد عليها بأنّه لن يخيب رجاءها وسيكون عند حسن
ظنها به.

ولم يطل انتظاره.. لاحقه وسعت إليه.. دعتة إلى شقتها الفاخرة واستحوذت عليه وامتلكته بسهولة ويسر.. ساقته إلى مخدعها ترتوى من فورة شبابه وفحولته ورجولته.

أغرقته في بثرها التي لا تنضب من أفانين الإغراء.. اشترت له الملابس الغالية وأذاقته الأطعمة الشهية الدسمة التي عاش محروماً من تذوقها.. أذاقته الفاكهة المحرمة.. وكانت قد مضت على الفتى الريفى شهوور وهو غارق في عسلها.. فلم يذهب إلى الجامعة ولم يفتح كتاباً.

حوّلتة من طالب جامعى إلى عبد لإشباع نزواتها.. وبات مسحوراً بجمالها مبهوراً بفتنتها وقد ملأ حبه لها عليه حياته.

هكذا اعتقد الشاب الريفى المجرّد من الخبرة أنّه يحبها وهو لا يدري أنّ هناك خيطاً رفيعاً بين الحب والنزوة.. كانت نزوة في حياته بكل المقاييس، أغلقت فكره وأسدت غشاوة على عينيه فحالت بينه وبين المبادئ والمثل والقيم التي غرستها جدته في نفسه منذ أن فتح عينيه على الحياة..

ولكن السعادة لم تستمر!

فوجئ بأنّها تتحوّل عنه.. لم تعد تلاحقه.. زهدته.. صدّته.. طردته من عالمها.. أخرجته من جنتها أفهمته - في البداية - أن أحد الرجال تقدّم لخطبتها وأنها ستزوج منه وعليه أن يبتعد عنها.

وساقه خياله الهزيل وفكره السقيم إلى أن يعرض عليها الزواج.

قابلت عرضه بالسخرية والاستهزاء.. وأعلنت له بصراحة وبلا مواربة، بل بمتهى البجاجة أنها طردته من عالمها وأن عليه أن ينسى الماضي ويطوى صفحته ويقبر ما كان بينهما وأن يرحل بعيداً عنها وحذّرتة وتوعّدته إن حاول مجرد التفكير في اللقاء بها بل والحديث معها.

حاول جاهداً أن ينسى ولكنه لم يستطع.

أسلم نفسه للضياع واليأس وإدمان الخمر.. كان يرى في الخمر هروباً من الواقع الأليم الذى يعيش فيه نسياناً للحظات السعيدة.. للجنة التى عاش فيها وهى بين يديه.. كلما تذكر تلك اللحظات أمعن وأسرف فى شرب الخمر.

وقرر فى لحظة -كانت الخمر قد استبدت فيها بفكره واستحوذت على إدراكه وغيبّت أحاسيسه- أن ينتقم منها، فقد أضاعت مستقبله وأصبح بلا أمل ولا مستقبل ولا رغبة فى الاستمرار فى الحياة.

كيف يستطيع أن يجابه جدته بعد كل ما ضحّت به من أجله، وقد حطّم أحلامها ودُمّر آمالها بل حياتها كلها، وكيف قابل تضحياتها وصمودها وكفاحها وإصرارها على أن تختزن فى مستقبله شقاء حياتها، كيف هان عليه كل ذلك، كيف محا من ذاكرته ومن أعماقه سيناريو كفاح الجدة الذى يمتزج فيه الألم بالأمل ويبدد كل هذا الكنز فى لحظة استسلم فيها لنزواته وباع من أجلها ماضيه وحاضره ومستقبله.. إنّ الحياة والموت بالنسبة له سواء! ولكن صورة جدته التى لم تفارق مخيلته كانت تبث فيه أملاً جديداً وتبدد هذا اليأس

والضياع الذى انغمس فيه.

وكانت قد أعطته مفتاح شقتها ليتسلل إلى مخدعها وقت أن كانت راضية عنه.

وتسلل مخمورًا إلى حجرة نومها وكانت فى أحضان صديقها الجديد.

ولم يشعر إلا وهو ينهال على جسدها العارى بضربات وطعنات متلاحقة.

هكذا كان حديث الجدة، واعترف المتهم حسبما جاء على لسانه فى تحقیقات النيابة بعد الاطلاع على أوراق القضية التى كانت مع الجدة.

وسقطت الجدة أمامى مغشيًا عليها بعد أن تلفظت بكلمة: اتحكم عليه يا بيه بالإعدام.. أستحلفك بالله أن تنقذه.. أنا ملياش غيره، علشان خاطر ربنا ساعده حتى وأنا على استعداد أن يعدمونى بدلاً منه.

بعد أن أفاقت وهدأت من روعها وطمأنتها بموافقتى على الدفاع عن حفيدها المتهم وأنى سأبذل كل ما فى وسعى لمساعدتها، وأنى سأبنى القضية من كافة جوانبها كما لو كانت قضية شخصية لى لإدراكى أن إجراءات المحاكمة قد شابها البطلان.

وقد أدركت منذ أول وهلة لاطلاعى على إجراءات المحاكمة وأسباب الحكم أن عوار البطلان قد ران على إجراءات المحاكمة وانسحب بدوره إلى الحكم.

وقدّمت أسبابًا للطعن على الحكم القاضي بالإعدام فى الميعاد المحدد،

إذ نظرت محكمة النقض القضية أخذت بالأسباب التي استند إليها دفاعي وقضت بإلغاء الحكم ومحاكمته مجدداً.. وأوردت في أسباب النقض أنَّ إجراءات المحاكمة قد شابها البطلان فضلاً عن الخطأ في تطبيق القانون، لأنَّ وقت ارتكاب الجريمة كما هو ثابت في محضر الشرطة كان الساعة العاشرة مساءً وفتح محضر الشرطة الساعة الحادية عشرة مساءً، وعمر المتهم - الساعة العاشرة - لم يكن قد تعدَّى الثامنة عشرة، إذ إنَّه كى يتعدَّى سن الثامنة عشرة لا يبدأ إلا بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً مما يكون معه المتهم حدثاً وقت ارتكاب الجريمة، إذ إنَّ بلوغه الثامنة عشرة كاملاً لا يتأتى إلا بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً.

والخلط الذي وقع فيه وصف التهمة أنَّه قد تم حساب سنه من اليوم والساعة التي بدأ فيها التحقيق معه بمعرفة النيابة العامة، والعبرة في حساب سن المتهم وقوفاً عما إذا كان قد جاوز سن الحدث من عدمه هو ساعة وتاريخ ارتكاب الواقعة لا وقت التحقيق فيها.

وإذا كان المتهم على نحو ما تقدّم وقت ارتكاب الواقعة حدثاً إذ إنَّ هناك ساعتين ما بين ارتكاب الجريمة الساعة العاشرة مساءً والساعة الثانية عشرة ليلاً، حيث تكون قد اكتملت سنه ثمانية عشر عاماً، ومن ثم فإنَّ الحكم القاضي بإعدامه يكون وقد شابّه الخطأ في تطبيق القانون، إذ لا يجوز قانوناً الحكم بإعدام الحدث.. وفقاً لقانون الأحداث الذي كان سارياً وقت

ارتكاب الواقعة (الذى تغيّر بقانون الطفل رقم ١٢ لسنة ١٩٩٦).

كما جاء في أسباب الطعن أيضًا أنَّ ما جاء في الأوراق بأنَّ اعتراف المتهم كان في لحظة غاب فيها وعيه وإدراكه إذ كان مخمورًا.. فقد كانت رائحة الخمر تفوح منه.. لحظة استجواب النيابة له.. وأثبت ذلك وكيل النيابة المحقق في ملحوظة وعرضه على الطبيب المختص الذي حرر تقريرًا أثبت فيه.. أنَّها حالة سكر بَيِّن.

وقد أوردت المحكمة ذلك في صورة الدعوى التي اعتنقتها.

ولما كانت المادة ٦٢ من قانون العقوبات تعاقب من يتعاطى مخدرًا أو مسكرًا اختياريًا ويرتكب جريمة كما لو كان في وعيه إلا أنَّ حد ذلك ألا تكون الجريمة من الجرائم ذات القصد الخاصة كالقتل فإنَّه لا يتحقق هذا القصد الخاص وهو نية القتل لمن كان متعاطيًا مسكرًا كما هو الحال بالنسبة للمتهم، وبناء على كل ما تقدّم أخذت محكمة النقض بالأسباب التي أوردتها في الطعن على الحكم وانتهت إلى قبول الطعن شكلاً وفي الموضوع بنقضه وإعادة محاكمة المتهم مجددًا أمام المحكمة المختصة.

وكان على أن أعيد تصفّح أوراق الدعوى بإمعان.. فقد ألغى حكم الإعدام شنفًا ونحن أمام محاكمة جديدة تنظر الدعوى من جديد موضوعيًا.. يبدى الدفاع ما عنَّ له أن يبدى من دفع ودفاع.

واستوقف نظري عدة ملاحظات وأنا أتصفّح أوراق الدعوى، إذ يتعيّن

سواء للمدافع أو للمحكمة أن تقف على الصورة الصحيحة للواقعة التي تمثل السيناريو الحقيقي للحدث وأن يطرح هذا السيناريو المكتوب في صورة تخيل لأحداثه ليحقق معاشة حقيقية للحدث يمكن معها طرحها على المنطق والوجدان، إذ إنَّ الدليل الجنائي يقوم على التصور السليم للحدث وطرحه على المنطق والوجدان وقوفاً على إمكانية حدوثه وفقاً لهذا التصور من عدمه.

ومن ثانياً قراءتي المتأنية والمتبصرة لأحداث الدعوى توقفت ملياً عند عدة أمور مهمة مؤثرة في منطق الدليل في الدعوى وفي الوقوف على الحقيقة المجردة لأحداثها:

الملاحظة الأولى: أنَّ المصوغات والمجوهرات الخاصة بالمجنى عليها قد اختفت تماماً من صوان ملابسها، بل وتبين أنها قد جردت تماماً من المجوهرات والمصوغات التي كانت تتزيّن بها.

وبمواجهة المتهم بتهمة القتل المرتبط بالسرقة أنكر تماماً السرقة وقرر أنَّه لم يستول على أى شئ سواء مجوهرات أو أموال، كما أنَّ تحريات الشرطة لم تتوصّل إلى أنَّه قام بسرقتها ولم يتم ضبط أى منها في حيازته أو أحراره.

الملاحظة الثانية: أنَّ تقرير الأدلة الجنائية الذى رفع البصمات من مكان الحادث قد ثبت منه أنَّ البصمات التي تم رفعها من داخل الخزانة الخاصة بالمجنى عليها والتي تحتوى المصوغات والمجوهرات والمبالغ المالية

ليس بها بصمة للمتهم، وإنما ثبت وجود بصمتين، بصمة للمجنى عليها وبصمة لآخر مجهولة، ولكنها ليست للمتهم! الأمر الذى ينبى وقد اختفت المجوهرات وكذلك النقود التى بالخزينة لم يكن القصد منه الانتقام من المجنى عليها وإنما كان القصد والهدف الأساسى هو السرقة.

الملاحظة الثالثة: فقد تبين أن السكين المضبوطة فى مكان الحادث كانت عليها بصمات المتهم وهو الذى حدا بالشرطة ابتداءً وبالنيابة من بعد ذلك إلى توجيه الاتهام إليه.

الملاحظة الرابعة: أنه قد ثبت من تقرير المعامل بالطب الشرعى أن المتهم كان مخموراً وقت ارتكاب الحادث على نحو لا يتحقق معه القصد الجنائى الخاص وهو نية القتل لأن هذا القصد الخاص لا يتحقق قانوناً مع من يثبت أنه كان متعاطياً مخدرًا أو خمرًا وقت ارتكاب جريمة القتل العمد.

الملاحظة الخامسة: تبين أن المتهم كان مصاباً فى رأسه بإصابة رضية جسيمة لم يستطع أن يبررها، وعلّلها بأنها ربما تكون نتيجة اصطدامه بجسم راض كحائط وهو مخمور بعد الحادث، كما تبين من التحقيقات أن المتهم قد تم ضبطه فى غرفة المجنى عليها عقب الحادث، إذ سقط مغشياً عليه بعد هذه الإصابة وظل على هذه الحال حتى تم ضبطه متلبساً فى مكان الحادث.

الملاحظة السادسة: تبين لى من قراءتى المتعمقة لتقرير الصفة التشريحية أن جثة المجنى عليها بها نوعان من الإصابات:

أولها: إصابات رضية عنيفة بالرأس أدت إلى تهشيم الرأس تمامًا، وهى حيوية أى حدثت أثناء الحياة وهى سبب الوفاة وتحدث من آلة راضية.

وثانيهما: أن بها إصابات طعن في الصدر والبطن تحدث من آلة قطعية كسكين إلا أن هذه الإصابات غير حيوية أى حدثت بعد الوفاة ولا دخل لها في حدوث الوفاة.

الملاحظة السابعة: أن اعتراف المتهم قد انصبَّ على أنه قتلها الساعة العاشرة مساء وتم إبلاغ الشرطة عن الواقعة وانتقالها إلى مسرح الحادث الساعة الحادية عشرة مساء.

كما تبين لى من الاطلاع على صورة بطاقته الشخصية المرفقة بالأوراق أنه جاوز الثامنة عشرة وقت تحقيق النيابة العامة الذى بدأته فى الساعة الواحدة صباحًا أي أنه حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً كان حدثًا وأنه لحظة بداية التحقيق بعدها بساعة، أي الساعة الواحدة صباحًا كان قد تجاوزت سنه الثامنة عشرة بساعة واحدة.

والتقت بالمتهم قبل المحاكمة الجديدة، وقد استقر فى وجدانى من واقع التدقيق والتمحيص والتحليل الدقيق والربط بين الملاحظات السابقة أن اعترافات المتهم صادقة وأنه رغم هذا الاعتراف فهو برىء من قتل المجنى عليها وسرقة أموالها وما يؤكد ذلك ما ثبت بتقرير الصفة التشريحية لجثة المجنى عليها، إذ قطع بأن تلك الطعنات التى اعترف بأنه قد سددها فى جسد

المجنى عليها غير حيوية أى أنها بعد أن فارقت الحياة متأثرة بالإصابات الناتجة عن الضرب بآلة راضة ثقيلة هشت رأسها ولفظت أنفاسها قبل أن يطعنها..

كان على أن ألتقى بالمتهم لأتوصل منه إلى مزيد من المعلومات كشفًا للحقيقة التى قدر لها أن تطمس وتقبر فى الدعوى الماثلة.

تحدث الشاب معى بصراحة وبراءة أهل الريف، مؤكدًا أن ما بدد يأسه فى الحياة وزهده فيها ورغبته الحثيثة فى مغادرة الدنيا هو دموع جدته ووقوفها إلى جواره وتشبها فى إثبات براءته وسماحتها رغم كل ما سببه لها من إساءة وآلام..

اعترف لى أنه فعلاً قد طعنها بالسكين وأنه كان مصرًا على الخلاص منها وتخليص البشرية من شرورها وآثامها، غير أنه كان مخمورًا وقت أن تسلل إلى شقتها ولم يكن فى وعيه أو إدراكه للحالة التى كانت عليها لحظة تسديده الطعنات إليها وأقسم أنه لم يسرق شيئًا، فالإعدام أهون على نفسه من أن يوصم بصفة سارق.

وسألته عن سر الإصابة التى فى رأسه فقرر أنه لا يعلم عنها شيئًا وأنه لم يكن فى وعيه بعد أن طعنها ولم يفق إلا بعد أن تجمّع الناس فى غرفة نوم المجنى عليها ووجدوه مغشيًا عليه وفى يده السكين التى تحمل بصماته وعلى نصلها دماؤها.

فسألت: من ذلك الغريم الجديد الذى أوقعته في شباكها؟

فأجاب: أنه لا يعرف عنه شيئاً وكل ما يعرفه أنه رآه أكثر من مرة يتسلّل إليها حال مراقبته العمارة أملاً في أن يرى محبوبته بعد أن طردته من حياتها وأضاف أن ذلك الشخص لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره.. وأنه يبدو عليه الترف والثراء.. إذ كان يأتي بسيارة فارهة ويتعمّد تركها بعيداً عن المسكن.

واقترب موعد المحاكمة فما بقى على ميعادها سوى عشرة أيام عندما قدّمت لى زوجتى وأنا على مائدة الإفطار صحيفة يومية تحمل صورة شاب وسيم تحت عنوان «جرائم أبناء الذوات» وهى تقول بتهكم:

«أدى آخرة الدلع وسوء التربية.. ناقصه إيه عشان يسرق!.. الأشكال دى لازم يكون عقابها شديد عشان تكون عبرة لغيرها».. أحسست الحدة في ملامحها وفي نبرات صوتها والغيرة والحمية على الشباب وضرورة اهتمام الآباء بهم وحسن تربيتهم.

فقرأت تفاصيل الخبر.. إنّه من أبناء الذوات ويحمل عضوية أكثر من نادٍ راقٍ تم ضبطه وهو يبيع مجوهرات بسعر أقل كثيراً من ثمنها، مما أثار شكوك الجواهرجى فسارع بالإبلاغ عنه وكانت المفاجأة الكبرى عندما تم تفتيش مسكنه وتبيّن وجود العديد من المسروقات الثمينة التى لم يستطع أن يبرر مصدرها.. وإن كانت التحريات قد أشارت إلى أنه قد اعتاد استغلال وسامته

ورشاقتة وخفة دمه في إيقاع ضحاياه من النساء في شبابه وسلب ثروتهن.

دار في ذهني بعد أن تصفّحت هذا الخبر وربطت بينه وبين الجريمة التي أتولى الدفاع عنه فيها وإنّ هناك احتمالاً ربما كان بعيداً ولكن تعاملت مع الجريمة والبحث عن دليل البراءة.. مهما.. كان واهياً علمني التفاؤل والأمل دائماً وألا أترك خيطاً مهماً كان رقيقاً للصدفة أو الاحتمال أو عدم الجدية بل لابد من أن أصل إلى يقين بشأنه سواء قبولاً أو رفضاً.

تقابلت مع المتهم قبل الجلسة المحددة وعرضت عليه الصورة المنشورة فانفجرت أساريه منذ النظرة الأولى، وسرعان ما تعرّف على صاحبها، وقال إنّهُ هو الغريم والعدو اللدود والمنافس الشرس الذي أطاح بعرشه في مملكة قلبها واحتل هو هذا العرش وقذفه من عليه بعنف وبلا شفقة ولا رحمة.

وكانت جلسة المرافعة التي ظلّت محل انتظار الكثيرين وتساؤلاتهم كيف لي أن أترافع في قضية أطبقت فيها الأدلة على المتهم وعلى هامتها اعترافه المفصّل بارتكابه الجريمة وباعثه ودافعه على الإقدام على قتلها والخلاص منها.

وشخصت إبصار الحاضرين في القاعة وصمت الجميع بعد أن علا صوت الحاجب بكلمة «محكمة» ودخل المستشارون قاعة الجلسة وهمس الجميع وكأنّ على رؤوسهم الطير وأحسست وكأنّي أسمع تساؤلاتهم ماذا سأقول أمام اعتراف المتهم ومع الأدلة التي ترافعت النيابة تثبت بها التهمة على المتهم وتصفه بالعبث والمجون والاستهتار وأنّه لم يرع لنفسه ماضياً أو

حاضرًا أو مستقبلاً ولم يحفظ النعمة التي أفاء الله بها عليه ليدخل كلية الطب ليكون طبيباً وبدلاً من أن يسهم في الحفاظ على الأرواح أسهم في قتل نفس حرّم الله قتلها إلا بالحق فجزاؤه الوفاق هو الإعدام ثم جاء دورى كمدافع فطلبت ابتداء براءة المتهم مما أسند إليه، أبصرت لحظتها الدهشة تملأ عيون الحاضرين ومنهم النيابة العامة التي رمقت ابتسامة خفيفة في شفتى وكيل النيابة لها دلالتها.

ترافعت في حدة تنبئ نبرات الصوت عن قناعة وتأكيد على براءة المتهم من تهمة القتل العمد مع سبق الإصرار المرتبط بجنحة سرقة المعاقب عليه بالإعدام طبقاً لنصوص المواد ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤ من قانون العقوبات.

وقلت بصوت جهور القاتل والسارق شخص آخر.

وهمس الجميع في حيرة واستغراب وريبة فيما أقول، قطعه صوت رئيس الجلسة وهو يضرب بمطرقة على المنصة طالباً الصمت والسكون.

نعم القاتل والسارق الحقيقى هو ذلك الشاب الوسيم.

ونظر الجميع حولهم في حيرة من هو هذا الشاب وما صلته بهذه الواقعة التي أطبقت فيها الأدلة على المتهم المائل.

وقطعت هذا الشك باليقين وقلت للمحكمة في عبارات ونبرة ملؤها الثقة واليقين هذا هو الدليل اليقيني أقدمه إليكم بضمير مستريح وبرغبة سابقة هي هدفنا جميعاً أن نقف وأن نصل إلى الحقيقة التي تقود بدورها إلى العدالة

التي هي مبتغانا جميعًا.

واستطردت في مرافعتي أنني كنت قد تقدّمت لرجال المباحث بكل ملاحظاتي السابقة وبما دار في ذهني من توقعات واحتمالات من أن هذا الشاب الوسيم هو القاتل من أجل السرقة.

وبالفعل تم عمل مضاهاة بين بصمة هذا الشاب وبين البصمة المجهولة التي تم العثور عليها داخل خزانة المجنى عليها، ولم يجد الشاب الوسيم أمامه سوى الاعتراف: قائلًا - نعم قتلتها بعد أن أوقعتنى في شباك حبها وأصبحت لا أطيق العيش بعيدًا عنها، وأحسست أنها في سبيلها لطردي من حياتها واستبدلتني بعشيق جديد بعد أن رصدت معلومات عن تاريخها ومجونها وعبثها واستهتارها بمشاعر وأحاسيس ومستقبل الشباب، وأنها ما إن تحقق هدفها وهو إيقاع الصيد في شباكها وتأكد من أنه أصبح أسير هواها عبدًا لجسدها حتى تطرده من هذا الفردوس الذي يجد فيه كافة ملذاته غير عابئة بآلامه وعذابه كانت تجد لذة في هذا العذاب، وفي هذا الألم الذي ينهش في فكر وقلب وجسد كل من طرده من حياتها.

واستطرد الشاب الوسيم باعترافه بقوله.. وكنت قد أعددت لكل شيء عدته أسكرتها حتى الثمالة، ثم هويت على رأسها بقطعة حديد كنت قد أعددتها سلفًا حتى هشمت رأسها، وفتحت الخزانة واستوليت على ما بها من نقود ومجوهرات ومصوغات.. وفي تلك الأثناء حضر المتهم مخمورًا والشرر يتطاير من عينيه ويده سكين هوى بها طعنًا في صدرها وبطنها،

أصابني الارتباك وخشيت أن يفتضح أمرى ويتم ضبطى بعد قتلها وسرقة مالها ولم أدر ماذا أفعل كى أهرب من مكان الحادث.. فضربته بقطعة الحديد على رأسه كى أتمكن من الهرب، وتركته يسقط فى مكان الحادث وهربت بالمسروقات، وظننت بعد أن حكم عليه بالإعدام أننى قد أفلت نهائياً، ولكن عين السماء لا تنام..

وقدّمت كافة الأدلة السابقة مدعمة بالمستندات للمحكمة وأنهيت مرافعتى بأنّ المتهم وإن كان قد طعن المجنى عليها بسكين فلا جريمة فى الأمر..

وأثار هذا الحديث فى مرافعتى همس الجميع واستغرابهم، قطعه رئيس الدائرة بطلب الصمت وعدم الحديث واستطردت فى مرافعتى مواصلاً حتى لا أضيع أثر حدة الحدث -كما يقول علماء النفس- وعلى حديثى بصوت جهورى وأنا أقرأ تقرير الصفة التشريحية وما ثبت به أن الإصابات الطعنية بجثة المجنى عليها غير حيوية أى حدثت بعد الوفاة ولا دخل لها فى أحداثها وأنّ الإصابات التى فى رأسها والتى أحدثها الشاب الوسيم وفقاً لاعترافه هى التى سبّبت الوفاة.

وبذلك يكون المتهم عندما طعن المجنى عليها فى صدرها وبطنها كانت قد فارقت الحياة بالفعل نتيجة الإصابات الرضية بالرأس، الأمر غير المؤثم قانوناً، إذ إنّ شرط التأثيم فى جريمة القتل أن يكون الاعتداء على جسم إنسان

حى وأن يكون هذا الاعتداء سبباً في وفاته، أما أن يكون الاعتداء مهماً كان جسيماً على جسد إنسان قد تحققت وفاته فهو اعتداء على جثة إنسان ميت لا تتحقق به أركان جريمة القتل المتطلبة قانوناً.

بعد انتهاء مرافعتي سألت المحكمة النيابة فيما إذا كانت تريد التحقيق فأجابت سلباً فأصدرت قراراً برفع الجلسة للمداولة.

وسادت لحظة استبدت بها الحيرة بالجميع بمن فيهم المتهمون الآخرون في قضايا أخرى ودفاعهم الحاضر معهم يستعجلهم الشوق في معرفة الحكم الذى سترتبط به حياة إنسان يولد من جديد بعد أن حكم عليه بالإعدام هل ستتحقق له تلك الولادة أم سيكون مصيره الإعدام كما جاء بالحكم الأول.

وبدأ هذه الحيرة والتساؤلات صوت الحاجب وهو يعلن بدء الجلسة.

وفي لحظة حبست فيها أنفاس الجميع وهم يسمعون النطق بالحكم.

حكمت المحكمة ببراءة المتهم مما أسند إليه..

وأكثر ما أسعدنى ذلك المشهد الذى لم تمحه الأيام من ذاكرتى مشهد جدته بعد النطق بالحكم، وقد سقطت مغشياً عليها هل هي الفرحة والأمل الذى عاد إلى حياتها من جديد أم الخوف من المجهول الذى لم أسقطه من حساباتها من قبل وعندما تمت إفاقتها نظرت إليه وفي عينيها قطرات من عيون الفرحة والشكر التي عبّرت عنها في كلمات مقتضبه تحمل أجمل المعانى وأصدقها وأبلغها وقالت (ربنا يحافظ عليك ويترك دنيا وآخرة).

وكانت آخر كلماتي وأنا أغادر قاعة المحكمة أنني شكرتها على هذا التقدير الذي لا يقدم بكنوز الدنيا وما فيها إنَّها عبارات صادقة أمينة صدرت من القلب ونفذت إلى القلب ووجهت حديثي إلى المتهم في أن باب الأمل والإصرار والعزيمة والكفاح الذي لمستّه وأحسسته بصدق من خلال تعامله مع جدّته لا بد أن يكون له هدياً ونبراساً على طريق جديد من الأمل وأنّ عليه أن يطوى صفحة الماضي وأن ينظر بجهد إلى مستقبله تحقيقاً لرغبة وأمل جدّته لأنّ من أراد السير في طريق النجاح عليه أن ينظر إلى الأمام وألا يدير رأسه للخلف.

ومرت السنون وكنت عائداً في القطار بعد المرافعة في قضية بالصعيد.
كان القطار مزدحماً لا موضع فيه لقدم عندما فوجئت بشاب يترك مقعده ويتقدّم مني ويرحب بي بحرارة ويطلب مني الجلوس مكانه ويصرّ على ذلك.

أحسست وقتها بالخجل فأنا لا أعرف هذا الشاب ورمقته بنظرة أحسن منها التساؤل الذي يجيش في صدري.

من يكون هذا الفتى؟

وقطع تفكيري سؤاله - أنت متعرفنيش.

أجبتّه بصراحة أنني لا أتذكر.

أجاب على الفور:

انت الى لك الفضل على وعلى أسرته .. بعد الله .. انت الى أنقذت حياتي
ورددت إلى شرفى واعتبارى وفتحت أبواب الأمل أمامى بعد أن أوصدت
تماماً .. أنا مدرس فى كلية الطب .. فى إحدى جامعات الصعيد .. ولسيادتكم
الفضل فيما وصلت إليه.

وعندما أحسَّ بالغربة تغمر وجهى بدأ فى حديثه مباشرة .. أنا الشاب الذى
كان محكوماً عليه بالإعدام .. وأمام توسلات جدّتى قبلت المرافعة عنى مجاناً
بلا مقابل حتى قضى ببراءتى .. ولم يترك لى فرصة للتعقيب أو الحديث.

استطرد تكملة لقصته أنّه بعد الحكم بالبراءة عكف على الدراسة وانقطع
للبحث حتى تخرج وكان ترتيبه من الأوائل .. كانت صورة جدّته لا تفارق
مخيلته وأملها لا يبارح فكره وكلماتى والنصح الذى أسديته له فى المحكمة
بعد النطق بالبراءة مازال صداها فى أذنى .. فانطلقت أواصل الدراسة حتى
حصلت على الدكتوراة وتم تعيينى مدرساً بكلية الطب بجامعة وقد
أنعم الله علىّ بزميلة .. جمع الحب بين قلوبنا .. وأصبحت أباً لولدين .. وما عاد
لى من تفكير فى الدنيا .. غير عملى وأسرتى ..

أصرَّ على أن أجلس مكانه على الكرسي وهو يتسم:

- أعطنى فرصة كى أرد لحضرتك جزءاً بسيطاً من جميلك الذى لن
أنساه حتى آخر لحظة فى حياتى.

- ورددت عليه البسمة بالبسمة وقد جال في خاطري.

المثل القائل.. ادينى عمر.. وارمينى فى البحر.

وطاف فى ذهنى سؤال ترددت بينى وبين نفسى فى سؤاله غير أننى وجهته إليه عن حال جدته وما آلت عليه بعد حكم البراءة.

فتهلل وجهه وهو يجيب بابتسامة أنها على قيد الحياة وأنها تدعولى فى كل صلواتها ليلاً ونهاراً.

وكانت المفاجأة التى لم تدر بخلدى وهو يصطحبنى الى أحد المقاعد فى القطار وجدها شيخخة فانية وتجلس إلى جوارها خادمة تناولها الطعام وأشار إليها وقال هذه جدتى وطلب منى الاقتراب منها لترانى إذ إن رؤيتها أصبحت ضعيفة وعرفنى بها فصمتت قليلاً وهى تسبح فى فكر عميق ثم قالت فى صوت خفيض إن الأستاذ.... وقالت فى براءة وصدق أهل الريف التى مازالت تتحلّى بها ربنا يخليك ويترك دنيا وآخرة.. دى دعوتى ليك ليل ونهار.. وده كل اللى أقدر أقدمهولك على الجميل والمعروف الكبير الى عملته فى وفى الدكتور.. شكرتها وانصرفت تاركاً إيّاها لتتناول غداءها..

أيقنت أن من اختصه الله بنعمة عليه أن يفعلها فى موضعها دون أن ينتظر جزاء أو شكوراً إلا ابتغاء مرضاة الله وثوابه.. وقد ازداد إحساسى وقناعتى أن هذا الدعاء الذى تردده تلك المرأة من قلبها وبغفوية لا تصنع فيها ولا افتعال لا يقدر بكل كنوز الدنيا وما فيها....

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية الثانية

الأفعى والثعبان



■ ■ الأفعى... والثعبان

ما إن وطئت قدماى شقتى بعد عودتى من رحلة شاقة قادمًا من أقصى صعيد مصر بعد مرافعتى في قضية جنائية مهمة إلا وفوجئت بزوجتى تخبرنى «فيه واحد شكله غير مريح سأل عليك أكثر من مرة طول النهار.. ولسه من شوية سأل عليك.. وكل مرة كنا بنقوله إنك مسافر».

وسألتها: ماقلش عايز إيه؟

فكانت الإجابة: لا.. هو قال لما سألته نفس السؤال.. إنه عاوزك شخصيًا في مسألة مهمة ومستعجلة لأنها حياة أو موت بالنسبة له.

وقبل أن أبدل ملابسى رنَّ جرس الباب وفتحت له فإذا بى أجد نفسى وجهًا لوجه أمام رجل تجاوز الخمسين من عمره بقليل.. كان شاردًا مهمومًا تستبد بملامحه الحيرة والقلق والغضب.. عيناه زائغتان كأنما تسبحان في فضاء عريض بحثًا عن مجهول.. وجهه تكسوه الصرامة والشدة.. الشرر يتطاير



من عينيه المحمرتين اللتين يظهر فيهما الإعياء والسهر.. قسّمت وجهه
يعتصرها الألم والحسرة والحيرة التي يمتزج بها الحدة.. وبينما أتفرّس وجهه
وأمعن النظر محللاً ملامحه بادرنى بقوله:

- ممكن أدخل.. أنا عايز سيادتك في أمر مهم وعاجل جداً.

وسيطر على ذهني لأول وهلة سؤال.

- ما هذا الأمر المهم؟

فقد عودت نفسي أن ألتقي بالموكلين في القضايا في مكتبي فقط، وتلك
سنة سرت على نهجها منذ بداية عملي بالمحاماة.. وأخبرته على الفور وأنا
أدس بين يديه كارتاً بعنوان المكتب:

- ده عنوان المكتب وأنا منتظر الساعة الثامنة مساء.

ولم يترك لي فرصة لاستكمال حديثي وبادرني قائلاً:

- يا به.. دى مسألة حياة أو موت.. لا تحتمل إنى أنتظر لحد الساعة
الثامنة.. لازم أدخل وتسمع كلامى لآخره وأنا متأكد إنني أثقل عليك لكن
بعد ما تسمع حكايتي حتعذرني وأنا متأكد إنك حتقف معايا.

ولم يكن أمامي إزاء إصراره وغرابه ملامحه والفضول الذى استبدّ بى
وشوقى إلى معرفة ما يدور فى مخيلته من أحداث، والسر الذى يريد أن يفضى
به إلى.. إلّا.. أن.. سمحت له بالدخول.

كانت خطواته متثاقلة تنبئ عن حجم المعاناة التى تثقل جسده فجعلته

يسير في خطوات تكاد تكون مترنحة.

وقبل أن يجلس ليروى هذا الأمر العاجل والمهم الذى قدم من أجله دسَّ يده فى جيبه وأخرج علبة سجائر وأشعل منها سيجارة جذب منها أنفاساً عميقة ومتلاحقة ثم قام بحركة عفوية بإطفائها وما لبث أن كرر ذلك مراراً وأنا أرمق تصرفاته وألاحظ تحركاته محاولاً أن أصل إلى مكنون نفسه وما يدور برأسه من أفكار.. وجفَّف عرقه الذى كان ينساب من وجهه كالشلالات التى لا تنقطع المرة بعد الأخرى، خاصة وأنا كنا فى فصل الشتاء.. وبصعوبة خرجت الكلمات من فمه وكانت أشبه بطلقات مسدس مكتوم.

قال وعينه لا تغرب عن دخان سيجارته:

- بصراحة أنا قتلت مراتى وانتابته نوبة من الضحك الهستيرى.. واستطرد وأنا مبسوط وفرحان إنى قتلتها.

وأصابتنى الدهشة وانتابتنى الريبة عما يرتبه هذا الرجل وما الذى يريد منى أن أفعله بعد هذا الاعتراف.

وقبل أن أسأله عن التفاصيل قال:

- أنا قتلتها بالليل.. الليلة دى.. والعجثة موجودة فى شقتى.. ومن الصبح وأنا بأدور على حضرتك قبل ما أسلم نفسى للبوليس.. كان لازم أشوف سيادتك الأول وأخذ رأيك إيه اللى أعمله بالضبط.

فرمقته بنظرة تكسوها الدهشة والغرابة ربما راودنى إحساس أنه ليس فى

وعيه وأنَّ هناك مشكلة في قواه العقلية ولذا كان سؤال المنطقي.

طيب وإيه المطلوب مني أعمله؟ لماذا لم تتوجه إلى الشرطة فور الحادث وتبلغهم بما حدث.

فأجاب بنبرات كلها إصرار وتصميم:

- أنا لازم أعترف بأني قتلتها في الشرطة.. والنيابة.. وأمام المحكمة.. بل وأمام الدنيا كلها.. وده شرطى الأساسى - أنا كل إلى عايزه من سيادتك إنك تحضر معايا عشان أضمن أن كل كلمة من اعترافى تتكتب زى ما هى.. سأعترف بالحقيقة كاملة لن أخفى شيئاً وهذا هو مطلبى الأساسى.. وما أصررت وانتظرت منذ قتلها ليلاً وحتى الساعة السادسة مساء اليوم راجياً منك أن تجيبني إلى مطلبى.

كان حديثه يتسم للوهلة الأولى بالغرابة، إذ إنَّ تجاربي في التعامل مع الجريمة أو المجرمين سواء إثبات عملى في النيابة أو في القضاء أو في المحاماة أن المجرم يلوذ بالإنكار مهما أطبقت عليه الأدلة.. ولكنى أواجه مجرمًا من نوع جديد يصصر على الاعتراف كاملاً وبهذه الصراحة والجرأة..

ولا شك أنَّ لهذا الإصرار سبباً لما هو مقرر من أنَّ الاعتراف أمر يجافى الوضع العادى للأمر في أن يقدم الإنسان بسهولة ويسر دليلاً ضد نفسه وهى الفلسفة الجديدة التي غيّرت وجهة النظر بالنسبة للاعتراف فبعد أن كان الاعتراف سيد الأدلة في الماضى بات دليلاً مشكوكاً فيه لتعارضه مع الطبيعة

البشرية، ومن ثم يجب بحث كافة الظروف والملابسات التي أحاطت بالاعتراف بدقة وبحذر والتي دفعت لصاحبه أن يورد نفسه موارد التهلكة ويضحى ويستهن بحياته وما عاصر وصاحب هذا الاعتراف من دوافع وأسباب خرجت به عن الاقتضاء العقلي والمنطقي.

وبدء السكون الذى أطبق على المكان وقطع على تفكيرى وما أصبح فيه من خيال بحثاً عن أسباب ودوافع هذا الاعتراف صوته الذى انطلق كالقنبلة الموقوتة:

- سأشرح لك القصة من البداية إلى النهاية.. وأترك لك الحكم.. وأنا راضٍ به سواء لى أو على..

إنها مأساة فى أقسى صورها.. أنا واثق إنك عندما ستسمع مأساتى ستعيش حتماً معى قصة حياتى وستغفر لى فعلتى وتقدر الظروف القاسية التى أطبقت على وأحاطت بى من كل جانب ودفعت بى دفعا إلى أن أتحوّل من إنسان يحب الحياة يرعى الله فى أسرته وأولاده وكل من يحيط به وفى كل تصرفاته إلى قاتل.. أنا ضحية.. كل ما أطلبه من كل من يسمع مصيبتى أن يمعن السماع إليها.. وأن يدقق ويمعن فى فصولها الأليمة.. أن ينفذ إلى أعماقى.. أن يعيش معى أحلامى وآلامى.. ويجعل نفسه مكانى ثم يصدر حكمه بعد ذلك كما يشاء.. وأنا واثق أنّه سيلتمس لى العذر والمغفرة.

وتذكّرت من كلماته على الفور قولة الشيخ محمد عبده وكأنّه عايش

مأساة هذا الرجل «خير موارد العدل القياس على النفس».

بدأ الرجل يتحدث بصوت خفيض مثخن بالجراح والآلام.. ينزف دمًا من أعماقه.. كل كلمة ينطق بها وكأنّها قطرة دم تنزف من قلبه الجريح وجسده الذى يصرخ ألمًا.

وبدأ الرجل وهو مازال يدخن السيجارة تلو الأخرى بنهم وشراهة ولا تغرب عيناه عن الدخان المنبعث منها وكأنّه يرى فيه شريطاً لقصة حياته.

قال الرجل فى لوعة وأسى وحسرة:

- أنا من أسرة فقيرة.. تفتحت عيناى على الحياة ووجدت أمامى أباً معدماً على باب الله.. وكبشة من الأشقاء.. لم أشأ أن أزيد من أعباء والدى وحمله الثقيل.. كان لابد أن أنزح من بلدتى بإحدى قرى الصعيد إلى القاهرة بحثاً عن الرزق.. ووجدت ضالتي فى إحدى الورش التى يمتلكها رجل عجوز كهل ليس له أولاد.. وهب حياته لتلك الورشة التى تصنع الأحذية.

- كان وحيداً فى الحياة بعد وفاة زوجته.. واحتضننى الرجل.. وعاملنى كما لو كنت ابناً له.. لم ييخل على بشىء.. علمنى من الصنعة وفن التعامل مع الزبائن الكثير.. وفجأة استبد المرض بصاحب الورشة وأقعده طريح الفراش.. لم أنس جميله وفضله ومعروفه بالنسبة لى وكيف أنّه اعتبرنى بمثابة ابن له ليس بالكلام ولكن بالعمل.. قمت بإدارة الورشة بكل جد وأمانة وإخلاص كما لو كان موجوداً.. وكان سعيداً وأنا أدوام على علاجه وألبى كل

طلباته وهو في مرضه الأخير.. لم أبخل عليه بشئ كنت ابناً له بكل ما تعنيه
البنوة..

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة قال لي آخر كلماته وهو في حشجة
الاحتضار:

«يا بني.. انت فعلاً ابني.. أنا لو كان لي ابن ما كانش حيعمل معايا كده ولا
يقف بجانبى ولا يراعى مصالحى أكثر منك.. إنت مخلص وتستحق كل
خير.. أنا كتبت الورشة باسمك.. وحلال عليك.. وده عقد بيع منى لك».

ثم أسلم الروح.. وفارق الحياة ويده ممدودة إلى يسلمنى عقد البيع
الصادر منه لي.. مسجلاً في الشهر العقارى.. عشت بعدها أياماً لا أصدق ما
حدث وكأنه حلم جميل لا أريد أن أصحو منه وأنا أدعو له دائماً بالرحمة
والمغفرة.

- لقد ابتسم لي القدر ابتسامة عريضة ما كانت تخطر لي ببال أو حسابان..
وتفتحت أمامى أبواب السعادة والرزق على مصراعيها.. وقمت بإجراء
تعديلات بالورشة وتحديثها وتطويرها بأحدث الماكينات.. وكنت دائماً على
صلة عميقة مع الله، أتقى الله وأخافه وأرعاه في كل خطوة أخطوها أو تصرف
أقوم به وأفاء الله على من رزقه الواسع، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

- ومَرَّت الأيام حتى كان ذلك اليوم الذى التقيت بها.. فتاة تحضر إلى
الورشة لتشتري بعض الأحذية النسائية لتتاجر فيها «دلالة»، وسلّمتها

الأحذية.. وظلّت تتردد مرات كثيرة.. كانت أمينة وصديقة وجادة في معاملاتها.. ومع مرور الأيام بدأنا نتجاذب أطراف الحديث وبدأت تقصّ على صراعها مع الفقر وكفاحها من أجل الإنفاق على أسرتها، فقد توفى والدها وترك لها «كوم لحم».. إختوتها الصغار الذين لا تنقطع مطالبهم.. كان عليها أن ترعاهم ولا تتركهم فريسة لذئاب الحياة.. ولمست كلماتها قلبي خصوصاً أنّ كفاحها في الحياة صورة كربونية من كفاحي وحياتي.. أعجبنى فيها الصدق والأمانة ورغبة التحدى لكل العقبات التي تقابلها.. كان حديثها في كل مرة مؤثراً.. لمست كلماتها قلبي.. أحدثت به هزّة عنيفة.. كان «القولت» العاطفي بيني وبينها عالياً.. وملكت على عقلي.. وتربعت على عرش فؤادي.. وكان لا بد أن أتوج هذه العلاقة بإتمام نصف ديني.. وتزوجنا عن حب ملأ قلوبنا.. وقد امتلأنا إصراراً وعزماً على أن نضع يدينا معاً ونفتح المستقبل سوياً وأن نحطم أسوار الفقر الذي أحاط بكل منا في بدء حياتنا.

- ومضى بنا قطار العمر، كانت نعم الزوجة المطيعة التي لا همّ لها غير الاهتمام ببيتها وإسعاد زوجها وأولادها.

- عشت معها أحلى سنوات عمري والتي أثمرت عن ابنة وثلاثة أولاد وفيلا نقطن بها في إحدى مناطق الجيزة الراقية.. وانطلقت سفينة حياتنا تمخر أمواج الحياة والأسرة جميعاً تنعم بالسعادة وترفل في الأمان حتى كان ذلك اليوم المشئوم الذي تعرّضت فيه مسيرة السفينة لموجة عاتية عصفت بكل شىء..

- شاء القدر أن يقطن شاب إحدى شقق العقار المواجه لفيلتى وذاع بين أهل الحى أنه طبيب يعمل فى منطقة قريبة وأنه يسافر يومياً إلى المستشفى الذى يعمل به.. كان حلو الكلمة، عذب الحديث، حتى أن الجميع أعجبوا به وأحبّوه من أعماقهم.

- ورغم حديث أهل الحى عنه وعن مواقفه النبيلة معهم وتفانيه فى علاجهم ورفضه تقاضى مليمًا من أي منهم.. نظير علاجه.. بل فى بعض الأحيان كان يحضر لهم الدواء من جيبه الخاص.. لم تكن تربطنى بهذا الشاب أى علاقة.. كذلك زوجتى وأولادى.. كان البيت بالنسبة لأسرتى بمثابة القلعة الحصينة التى تحمينا وليس من حق أى أحد أن يقتحمها علينا.

- وفى ليلة مشثومة أصيبت زوجتى بالآلام فى البطن.. كان الوقت متأخرًا من الليل، وطلبت من أحد الجيران أن يدلنى على طبيب قريب فأرشدنى على الفور على ذلك الطبيب الذى حضر معى، وقام بالكشف على زوجتى وأعطاه العلاج الذى سَكَن آلامها وطلب منها المداومة عليه لمدة أسبوع كان يتردّد خلاله لمتابعة علاجها وإعطائها الحقن العلاجية فى المواعيد المحددة حتى كتب لها الشفاء واستعادت عافيتها مرة أخرى.. وشكر له جميع أفراد الأسرة كياسته وحسن اهتمامه ومجهوده الذى رفض أن يتقاضى أي أجر عنه معللاً أن حق الجيرة يفرض عليه ذلك.

- واعتقدت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد.. وكانت المفاجأة بعد

فترة قاربت ثلاثة شهور من شفائها.. وبعد عودتي من الورشة فوجئت بزوجتي تقطع حديثاً جاداً كنا نتحدث فيه وتشيد بهذا الطبيب ولم تكن هذه المرة الأولى بل إنَّ هذه الإشادة سبقتها إشارات أخرى على مدار الأيام السابقة كانت تسرد محاسنه وتتغنى بمهارته وأَنَّه طبيب ماهر وله الفضل في إنقاذ حياتها.. وانتابتنى الدهشة واستبدت بى العصبية.. لماذا كل هذا المديح؟ ما سبب هذا الإطراء؟ ما سر اهتمامها به وبحثها عن أحواله وجمعها كل هذه المعلومات عنه وإصرارها على تعقبها.. لكنَّها هدأت من نفسى وابتسمت ابتسامة فاترة وهى ترد فى صوت هامس، هو فعلاً شاب أمور.. وحلو.. ودكتور شاطر وله مستقبل وزادت عصبيتى التى كادت تصل إلى الانفجار والتماسك معها لأول مرة منذ زواجنا، وإذا بها تنفجر فى الضحك المتواصل مما زاد من ثورة غضبى وانفعالى واستطردت قائلة وهى مازالت تواصل ضحكاتها:

«يا رجل عيب.. إنت بتغير منه.. ده زى ابنك.. إنت ناسى إن بتتك عروسة على وش جواز.. ورمقت فى عينى شيئاً من الارتياح بدد بعضاً من الغيظ المكتوم والثورة التى استبدت بى».

- واستمرت فى الحديث:

«ده جاى يطلب ايد بتتك.. عايز يتجوزها علشان كده كان لازم قبل ما أقولك أعمل تحريات سريعة عنه كل اللى سألتته عنه من الجيران أكد أنه شاب وطبيب ممتاز وله مستقبل كبير».

وتبددت ثورتى واعتلتنى فرحة جارفة نسيت في غمرتها كفاح وتعب
السنين السابقة وأحسست لأول مرة أن ولادى كبروا وأن بنتى الكبيرة بقت
عروسة.. وقلت لها:

- مادام انتى وبتك وإخواتها موافقين عليه وعاجبكم على بركة الله.. أنا
موافق.

- ولم تنه الحديث معى قبل أن تعاتبنى عتابًا وصل إلى حد التأنيب على
سوء ظنى وهى تقول فى خفة ممزوجة بالرقّة:

- أنا زعلانة منك.. انت مخك راح بعيد قوى.. بقى بعد العشرة دى
كلها ممكن عقلك يسرح وتفكر أفكار وحشة زى دى.

- وضحكت إلى حد القهقهة وهى تسمع منى ما يؤكد حبى لها بلا
حدود وأنا أقول بنبرة تنطق حبًا وحنانًا وثقة.

- الرجل اللى يحب بيته ومراته لازم يغير عليهم.

- وضحكنا سويًا ملء قلوبنا وإن شئت لقلت ملء قلبى، فقد كان قلبى
مملوءًا حتى آخره بحبى لزوجتى وأولادى لا موضع فيه لأى شىء آخر.

- وتمت خطوبة ابنتى لهذا الشاب فى جو رومانسى شاعرى حضره
أفراد الأسرة والأقارب والأصحاب.. كان كلامه حلواً وحديثه عذبًا جذابًا
مقنعًا ينفذ إلى القلب.. وأحسست بالسعادة تغمر ابنتى عبر هذه الخطبة كانت

معجبة به كل الإعجاب، كانت عيناها تنطق بذلك وتفصح الحب الصادق القوى الذى نفذ إلى قلبها.. فقد رأت فيه نموذجاً لفتى أحلامها وصورة مشرقة لزوج المستقبل وارتوت من أحاديثه العذبة المنمقة التي تنطق بالحنان والحب الرومانسى الجميل.

- ومَرَّت الأيام وفجأً تبدلت أحاسيس ابنتى.. تَغَيَّرت إلى النقيض.. باتت لا تطيق صورته وتنفر من لقائه وتتأذى لمجرد سماع اسمه.

- وواجهتها بهذا التحول فقررت أنها أصدرت قراراً لا رجعة فيه بفسخ هذه الخطبة وأنها اكتشفت أنه لن يكون الزوج المناسب لها وأنه مخادع وكاذب.

- وحاولت معها جاهداً مرات عديدة أن أعرف سرّ هذا التحول المفاجئ وأسبابه ودوافعه ولكن فى كل مرة كانت تجهش فى البكاء وأحسست أنها تخفى داخلها سرّاً دفيناً تحتفظ به لنفسها ولا تريد أن تبوح به وأن هذا السر من الجسامة والفداحة والقوة التي حطمت ودمّرت هذا الحب.. بل إن ما زاد الأمر حيرة وغرابة أنها تركت المنزل وأقامت مع جدتها وأصرت على عدم العودة حتى تؤكد لنفسها وللجميع أنها ما عادت راغبة فى مجرد سماع اسمه أو حتى مجرد الإقامة معنا فى المسكن لمجرد أنه يسكن فى الشارع ذاته.. وحاولت جاهداً أن أعرف من زوجتى سر ما حدث.. ولماذا هذا التحول إلى النقيض من الحب فى أعلى قممه إلى الكراهية فى ذروتها.. وبدلاً من أن تفك رموز هذا الطلسم كانت إجاباتها غير شافية ولا

مقنعة..

- زادنى صمت الأم حيرة على حيرتى ودهشة أكثر من دهشتى لهذا التحول المفاجئ فى تصرفات ابنتى وإصراراً على معرفة الحقيقة خاصة وأنَّ تعليل الأم لما حدث كان غير مقنع مرة تبرز ذلك بقولها: «عين وصابتها» ومرة أخرى إنَّها محسودة إلى غير ذلك من التبريرات الواهية غير المقنعة أو أنها بعد فترة لازم حتعقل.

- ومرّت على أيام وكأنَّها الدهر وأنا أصارع أشباحاً من الخيالات والأوهام والافتراضات التي كادت تحطم رأسى من كثرة التفكير، إذ فوجئت بخطاب يصلنى على الورشة وبمجرد أن قرأت سطره حتى أصبت بدوار وترنّحت من فرط هول كلماته وتماسكت حتى لا أسقط على الأرض من فرط ما جاء به.. «مراتك يا محترم على علاقة مع عريس ابنتك»!! ووقعت عيناي على صورة كانت مع هذا الخطاب لحرمى المصون وهى ترقص مع عريس ابنتى فى أحد الأندية الليلية.

- وفركت عيناي وأنا أتأمل الصورة وقتها.. أدركت سر التغير المفاجئ لمشاعر ابنتى وكيف تبدّلت من الحب لهذا الطبيب إلى الكراهية المفرطة ومن الاعتزاز به إلى نبذه والنفور منه واحتقاره، وكيف أنَّها أثرت أن تقبر مشاعرها.. تدفن أحاسيسها.. تتعذّب فى صمت.. تترك البيت التى عاشت فيه منذ مولدها حتى لا ترى خيانة أمها..

وتحاملت على نفسى وبدأت أفيق من أثر الصدمة التى قرعت رأسى وأنا

أطوى هذا الخطاب والصورة في جيبى.

- وأسرت إليها وعرضت عليها الخطاب القاتل والصورة المدمرة.

- نعم كان خطابًا قاتلاً فقد كان بمثابة السكين التى ذبحتنى.

- كانت الصورة مدمرة كالقنبلة التى تفجرت فمزقتنى إربًا إربًا كان علىَّ

أن أربط الخيوط المفككة بعضها مع البعض الآخر وأن أتيقن الإجابة عن السؤال الحائر الذى أشقانى وحيرنى عن سر ترك ابنتى للمسكن.

وبدأت أتحمس الأمر.. وعلمت من الحى أن حكايتها وسيرتها السيئة

على لسان الجيران.. ومما زادنى ألماً أنى آخر من يعلم بهذه العلاقة..

كنت كالمجنون الذى لا يدرى ماذا يفعل.. كان لابد أن أسترجع صوابى

وأن أفرمل عصبيتى وأعالج الموضوع بحكمة وروية حرصًا على أولادى

الطلبة بمختلف مراحل التعليم.. ما ذنبهم؟ وقد ابتلوا بأفم أفعى مأكرة.. لم

تجد أحدًا تلدغه سوى زوجها فى شرفه وأولادها فى كرامتهم.. لقد جمعت

الأنانية مع الخيانة بكت كثيرًا وزرقت دموع التماسيح بعد أن واجهتها

بالخطاب والصورة وهى تعترف بأنها نزوة.. وقفت عند حد الإعجاب

المجرد به ولم تتعد ذلك.. إن شرفه مازال مصانًا ويجب ألا تأخذه أفكاره

وآلا يسبح به خياله إلى أبعد من ذلك.

وضغط على فكره وأوقف عقله أمام هذه الدموع المنهمرة والكلمات

المعسولة وأنها لا تستطيع أن تستغنى أو تعيش بعيدًا عنه ولم تنس حبه لها

طيلة السنين الماضية.. كان عليّ أن أصدق.. أن أقنع نفسي بكلماتها التي تشدقت بحبها لي وأنا لن تفرط فيه حتى لو فرط فيها.

وهذه فكره بعد أن استسلم لرأيها.. وأقنع نفسه على مضض بهذا الاستسلام.. بعد أن أوقف عقله ومنطقه.. أن يترك المسكن الذي عاش فيه أحلى أيام حياته هو وأولاده هرباً من حديث الناس وبعيداً عن نظراتهم القاتلة له، واستأجر شقة أخرى مفروشة في عمارة فاخرة بشارع الهرم لحين إعداد مسكن جديد.

- كان يوم عيد ميلادها عندما قرر أن يحتفل معها به بمفرديهما ليعيدا ذكرى أيام الحب ولياليه والإخلاص بينهما.. واشترى «تورته» وهدية ثمينة احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة إلى قلبه.. ووضع الشمع المضيء رمزاً لسنها، فقد أتمت أربعة وأربعين عاماً.. وتوجه إلى غرفة الاستقبال استعداداً للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة، فقد كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلاً.. كانت في الحمام عندما وقعت عيناه على دبلتها.. أمسك بالدبلة ليحتفظ بها لحين خروجها من الحمام ليلبسها إياها تفاؤلاً ببدء عام سعيد وعهد جديد وتسمّرت عيناه أمام الاسم المنقوش على الدبلة.. ليس اسمه.

يا للمصيبة!

إنّه اسم الطبيب.. كاد يصاب بالشلل وهو ينتظر خروجها من الحمام علّها تفسّر له سر وجود اسم هذا الطبيب على الدبلة التي تلبسها.

كان يريد تفسيراً حتى ولو كان كذبة جديدة كتلك الكذبة الكبرى التى صدقها من قبل.

- وخرجت من الحمام وقد تحامل على نفسه وتظاهر بالهدوء وهو يقول:

- كل سنة وانت طيبة أنا منتظر خروجك من الحمام علشان نحتفل مع بعضنا بعيد ميلادك ونطفى الشمع مع بعض.

- أحسّ بالحرارة وقد ماتت فى نبرات صوتها وهى ترد ببرود:

- وانت طيب.

- ولم يطق الصبر أكثر من ذلك.. واجهها بالدبلة.. وكانت القارعة عندما ردّت عليه بحدة ممزوجة بالبجاجة والفجور.. نعم أحبه.. لقد سكن قلبى واحتله كاملاً فما عاد فيه مكان لغيره.. وجدت معه أنوثتى التى افتقدتها طيلة السنوات الماضية وأنا حبيسة بالبيت لا أفارقه.. أعمل فيه كالخادمة من الصباح حتى آخر الليل.. سمعت منه أعذب الكلمات وأحلى عبارات الحب.. كانت كالقيثارة التى تنشّد لحناً عذباً يهزّ كل كيانى.. وبصراحة فأنا لا أطيق البعد عنه ولو للحظة واحدة.. صورته الباسمة أمام عيني ولا شئ سواها فى صحتوى ومنامى.

- لحظتها لم أشعر بنفسى فقدت وعى.. لم أدر ماذا أفعل ولم أتمالك نفسى وأنا أمسك بالسكين التى كنت أحضرتها من المطبخ لتقطيع «التورته»

فغرستها في قلبها.. ذلك القلب الذي لم تهزه عشرة السنين ولم تحرّكه غريزة الأمومة وانطلق عابسًا تاركًا كل هذه القيم بحثًا وراء لذة آثمة.

ولم أتركها سوى جثة هامدة وسط بركة من الدماء وأغلقت عليها الباب.

كان هذا هو حديث الرجل لي وهو يدخن في شراهة ويتحدث بعصية لا حدود لها يروي مأساته لي.

تعاطفت مع الرجل ورقّ قلبي لمأساته، ونسيت في غمرة الانفعال معه ومعايشته قصته مع الخيانة والأنانية وكيف كان كريمًا مع زوجة أسلمت نفسها لملاذاتها المحرمة وباعت جسدها رخيصةً بلا ثمن للشيطان.. نسيت متاعب كل اليوم وانتقلت معه إلى قسم الشرطة المختص، حيث أبلغ واعترف بما حدث وانتقل رئيس المباحث إلى الشقة، حيث وجد جثة الزوجة «والتورطة» والشمع والدبلة.

وقام رئيس المباحث بالتحري فأكد الجيران خيانتها، وأكد البعض أنه نصحتها فلم يؤثر فيها النصح ولم يجد إلى عقلها سيلاً بل إن ابنتها أكدت تلك العلاقة الآثمة بين أمها وبين خطيبها.. وأنها نصحتها أكثر من مرة بالابتعاد عن هذا الشيطان وأن تعود إلى طريق الهداية والرشد حفاظًا على زوجها وحماية لأبنائها.. ولكن غواية الشيطان كانت أكبر واستسلامها لشهواتها كانت أعمق من أن تستجيب لصوت العقل والحكمة والدين وأن تسير في طريق الهداية واختارت سكة الندامة ورفضت طريق السلامة وقالت ابنتها

إنها كانت بصدد قتل أمها.. وإنها فكرت في ذلك كثيرًا لتأثر لشرف أبيها وكرامة أسرتها.. ولكنها ترددت أكثر من مرة خوفًا من الفضيحة.

وتمت إحالة المتهم إلى محكمة الجنايات بتهمة القتل العمد.. كان السكون يخيم على قاعة محكمة الجنايات عندما قطعه صوت الحاجب.

- محكمة.

ونودى على المتهم.. وسأله رئيس المحكمة فأصرَّ على الاعتراف وأنه قتلها عندما فاجأته وأعلنت له في وقاحة وتبجح وبلا استحياء أنها على علاقة آثمة بالطبيب وطلبت منه أن يتركها كي يغوصا معًا في مستنقع الرذيلة الذي آثرا السقوط فيه.

وبدأت دفاعى دفاعًا عن المتهم مستهلاً مرافعتى بمقولة الإمام محمد عبده «إن خير موارد العدل القياس على النفس».

وطرحت سؤالاً يفرض نفسه في منطق الدليل في هذه القضية هو:

- لو أيًا منا ساقه قدره الأليم وحظَّه العاثر في أن يعيش فصول هذه المأساة التى عاشها المتهم.. فماذا هو فاعل؟

- إنَّ المجنى عليه الحقيقى وبحق في الدعوى الماثلة هو هذا الزوج الطيب المسكين الذى تلقى طعنة غادرة في شرفه.. في كيانه.. في عرضه أمام نفسه.. أمام جيرانه.. أمام أولاده.. أمام الحى الذى عاش فيه.. كانت كفيلة بأن تجهز عليه.. تحطمه.. تقضى عليه قضاء مبرماً.

- لكنّه خضع لصوت العقل وأثر الحفاظ على أسرته في محاولة يائسة أن يبقى هذا الصرح الذى أعملت فيه الأم معاول الهدم بلا هوادة.. على رأس زوجها وأولادها بلا شفقة ولا رحمة بعد أن أسلمت نفسها لغواية الشيطان.

- لم يتسرّع الزوج بالقصاص منها أو من الطيب رغم وجود الدليل الدامغ معه على خيانتها بعد أن تلقى خطابًا يفضح هذه العلاقة وبعد أن أصبحت سيرتها وفضيحتها على كل لسان فى الحى.. كان بوسعه أن يهدم المعبد على من فيه ويدفن الجميع تحت أنقاضه، ولكنه آثر أن يحافظ على هذا الصرح الذى تعب وجدّ وشقى حتى شيّده صدق معسول قولها أو أقنع نفسه بتصديق قولها علّها تصحّح من سلوكها المعوج.. ذكّرها بأبنائها الذين يدرسون فى الجامعات وأنهم سيتخرجون فى الجامعة وكيف أنّ سلوكها المعوج سيكون نقطة سوداء فى الرداء الأبيض الذى حرص دائماً أن يكون ناصعاً.. ترك الحى الذى عاش فيه والفيلا التى بناها بعرقه وكفاحه واستأجر شقة بمكان بعيد كى يبتعد بها ويبعدها عن هذا الطيب.

- ولكنّها لم ترتدع.. أصمت أذنيها.. وأغلقت فكرها وداست على ضميرها وابتعدت عن كل نصيحة واختارت طريق إبليس.

- ومن هول ما كشفت عنه التحقيقات أنّه لم يكن طيباً.. كان أفاقاً.. نصاباً يبتز أموالها واعتاد ذلك مع غيرها اللاتى ضعفت نفوسهن أمام غواية الشيطان.. وكانت -مع الأسف- لا رحمة لها فى الأرض ولا فى السماء..

كانت تعلم ذلك جيداً وأدخلته البيت ليخطب ابنتها وهى تعلم ذلك جيداً ليكون إلى جوارها عابثة غير عابثة حتى بعد أن تأكدت ابنتها من خيانتها.. لم تفق من غفلتها ولا أنانيتها.. لم تتحرك أمومتها وهى ترى ابنتها تتعذب.. تترك البيت حتى لا ترى الخيانة فى عيون أمها ليلاً ونهاراً.. ووصلت بها البجاجة والتدنى منتهاها عندما فاجأت الزوج معترفة بخيانتها.. كان يقدم لها الحب فى عيد ميلادها فقدّمت له الخيانة فى أحط صورها وأخزى ملامحها.

واستطردت فى دفاعى:

- أن المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات والتي جعلت عقوبة الجنحة لمن يقتل زوجته وشريكها وهما متلبسين بجريمة الزنا تنطبق على المتهم فى الدعوى الماثلة.. فما هو معنى التلبس؟ التلبس لا يعنى المشاهدة بالعين.. لا يقتضى أن يفاجأ الزوج بوجود زوجته مع خليلها فى وضع الرذيلة، ولكن التلبس يدرك بأى حاسة من حواس الإنسان.. فما الفرق فى أن يدرك الصورة ببصره أو يدركها تخيلاً بعد أن سمعها بأذنيه.. فى أن يسمع زوجته وهى تعترف أنّها تخونه بين أحضان رجل آخر لا تستطيع أن تنساه وأن صورته لا تفارق عينيها.. إنّه التلبس بعينه.. وقعه على نفسه وأثره عليها تماماً كما لو كان قد شاهدهما معاً متلبسين بالجريمة.. الغاية التى تغيّأها القانون والحكمة التى من أجلها شرع هذا النص وهبط بعقوبة القتل من الجنائية إلى الجنحة واحدة فى الاثنين. فما تغيّأه المشرع والعلة التى ارتسمت فى وجدانه وهو يجعل عقوبة القتل فى المادة ٢٣٧ عقوبات.. عقوبة الجنحة هى ذلك الشعور

المفاجئ غير المتوقع من الزوج عندما يفاجأ ويتيقن من أن زوجته بين أحضان رجل آخر.. على نحو يفقده صوابه وقدرته على التفكير العاقل المتأنى في روية وهدوء أمام هول ما رأى أو سمع وهو ما تحقق وتأكد منه عندما سمعها وهي تعترف بالخيانة وتؤكد لها بلا حياء أو خجل.

واستطردت في دفاعي متسائلاً السؤال الذي تساءلته في بداية دفاعي:

- لو أيًا منا قدّر له أن يواجه الظروف ذاتها التي واجهها المتهم.. أن يتلى بزوجة خائنة تجاهره بالخيانة لا ترعى حق الزوجية والواجبات التي تفرضها الأمومة.. فماذا هو فاعل غير ما فعل المتهم؟

ورفعت الجلسة للمداولة..

في هذه الأثناء ونحن ننتظر صدور الحكم وصل خبر، مؤداه أن الطبيب العاشق قد ترك مسكنه وهرب إلى مكان مجهول لم تسفر عنه التحريات التي توصلت إلى أنه طبيب مزيف فشل كطالب في كلية الطب ولم يكمل دراسته وأنه ينتقل من مكان إلى مكان ويعيش من عرق السيدات المخبولات المفتونات عالة على أموالهن ويختار من ضحاياه اللائى يكبرنه سنًا ويبتز أموالهن وأنه وجد مقتولاً في شقة في بإحدى المناطق النائية في أطراف القاهرة وأن البحث مازال جاريًا للوصول إلى سر الحادث والقبض على القاتل.

وهمست في أذن المتهم:

- ها هي السماء قد اقتصت لك.

- نظر الرجل إلى من وراء القضبان وقد بانت من قسّمات وجهه..
الراحة الممزوجة بالخوف وهو يقول:
- أنا الذى قتلته.
- ظنته يمزح.
- فقال لى مؤكّداً أنّه هو القاتل.
- فقلت له:
- مستحيل.. لأنك محبوس.
- فأجاب فى ثقة:
- لقد اتفقت مع أحد الأتقياء فى الحبس الاحتياطى وكان بصدد
الإفراج عنه.. وأعطيته عنوانه وأوصافه.. وطلبت منه تعقبه وقتله.
- وسألته فى استغراب:
- لماذا لم تقتله قبل حضورك لمنزلى فقد كان أمامك متسع من الوقت.
- قال فى ثقة.
- لقد بحثت عنه فى كل مكان.. ومن حسن حظّه فى هذا اليوم أنّه لم يكن
موجوداً.
- وقطع حديثى معه صوت الحاجب وهو يعلن عودة المحكمة للنطق
بالأحكام.

حكمت المحكمة بحبس المتهم سنة مع الإيقاف عن تهمة قتل زوجته
كان قد قضاها في الحبس الاحتياطي وأوردت في حكمها ما يؤكد دفاعي من
أنّها طبقت عليه المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات وقاست حالته على حالة
التلبس باعتبار أنّ القياس جائز في المسائل الجنائية إذا كان لمصلحة المتهم.

ومرّت الأيام وانقطعت سيرة الرجل وإذا بي وأنا في طريقى في أحد
شوارع وسط القاهرة إلى مكتبي بصوت يناديني كان شيخاً فانياً اشتعل رأسه
شيئاً وترك الزمن بصماته على وجهه الذى كسته التجاعيد، وقال وهو يحدثنى
من فم يكشف عن لثة تساقطت معظم أسنانها انت موش عارفى.

فحملت في وجهه وكان علىّ أن أتذكر شخصيته فأحسّ الرجل بما يعتمل
في فكرى فذكرنى بنفسه.

ودفعنى الفضول فسألته عن الحديث الذى دار بينى وبينه وهو فى قفص
الاتهام قبل النطق بالحكم:

فأجاب ضاحكاً:

- انت لسه فاكرو.. أنا لا حرّضت على قتله ولا حاجة..

- فسألته مستغرباً عن سر اعترافه السابق لى.

- قال:

- ما دمت مصمم سأقول لك أنا كنت ناوى أعترف بقتله ليه.

- ابني الكبير لما كان بيزورني في السجن كان مصرًا على أن يقتله.. فأنا لما سمعت أنه اتقتل تبادر إلى ذهني إنني أعترف عشان أنقذه.. أنا وقتها كنت حاسس بالضيق وقلت مادام أنا ضايع خليها بالمرّة.

- فسألته في لهفة:

- ومن الذي قتله؟

- فأجاب في نبرة خيثة .. الله أعلم.. واستطرد ما حدث له كان هو النهاية المنطقية لأمثاله الذين يعيشون في الأرض فسادًا، فقد عثر عليه مقتولاً في شقة متواضعة في حي شعبي كان عاريًا تمامًا بجواره زجاجة من الخمر وبقايا سجائر محشوة بالمخدر الحشيش ولم تتوصل التحريات لمعرفة القاتل لأنّه كان هدفًا لانتقام كثيرين ممن عبث ودّمّر حياتهم.. وتوقعت التحريات أن يكون القاتل زوجًا أو أبًا أو أخًا أو ابنًا لإحدى ضحاياه.

- ربما اعتقد الرجل أنني لا أصدقه فأقسم وهو يضغط على يدي مودعًا:

- والله كل اللى قلته هو الحقيقة.. أنا طول عمري باخاف من دم الفرخة وهى بتدبح! مكنتش أتصور أبدًا أنه تجيني الجرأة وأقتل.

- وسأقني الفضول إلى سؤاله:

- إذا ما دمت تخاف من القتل ومن رؤية الدم فلماذا قتلت زوجتك؟

- فضحك ضحكة مלאها الخبث وقال أعتقد أنني لو أقسمت لك أنني

لم أقتلها لن تصدق فأجبتة على الفور طبعًا.. لقد عايشت قضيتك وأدلتها وترافعت فيها وأنا على يقين أنك القاتل فإذا لم تكن أنت فمن القاتل؟

- فازدادت ضحكة السخرية على شفثيه وقال وهو يتفحص ملامح الحيرة في عينيه وكأنما يريد أن تزداد حيرة.

- يهملك تعرف بعد كل السنين دى مين اللى قتلها؟

- فأجبتة في لهفة أحسَّ بها وبشغف في أن أسمع الإجابة عن هذا السؤال الحائر.

- بنتى هيه اللى قتلتها.. أنا فعلاً كنت جايب التورته علشان أحفل بعيد ميلاد بنتى مش عيد ميلاد مراتى وكنت موجود أنا وبنتى وأولادى الاثنين وفعلاً مراتى دخلت الحمام وفي تلك الأثناء بنتى هيه اللى شافت الدبلة وبمجرد ما خرجت هيه اللى واجهتها ادا منى فأصرت على حبها له وطلبت منى أن نتركها لحالها لتعيش حياتها على نحو آثم مشين غير عابثة بكرامة زوجها ولا سمعة أولادها مضحية بكل شىء من أجل علاقة محرمة.. لم تتمالك ابنتى نفسها وأمسكت بالسكين اللى أعدت لتقطيع التورته وأخذت تطعنها في هيستريا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

- واستكمالاً ومواصلة لمسيرة الكفاح والعطاء اللى بدأتها طلب من أولادى التوجه فوراً لجدهم والبقاء معها وأننى سأعترف بقتلها دفاعاً عن شرفى وعن سمعتهم وحفاظاً على مستقبل ابنتى وأغلقت الباب عليها

وانتظرت طيلة اليوم حتى التقيت بك وأحسست عندما سمعت قصتي واعترافى واقتنعت بذلك أحسست بالراحة وبأن هذا السيناريو الذى أعدته سيلقى قبولاً وتصديقاً.

- قال هذه الكلمات ولم أتركه لينصرف من أمامى قبل أن أسأله عن أولاده وعن أحوالهم.

- فأجابنى أنه بعد أن خرج من السجن بدأ حياة جديدة تاركاً وراء ظهره الماضى بحلوه ومره، عرض عليه أولاده الزواج ولكنه أبى ورفض مكرساً حياته لهم كأب وأم موفراً لهم كافة متطلباتهم باذلاً كل ما فى وسعه لإرضائهم وسعادتهم..

- ابنته الكبرى أغلقت صفحة الماضى وتزوَّجت عن حب من محاسب وأنجبت منه طفلين عزيزين على قلبه يجد حياته وسعادته ودينياه معهما.

- وابناه أحدهما تخرج فى كلية الهندسة أحبَّ زميلة له فى الكلية خطبها وفى سبيله لإتمام شقة الزوجية، وقد اشترى له الشقة التى اختارها هو وخطيبته ودعا لهما بالتوفيق والسعادة التى حرمتها الأيام منها، أما ابنه الأصغر فقد اختار كلية الطب وأصرَّ عليها وهو فى سنته النهائية.

وأنبى الرجل حديثه معى وهو يودعنى برغبته فى توجيه سؤال شخصى

لى:

عن رأى الشخصى فيما قام به هل أخطأ أم أصاب عندما حمل على عاتقه

عبء الاتهام بقتل زوجته على غير الحقيقة.. وما المصير الذى كان سينتظر الأسرة لو قدّمت ابنته إلى المحاكمة بتهمة قتل أمها..

ولمح الرجل الحيرة والتردد في الإجابة عن سؤاله فبادر بقوله أنا الى أجاب عن السؤال..

أكد حقول قانونًا غلط.. كان لازم تقول الحقيقة.

إنما أنا بمنطق الأب مصر على إنى الى عملته هو الصح.

الآباء لازم يضحوا علشان سعادة أولادهم مهما كان الثمن ولو كان حياتهم وده المعنى الكبير الى لم تستوعبه الأم..

وانطلق الرجل بعد أن ودّعنى بحرارة وإجلال.

وبعد عدة أعوام قرأت في الصحف نعيًا يتضمن وفاة الرجل فتوجهت لتقديم واجب العزاء لأسرته في السرايق المعد لذلك وعندما علمت ابنته بحضورى طلبت لقائى وأفضت إلى بسر احتفظ والدها به واثمنها دون غيرها من إخوتها عليه.

إنّه هو الذى قتل الطبيب عشيق أمها انتقامًا لشرفه وكرامة أولاده وأنّه بالفعل اتفق مع أحد المتهمين الخطرين الذى أمضى مدة العقوبة وكان في سبيله للإفراج عنه أن يقتله نظير مبلغ كبير من المال وبالفعل زجّ في طريقه إحدى بائعات الهوى التي صاحبتة إلى مسكنه وأسكرته حتى الثمالة ثم قامت بقتله وانصرفت ولم تتوصل التحريات إلى معرفة الحقيقة التي انتهت معها

النيابة إلى القرار بالألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم معرفة الفاعل.

وأن والدها كان صادقاً عندما أخبرك بقاعة المحكمة أنَّه هو القاتل
لاعتقاده أنَّ ابنه الأكبر هو الذى قتله لأنَّه كان يبحث عنه يريد قتله وعدل عن
ذلك عندما أخبره زميله السابق في السجن أنَّه نفذ الجريمة بلا دليل..
وأضافت أنَّها تعتقد أنَّ سر ما كان ينوى والدها الإقدام عليه وهو الاعتراف
بقتل الطبيب المزيف ليفتدى ابنه إذا ما وجه إليه أي اتهام، وهو ذات موقف
التضحية يوم أن افتداهها وقَدَّم نفسه قرباناً للعدالة بدلاً منها.

وانصرفت بعد العزاء.. وقد عمَّق حديثها في نفسى إحساساً أؤمن به عن
قناعة أنَّ الإنسان لا يولد مع الجريمة ولكن المجتمع الذى يدفعه إليها.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو تقة
المحامي بالنقض

القضية الثالثة

العقرب والصفدع



■ ■ العقرب والضفدع

مال ميزان الليل وبينما كنت أهم بمغادرة مكتبي قابلتني على الباب سيدة أصرت على تسليمي رسالة من طيبة أرسلتها إليَّ من محبسها في سجن القناطر، وقررت تلك السيدة أنها بذلك تكون قد نفذت وصية الطيبة التي سلَّمتها هذه الرسالة وأخذت عليها عهدًا وأشهدت الله عليه أنَّها ستقوم بهذه المهمة بتسليم الرسالة المغلقة لي.

وسألتها عن اسم هذه الطيبة والتهمة التي حبست من أجلها ومدى صلتى بها فقررت أنَّها مجرد رسول.

ثم أعدت سؤالها وأنا أقوم بفض الرسالة عن فحوى ما جاء بها ومضمونها والغرض منها فأجابت بالإجابة ذاتها السابقة.

وأضافت أنَّها بتسليمها الرسالة لا تكون مهمتها قد انتهت، فقد أقسمت للطيبة أنَّها لن تكتفى بذلك بل ستلازمي حتى أقرأ الرسالة وأقف جيدًا على ما جاء بها.. وإزاء إصرارها واستعطافها وتوسلها سألتها عن المصلحة



والدافع الذى حدا بها إلى القيام بهذه المهمة.. فأجابت أنها لا مصلحة لها، إذ لا صلة لها بهذه الطيبة سوى أنها قابلتها فى سجن القناطر أثناء زيارة إحدى قريباتها المسجونة فى السجن ذاته.

وقمت بفض الرسالة.. كانت الرسالة تقتر حزناً وصورة مجسمة من الخسة والندالة والغدر وانعدام الضمير.. كانت سطورها مفعمة بالبكاء والأسى.

روت لى صاحبها الطيبة السجينة قصتها بكل ما فيها من مرارة أنها كارثة بل مصيبة كبرى حلت على رأسها كالمطرقة وريح عاتية هبت عليها بقسوة فاقتلعت حياتها من جذورها بلا هوادة ولا رحمة.. بعد أن عانت مرارة الاتهام ومعاناة محاكمتها التي انتهت بمعاقبتها بالإعدام شنفًا عن تهمة تتسم بالبشاعة والوحشية وانعدام العقل والضمير.. قتل ابنة ضرتها عمدًا مع سبق الإصرار والترصد وحرقتها.. وأقسمت مرارًا وتكرارًا قسمًا مغلفًا بين سطور خطابها بأنها بريئة وبأنها لم ترتكب هذه الجريمة البشعة الشنعاء المجردة من كل معانى الإنسانية والرحمة.

واستطردت فى رسالتها أنها بعد سماعها الحكم بإعدامها شنفًا خاصم النوم جفونها وباتت أرقّة لا تنام، ذبلت عيناها من طول السهر والدموع.. تطاردها الكوابيس وتستبد بها الهواجس فى كل لحظة من نهارها وليلها.. كانت صورة عشاوى لا تفارق عينيها.. وتزداد رعبًا على رعب وخوفًا بلا حدود كلما اقتربت صورته من عينيها، بل وقد استبدّ بها الخيال

القاتل وهى تتصور نفسها معلقة فى حبله.. وأنت خطابها بأنها لو كانت قد ارتكبت هذه الجريمة فما عادت تستحق الحياة وما كان لها مكان أو مكانة فى المجتمع، بل كان عليها أن تتخلص من حياتها بنفسها، وزادت فى قسمها أنها بريئة.. بريئة.. وبللت الرسالة بدموعها التى أشارت إلى أنها دموع الظلم الذى حاق بها، وأكدت أنها لا تعرف شيئاً عن ملابس قتل الطفلة.. من الذى قتلها.. وما الظروف التى تمت فيها واقعة القتل وحرقت جثتها.. ما الدافع إلى هذا القتل.. ومن وراءه.. وهل كان الزَّج بها فى آتون الاتهام محض صدفة أم مكيدة مدبرة احكم الاعداد لها.. وأنت حديثها بأنها حتى كتابة هذه الرسالة لا تصدق ما آل إليه حالها وكيف تلاحقت الأحداث لتصل بها إلى هذه النهاية المؤلمة.. بل إن تخيلاتنا المضطربة المتلاطمة الراضة تصديق ما حدث تصور لها الواقع الأليم الذى أوصلتها الأحداث إليه أنه مجرد حلم مزعج وكابوس مخيف مرعب لا تدري متى تفيق منه.. وقدمت رجاء مكرراً واستعطافاً ممزوجاً بالدموع أن أقف إلى جوارها وأبنى قضيتها وألا أتركها تواجه هذا المصير المؤلم دون الدفاع عنها.

كان لهذه الرسالة وقع مؤثر فى نفسى فى هذا الوقت المتأخر من الليل وخصوصاً أنها وضعت كل ثقتها.. حياتها.. ماضيها.. حاضرها.. بل ومستقبلها أمانة حملتنى إياها وطوقت عنقى بها..

ولم تنصرف السيدة حاملة الرسالة إلا بعد أن حملت رسالة شفوية منى إلى الطيبة السجينة تبلغها بقبولى الدفاع عنها.

وأرسلت في طلب أوراق القضية.. وكل صغيرة وكبيرة تتعلق بها..
كانت أحداثها مثيرة ومحيرة.. كانت لغزاً تحار في فك رموزه العقول.

كان شاباً وسيماً معجباً ومزهُواً بنفسه مغروراً.. مختلاً من حسن طلعته
وجمال هندامه.. كان يستخدم أغلى أنواع العطور وأجودها والتي كانت
تنساب على جسده بلا حساب.. كان أشبه بلمبة الكهرباء التي تنهافت عليها
الفراشات من كل صوب.. كان سعيداً مزهُواً فخوراً بذلك.. كانت هذه
الفراشات هي الفتيات الحسان اللاتي يتساقطن أمامه، وعلى الرغم من أنه
كان عاطلاً يقضى ليلاليه في السهرات الحمراء وينام طيلة نهاره إلا أنه كان
مبسوط اليد من أموال النساء التي كان يعيش عليها.

ووجد ضالته المنشودة في إحدى الفتيات.. كانت ثرية ابنة تاجر
كبير.. دخل الأسرة ونفذ إلى قلب الفتاة وكأنه ميكروب فتاك لعين ينفذ خلصة
ليفتك بصاحبه فلا يحس به إلا وقد أشرف على الهلاك.. بحديثه المعسول
وأساليه الملتوية.. اتخذ التاجر منه ابناً وزوجه ابنته وأعدَّ له شقة فاخرة في
عمارته.. وكانت تغدق عليه بسخاء من مال أبيها الذي كان لا ييخل عليها
بشيء.

ومرَّت الأيام وهو يرتع في هذا النعيم، وقد بهر زوجته بحديثه المنمق
العذب على نحو حال بينها وبين الوقوف على حقيقة واقعه، وانقضَّت ضائقة
مالية على والدها تزايدت مع الأيام وبدأت تتكشف يوماً بعد يوم.. وانتهت
بإشهار إفلاسه وكان ذلك إيذاناً بإفلاسها تبعاً لذلك، ونضبت «حنفية» الشراء

وجفّ مأوها، وقلّت النقود في جيبه.. وهنا كشف عن وجهه القبيح وتبحّرت كلمات الحب والهيام والغرام التي كان يمطر بها زوجته صباحًا ومساءً إلى سب وقذف ولعن.. وكشّر عن أنيابه وفي خسة ونذالة طلقها بعد أن أتى على آخر مليم معها.. وأخذ معه ابنته الوحيدة تاركًا طليقته وحيدة مفلسة غارقة في بحور الألم والحسرة والندم.

وبدأ يبحث عن صيد جديد.. عن بقرة حلوب يستنزفها.. عن فريسة جديدة يلتهمها، ولأنّه الصياد الماهر الذي لا تخطئ سهامه في صيد فريسته التي تقع تحت بصره.. فقد وجه سهامه نحو تلك الطيبة التي التقى بها في عيادتها الخاصة بعد أن عرف كل ظروفها وجمع كافة المعلومات العامة والخاصة عنها.. كانت على وشك أن يفوتها قطار الزواج وأن تلحق بقطار العوانس.. كانت دميمة ترتدى «نضارة» سميقة متهاكة.. شعرها «أكرت».. ليس بها مسحة جمال تغرى أى شاب على التفكير في الارتباط بها.. لكنّها في المقابل وهو المهم بالنسبة لهذا الشاب - كانت تملك أرصدة كبيرة في البنوك، فقد عاشت فترة من الزمن تعمل ببلاد النفط.. جمع كل هذه «التحريات» عنها وما إن تأكد أنّها «بنك متنقل» حتى سال لعبه أمام ثرائها، وبدأ العنكبوت ينسج خيوطه حولها، ولم تصمد طويلاً أمام فنونه ودرايته وخبرته في الإيقاع بالنساء.. كانت كلمات الإعجاب أشبه بالسهم الذي أصاب سويداء قلبها.. حديث الحب والهيام والغرام الذي لم تسمعه من قبل يخترق أذنيها لأول مرة لينفذ إلى قلبها مباشرة.. وأحسّت بأنّها في النهاية

وجدت طوق النجاة.. وعليها أن تمسك به بكل قوتها مهما كان الثمن.. بعد اقتربت من أن تلحق بـ«مدرسة العوانس».. نظرت لنفسها في المرآة كثيراً وصوت كلماته المعسولة ترن في أذنيها وهي لا تصدق أن هذا الغزل الرقيق يخصها.. أوهمها أنها واحة الأمان بالنسبة له، واختلق لها قصة من تأليفه، فقد تعود سلك دروب النصب والاحتيال.. أقنعها أنه عانى الجحيم من زوجته الأولى، وقد آن الأوان أن يعيش في جنتها تغمره بحبها وتحيطه بحنانها.. أدخل في روعها أن الجمال نقمة وليس نعمة، فقد كان جمال زوجته الأولى وبالاً عليه، إذ قتله الشك ومزق قلبه وأطار عقله وكان سبباً في فصله من عمله من كثرة مراقبتها وتبعه كل حركاتها.. كانت سبباً في أن ينقطع عن عمله، ورفع يديه ورأسه إلى السماء وهو يشكر الله على لقائه بها، وأن هذا اللقاء كان أجمل قدر في حياته وأن الأيام أرادت أن تنصفه في النهاية عندما رآها.. لقد رأى فيها العقل الراجح الذي افتقده في زوجته الأولى.. أحس في عينيها بالطمأنينة الذي هو في أمس الحاجة إليها.

وأمام ذلك نفضت الطيبة عن كاهلها كل ما هو قديم وبدأت تجرى وراء أحدث فنون «الموضة» في الملابس وتتردد على أغلى محلات «الكوافير» وتقتنى أحدث أنواع «الباروكات».. بدأت تخرج أموالها التي اكتنزتها بعد أن قترت وبخلت على نفسها طويلاً.. وتمنحها له بزعم إقامة مشاريع أوهمها بها.. كانت في حقيقتها سراباً.. كانت تصدقه في كل حركة وكلمة.. تعودت أن تقول له «آمين» على طول الخط وهي تسمع حلو حديثه

وهو يقنعها بأنَّ فارق السن في الزواج أمر سطحي لا يحتسبه إلا «التافهون».. «المراهقون».. مختلو التقدير والتقويم السليم، وهكذا أغلقت بنفسها على عقلها بـ «الضبة والمفتاح».. وانصاعت وراءه وتزوَّجته.

وبمرور الأيام تحوّلت إلى «عجينة» بين أسنانه.. وزاد لين هذه العجينة حينما تبَيَّن أنها عاقر.. وبدلاً من أن تتخذ من الطفلة ابنة زوجها ابنة لها تعوّضها عن أمومتها المفقودة بدأت تفتح النيران على الطفلة وتملكتها الغيرة منها.. وكلما نظرت إليها تذكّرت كلمات الجمال التي كان يرددها والد الطفلة عن أمها، وأصدرت «فرماناً» بمنع الطفلة من الاتصال بأُمها بأيّة وسيلة، وفرضت عليها ستائر حديدية وأسلًاكاً فولاذية بل ومنعتها من الخروج والاتصال بالتليفون.. كانت ترى فيها عدوّاً بلا سبب.. غير ذلك الوهم الذي كان يسيطر على خيالها العقيم أنّه سوف ينقض على سعادتها في أية لحظة فيخرجها من جنة حياتها ويفيقها من هذا الحلم الجميل الذي تعيش فيه، وبدأ الشك يساورها في زوجها وينهش في فكرها.. بدأت تلازمه في كل خطواته حتى أصبحت كظله الدائم فإذا تحدث في «التليفون» كانت ترفع السماعاة الأخرى لتتنصت عليه خوفاً من أن يكون المتحدث الآخر «ضرته» وكان من الطبيعي أن يضيق الزوج ذرعاً بهذا «السجن الانفرادي» وهذه المراقبة التي فرضتها عليه، وأحسَّ بأنها أصبحت كابوساً تجثم على صدره وقيداً على مجونه ونزواته ومغامراته الطائشة، ولم يقف تفكيرها عند هذا الحد، فقد أحسَّت على الوجه المقابل بأنَّ ابنة زوجها هي مسمار جحا في

نعش حياتها الزوجية.. وأنَّ هذه الطفلة هي الجسر الذى يربط بين حاضره وماضيه.. وبدأت الوسائس والهواجس تطاردها ليلاً ونهاراً بل واستبد بها الخيال فى أن يكون زوجها قد عاد إلى زوجته الأولى وردّها إلى عصمته سرّاً أو أنّه فى سبيله إلى ذلك.

وذات مرة عادت الطيبة من عملها ورأت الطفلة تتحدث مع أمها فى التليفون فلم تمالك نفسها وانهاالت عليها بالضرب المبرح وزادت صرخات الطفلة وحضر الجيران وأنقذوها من بين يديها.. وشكت الطفلة للجيران سوء معاملة زوجة أبيها لها، وأنّها تهددها بكيها بالنار والموت لو أنّها تحدثت مع أمها مرة أخرى.

وعندما حضر الزوج شكاه الجيران ما حدث من زوجته لابنته واستنكروا فعلتها وعنتها وقسوتها وسوء معاملتها لتلك الطفلة البريئة وانصرف الجيران، واعتقدت الطيبة بعدما سمعت ما قاله الجيران عرضاً لسوء معاملتها لابنة زوجها.. أنّه سيؤبّخها ويؤنبها وسيثأر لها وسيتخذ موقفاً صارماً وحاداً يحول دون تكرار ذلك مستقبلاً أمام دموع ابنته التي كانت تصرخ طالبة النجدة منه وأن يحميها من هذا العذاب المتكرر، لكن هذا التفكير ما لبس أن تبدد.. وضاع أدراج الرياح، فقد انقلب الزوج على ابنته الصغيرة وطلب منها -فى لهجة صارمة- تنفيذ أوامر زوجته وقال لها فى عصبية:

- دى أحسن من أمك ألف مرة.. ومن حقها تربيك التريية السليمة.

ولم تمض على هذه الواقعة سوى أيام قليلة.. خرجت الطيبة لعملها بالمستشفى كالمعتاد وتركت الطفلة وحدها كالعادة بالشقة.. وعادت في الظهيرة.. ودقّت جرس الباب ولم يفتح أحد.. اعتقدت للوهلة الأولى أنّ الطفلة نائمة وقامت بفتح الباب بالمفتاح الذى تحمله معها.. ودخلت الشقة ونادت عليها ولم يرد أحد، وما إن فتحت باب إحدى الغرف الخالية بالشقة حتى تسمّرت في مكانها عندما وجدت الطفلة ملقاة على الأرض وهى جثة متفحمة.. وعقدت المفاجأة لسانها لبرهة يسيرة وخرجت تصرخ وتستغيث بالجيران.

وباشرت سلطات التحقيق.. التحقيق في القضية.

وتبيّن من تقرير الأدلة الجنائية التى انتقلت فور الحادث إلى مسرح الأحداث أنّ هناك آثاراً لمادة «البنزين» وأنّ النيران اشتعلت في الجثة بعد سكب البنزين عليها فشوّت معالمها تماماً.. وحضر الزوج وبكى بكاءً مريزاً منتحباً بهيستيريا وهو يصرخ بأنّه فقد أعز شئ لديه.. خسر ابنته الوحيدة التى خرج بها من الدنيا.. أمله الوحيد في الحياة.. فلم يكن أمامه في الحياة من أمل في الذرية سواها خاصة وأن زوجته الطيبة عاقر.. وكال لزوجته الاتهام.. وهمّ في ثورته العارمة بالاعتداء عليها.. لولا إبعاد رجال الشرطة له وطلبهم منه الهدوء والروية كى يصلوا إلى الحقيقة.. وصاح الأب وصرخ صرخة من أعماقه اهتزّت لها قلوب رجال التحقيق.. الحقيقة واضحة مثل الشمس.. هى التى قتلت ابنته وحرقتها، وأنّها مجرمة آثمة يديها ملوثة بدماء ابنته

الطاهرة، وأورد أنَّ الغيرة والوهم كانت تنهش في قلبها وتلغى عقلها إذ راودتها الشكوك في الفترة الأخيرة بأنَّه سيعيد أمها إلى عصمته، وكلما سيطر عليها هذا الخيال.. زاد سوء معاملتها للطفلة.. والاعتداء عليها بسبب وبدون سبب، واستشهد بالجيران الذين أيدوا روايته كاملة وشهدوا بما رأوه من إهانات واعتداءات بالضرب على الطفلة.. وأنَّهم كثيرًا ما سمعوا صراخها وهي تستغيث من اعتداءات زوجة أبيها.

وانتهى الزوج في شهادته على الإصرار بطلب القصاص العادل منها حتى لا يضيع دم ابنته الوحيدة هدرًا وأنَّه لن يرتاح له بال ولن يهدأ له حال ولن يستقر له فكر إلا وحبل «عشماوى» وقد لفَّ على رقبتها.

وقرأت أوراق القضية مليًا وتصفَّحتها وأمعت في تحليل أحداثها في أدلتها وخاصة تقرير الصفة التشريحية، فقد استوقف نظرى وأنا أتفحص كل كلمة فيه بدقة وإمعان متناهيين.. أمر في غاية الأهمية في الدعوى الماثلة.. مؤثر في مصيرها وفي وزن وتقدير الأدلة في الدعوى.. يقلب كافة الموازين فيها.. ذلك أنَّه من عادتي في إقران هذه القضايا أن أمعن في تمحيص الدليل الفنى «تقرير الصفة التشريحية».. وأن أقرأ كل كلمة فيه بروية ودقة وتحليل لكل لفظ فيه.. إذ يغلب على الكثير قراءة نتيجة التقرير دون المقدمات التى تبنى عليها هذه النتيجة، وقراءة المقدمات أمر ضرورى ومنطقى، إذ يبين منها كثير من الجزئيات على نحو مفصل لا يمكن الوقوف على النتيجة الصحيحة والحقيقية إلا بربط هذه النتيجة بتلك المقدمات في استخلاص منطقى سائغ

لا يشوبه أي عسف أو شطط.

استوقف نظري أنه بالكشف الظاهري على الجثة تبين أنها لفتى في الثانية عشرة من العمر.. ولأن الجثة كانت متفحمة فإن الطبيب الشرعي لم يستطع أن يحدد كيفية الاعتداء الذي وقع على المجنى عليها والآلة المستخدمة في الاعتداء ومواضع هذا الاعتداء من جسد الجثة.. وإن كان قد أثبت أن الحروق التي وجدت بالجثة غير حيوية، أي أن الوفاة قد حدثت أولاً ثم تم إشعال النار فيها..

كانت كلمة «فتى» الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً هي طوق النجاة، هي المفتاح الذي سيفتح الأبواب المغلقة على الحقيقة التي قدّر لها أن تقبر خلف هذه الأبواب.. وكان على ابتداء لكى أقترح الأسوار المنيعة لتلك القضية أن أحرر وأودع أسباب النقض في الميعاد القانوني -أربعين يوماً من تاريخ الحكم قبل تعديلها إلى ستين يوماً- وأودعت مذكرة بأسباب النقض تضمنت فيما تضمنته النعى على الحكم بالخطأ في الإسناد على نحو أورده مورد البطلان، إذ أن البين من أوراق الدعوى وما انتهت إليه النيابة قيّداً ووصفاً للواقعة وما جرت عليه محاكمة الطاعنة وما أورده المحكمة في مدونات حكمها أن الجثة هي جثة ابنة زوجها «فتاة» في حين أن الجثة التي جرى تشريحها - من واقع تقرير الصفة التشريحية وما أورده تحت بند «الكشف الظاهري» - كانت جثة فتى أى ولد، وشتان بين الاثنين، كما أن الفتاة المقول بقتلها تبلغ من العمر سبع سنوات، في حين أن الجثة لفتى يبلغ

اثنى عشر عامًا.. وإذا كانت المحكمة قد أسست قضاءها في إدانة الطاعنة وثبتت التهمة قبلها وهي قتل طفلة «بنت» عمرها سبع سنوات.. وذلك على خلاف الثابت في تقرير الصفة التشريحية -على النحو المار بيانه في الأوراق- فإنَّ الحكم المطعون فيه يكون قد أقام قضاء بما يخالف الثابت في الأوراق، وينبئ أنَّ الواقعة لم تكن واضحة أمام عيون المحكمة مستقرة في وجدانها استقراراً يؤمن معه القول إنَّها عندما قضت الدعوى كان قضاؤها عن بصر وبصيرة خاصة وأنَّ من المقرر أنَّ الأحكام يجب أن تبني على أسس صحيحة من أوراق الدعوى فإذا كان مبناه ما يخالف الثابت في الأوراق أو ما لا أصل له فيها فإنَّه يكون مشوباً بعوار البطلان وبالخطأ في الإسناد والقضاء بما يخالف الثابت في الأوراق..

وانتهت محكمة النقض إلى قبول الطعن بالنقض وإلغاء الحكم المطعون فيه وإعادة محاكمة المتهم أمام دائرة أخرى..

وبذلك تم التغلب على عقبة كبرى كانت تحول بين المتهم وبين الحياة، وقد كان مصيرها حتماً الإعدام فيما لو رفض الطعن بالنقض خصوصاً وأنَّ التهمة المنسوبة إليها تهمة شنعاء وجريمة نكراء تشيب لها الرؤوس وكانت موضع ازدراء واستهجان من كثيرين ممن واصلوا متابعة أحداث هذه القضية إعلامياً.. متعاطفين مع الأب.. منحازين وبقوة وإصرار نحو إعدام تلك الطيبة التي انتزعت الحياة من طفلة بريئة لا جريرة لها ولا ذنب وأنَّ الجميع في ترقب واستعجال لذلك اليوم الذي ينفذ فيه حكم الإعدام لتكون عبرة

لكل من تسوّل له نفسه الاستهانة بأرواح الأبرياء وبالنفس البشرية التي حماها الله وحبها وحافظ عليها وحرم قتلها بغير حق.

كان نقض الحكم وإعادة محاكمة المتهم من جديد أمام دائرة أخرى بادرة خير - من وجهة نظري - خاصة وقد انتابني إحساس وراودني فكر استبد بي في أن هناك سرًا ولغزًا محيرًا وراء هذه الجريمة وأحداثها لا بد من فك طلاسمها.

كانت جلسة المحاكمة الجديدة للمتهم.

اكتظت القاعة إلى آخرها بالحاضرين فلم يكن فيها موضع لقدم.. جاء الجميع ليشهدوا نهاية هذه المرأة الشريرة الآثمة المجردة من أي إحساس أو عقل أو منطق أو ضمير أو دين.. جاءوا ليسمعوا حكم الإعدام من جديد، وقد أدهشهم إلغاء الحكم الأول وتساءلوا في غرابة ودهشة.. بل وفي استهجان من بعضهم.. كيف يلغى هذا الحكم وهي القاتلة اللعينة لطفلة بريئة.. بل لم تكتف بقتلها فأشعلت النيران في جسدها الطاهر البريء.. وحكم الرأي العام المسبق سيف مسلط على رقاب الجميع لا يمكن إغفاله أو تجاهله خصوصًا في قضايا الرأي العام.. عندما يتأثر هذا الرأي لحدث معين فيتعايش معه وكأنه طرف من أطرافه.. فيصدر أحكامه الخاصة وينصب من نفسه محققًا وقاضيًا يصدر أحكامًا تحكمها الأهواء والعاطفة والرؤية الشخصية وعدم الإلمام والدراية بالأدلة في الدعوى التي لا يستطيع أن يقدرها أو يدلي بدلوه الصحيح فيها إلا أربابه من المتخصصين والفنيين

والقارئین والباحثین والمحللین لوقائع الدعوى والظروف التي وقعت فيها وأدلتها ومواد القانون المنطبقة عليها.

وجاءت لحظة المحاكمة..

وقفت في قفص الاتهام شاردة واجمة يرتسم أمام عينيها شبح حبل المشنقة الذي مازال يطاردها.. كانت شاخصة ببصرها إلى السماء وكأنها تدعو الله أن يقف إلى جوارها وأن يبدد هذا البلاء الذي حلَّ بها .. أما الزوج فقد حضر إلى الجلسة باكيًا مهلاً صارخاً مفوضاً أمره إلى الله فيها.. وفي المصيبة التي ألحقتها به.. فقد قتلت أعز الناس إليه.. ابنته الوحيدة.. فدمرت حياته.. وقضت على آماله في الحياة.. فقد كانت ابنته الوحيدة.. معلناً أن إعدامها لن يشفى غليله وأن كنوز الدنيا لن تعوّضه عن ضياع ابنته التي اغتالها تلك الزوجة الشريرة منعدمة القلب والإحساس والضمير.

كان هذا هو حديث الزوج أمام المحكمة، وقد مسَّ شغاف قلوب الحاضرين وأدمى قلوبهم على الطفلة الضحية البريئة بل إنَّ البعض قد اغرورقت عيناه بالدموع.

ثم أعقب ذلك مرافعة النيابة التي تركزت على أنه لا بد من تطبيق مواد الاتهام عليها «٢٣٠، ٢٣١» من قانون العقوبات.. والتي تقضى بإعدامها شنقاً جزاءً وفقاً لفعلتها الشنعاء التي يهتز لها عرش السماء، فقد ارتكبت إثماً لا يغتفر وجريمة لا مناص من القصاص لها، وصوّر المتهمه على أنها وحش كاسر تجرّدت من آدميتها وإنسانيتها وضميرها.. فباعته آخرتها

بديهاها.. ولبست ثوب الوحوش في الغابة وانقضت بلا شفقة ولا رحمة وقد تحجّر قلبها وتبيست مشاعرها وهي تقتل طفلة بريئة غيلة وتسكب البنزين عليها لتقضى على كل أثر لها في الحياة حتى تستأثر بحب زوجها وتستحوذ عليه.. فكانت بمثابة الدبّة التي من فرط حبها لصاحبها قتلتها.

وتساءل فبعد كل هذه الوحشية.. يتعين ألا ننظر إليها إلا من عين واحدة هي عين القصاص.. القصاص العادل.. واستشهد بقوله تعالى.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ وقوله ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وبالقصاص العادل لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وأنهى مرافعته كما بدأها بالمطالبة بإعدامها وألا تأخذ المحكمة رافة بها في دين الله، فمن لا يرحم لا رحمة له.

وطلبت المحكمة منى كدفاع المرافعة.

وكان طلبى الذى أصدرت عليه مناقشة الطيب الشرعى الذى أجرى تشريح الجثة والذى كان حاضراً معلناً من النيابة مع بقية شهود الإثبات طبقاً لما يستوجبه القانون من إعلان شهود الإثبات بالجلسة المحددة.. وتم سؤاله..

سألته:

- ثبت في تقريرك أنّ الجثة لفتى فماذا تقصد بهذه العبارة..

- فأجاب وهو في دهشة من سؤالى، ولم يدر بخلده أن هذا السؤال هو مقطع النزاع في تلك القضية وأنه طوق النجاة بالنسبة للمتهمة، بل وإن إجابته ستقلب القضية رأساً على عقب فأجاب إجابة ملاءها التهكم:

- معروف أن الفتى يعنى ولد والفتاة تعنى بنت.

ولاحقته بسؤال آخر حتى أضع آخر نقطة على الحروف.

- هل الجثة التى قمت بتشريحها لولد أم بنت؟

فأجاب والثقة تملأ صوته إلى حد استهجان هذا السؤال.

- بالتأكيد ولد.

فاعودت سؤاله:

- تبين أن الجثة كانت محترقة فكيف توصلت إلى أنها جثة ولد؟

فأجاب إجابة تقطر غيظاً وكأنى أتهكم على قدرته العلمية.

- ده شغلى.. وعلى العموم الجهاز التناسلى للذكر يختلف عن الأنثى،

وقد تبين لى من فحص الجثة وتشريحها أن الجهاز التناسلى للجثة خاص بذكر.

واستطردت فى سؤاله:

- ما سن الجثة التى قمت بتشريحها؟

- قرر أن سن المجنى عليه اثنى عشر عاما.

فاعودت سؤاله:

وكيف استطعت تحديد هذه السن علمياً؟

- بالكشف على مقاطع الأسنان أمكن تحديد ذلك.

وباستطراد سؤاله.

هل يمكن من الناحية الفنية بالكشف الطبى تحديد سن طفل عمره سبع

سنوات؟

- طبعاً. كلها أمور تعتمد على أسس علمية.

فاعودت سؤاله.

هل من الممكن أن تنتهى نتيجة الكشف على جثة طفل سنه سبع سنوات

أن تأتى النتيجة بأنه فى الثانية عشرة من عمره؟

- فأجاب مستهجنًا السؤال.

- بالتأكيد لا.

ثم أعلنت أن سؤالى له سيكون السؤال الأخير.

- قررت أن الحروق التى بالجثة حروق غير حيوية أى بعد الوفاة فهل

تبينت سبب الوفاة الأصلى؟

أجاب:

- لم أتبين من الجثة وجود إصابات قطعية أو رضية نظراً لتفحمها وبالكشف على عظام الجثة لم يتبين لى وجود أية كسور بها أو أي إصابات أخرى وعلى ذلك فإنه من الناحية العلمية مادام أن الحروق ثبت أنها غير حيوية أي أن الحروق حدثت بعد الوفاة أي لم يكن المجنى عليه على قيد الحياة وقت حرقه وإنما كان ميتاً مفارقاً للحياة.

وطلبت من المحكمة سؤال الزوج بعد مناقشة الطبيب الشرعى فاستجابت لذلك .. فسألته:

ما رأيك فيما ورد بحديث الطبيب الشرعى من أن الجثة التى وجدت فى الشقة لذكر وليست لأنثى وأن عمر الجثة اثنى عشر عاماً، فى حين أن ابنتك تبلغ من العمر حسب شهادة الميلاد التى قدمتها سبع سنوات؟

فامتقع وجهه غيظاً وبانت حدة الشراسة على ملامحه، وهو يرد بأن هذا تهريج وعبث وإهدار لدم ابنته.. بل وتطاول فى حديثه على الطبيب الشرعى بكلمات نبهته المحكمة أنها ستأخذه بالعقاب إن لم يلتزم بأدبيات المحاكمة.

وأعدت سؤال الزوج:

- هل يوجد مفتاح آخر للشقة مع أحد غيرك وزوجتك؟

فأجاب وقد ازدادت عصبيته وارتبأكه.

- بالطبع لا هى الوحيدة التى معها المفتاح وأنا ليس معى أى مفتاح للشقة.

وفي تلك اللحظة..

خرجت الزوجة عن صمتها الذى لاذت والتزمت به منذ بداية الجلسة
وصرخت بأعلى صوتها من داخل قفص الاتهام:

- «لا تصدقوه إنه كاذب وسألته فى دهشة.. لماذا تكذب؟ لماذا تخفى
الحقيقة.. انت معاك مفتاح زى.. ليه بتكذب؟ وتقصد إيه من كده.. حرام
عليك اتقى الله وقول الحقيقة».

وطلبت المحكمة منها التزام الصمت والهدوء ومنى المرافعة..

طلبت لها البراءة وبحق على سند من أن حديث الادعاء وقولة الاتهام على
المتهمة أنها قتلت ابنة زوجها مما كان يقتضى بطريق اللزوم الواقعى والفنى
والدلالى أن تكون الجثة التى عثر عليها فى مكان الحادث والتى تم تشريحها
جثة فتاة.. وأن عمرها سبع سنوات.. وذلك على نقيض ما ثبت بالدليل الفنى
الذى لا يكذب أن الجثة لذكر وليس أنثى وأنه يبلغ من العمر اثنى عشر عاما
وليس سبع سنوات.. وهو ما أكدته على نحو قاطع وجازم الطبيب الشرعى
الذى شرح الجثة.. أولاً أن الجثة التى تم تشريحها كانت محترقة تماماً
مختفية المعالم.

ثانياً.. إنها لذكر وليست لفتاة.. ودلل على ذلك وأسس رأيه على أسس
علمية سليمة أوردها أمام المحكمة.

ثالثاً.. أنَّ الجثة موضوع الاتهام لذكر يبلغ من العمر اثنتى عشرة سنة، في حين أنَّ عمر المجنى عليها سبع سنوات على نحو يستحيل معه أن تكون الجثة المعثور عليها جثة ابنته التي تبلغ من العمر سبع سنوات.

رابعاً.. أنَّ الحروق.. حروق غير حيوية أي حدثت بعد الوفاة مما ينبى أنَّ حرق الجثة كان بعد وفاتها وأنَّه من واقع حديث الطبيب الشرعى لا يمكن القطع لسبب الوفاة.. هل نتيجة اعتداء بأية آلة عليه؟ لم يستطع تحديدها أم أنَّ الوفاة طبيعية؟

وركوباً إلى هذه الحقائق العلمية المؤكدة والموثقة بشهادة الطبيب الشرعى المشرع فإنَّ الجثة موضوع الاتهام ليست للطفلة نجلة الزوج المدعى بقتلها من المتهمه.

وهنا وقف وكيل النيابة المترافع متسائلاً في انفعال:

- أمال الجثة تبقى جثة مين؟

وأجبت على الفور:

- ذلك ليس شأن المتهمه أو الدفاع، وهو شأن وواجب على سلطات البحث والتحقيق.. وكل ما يعنى الدفاع فى المقام الأول إثبات أن ما أسند إلى المتهمه من قتل ابنة الزوج أمر بات من المتيقن أنَّه مخذول من زاوية الواقع، ملفوظ من الوجهة الفنية، متناقضاً تناقضاً يستعصى معه المواءمة والتوفيق مع الدليل الفني في الدعوى.. وبات على نحو جازم وقاطع أنَّ التهمة

الموجهة للمتهمة من قتلها ابنة زوجها ليست قائمة على سند من الواقع أو الحقيقة أو الدليل المعتبر قانونًا.

واستطردت في دفاعي.. أن الواقعة قد خلت من شاهد يشفى غليل الحقيقة المفقودة في الدعوى والتي هي ظلال سوداء حجبت رؤيتها.. بل وحالت دون الوصول إليها.. لسنا أمام شاهد رؤية يشهد أنه رأى المتهمة وهي ترتكب الحادث، فالحقيقة في الدعوى لها صورة مجهولة وخصوصًا أن الزوج معه مفتاح وتقليد مفتاح لباب أي شقة.. ليس أمرًا مستعصيًا أو عسيرًا، وشهادة الجيران قطعت بأن الزوجة عندما فتحت الباب في هدوء وطمأنينة فوجئت بالجثة فتعالت صرخاتها في هستيريا.

وأنهيت مرافعتي:

- تلك هي الحقيقة المتيقنة الآن أن المتهمة لم تقتل ابنة زوجها وأن الجثة التي وجدت محترقة في الشقة جثة طفل آخر.. وهي ليست مكلفة هي أو الدفاع بالبحث عن صاحب هذه الجثة أو الوقوف على سر اختفاء الطفلة.. إن وراء اختفائها سرًا.. أنا على يقين أن الأب يعلمه جيدًا وعلى الشرطة والنيابة العامة، باعتبار أنها الأمانة على الدعوى العمومية مواصلة البحث والتحقيق وصولاً إلى الحقيقة وهداية للصواب الذي ينشده ويطلبه الجميع.. أين اختفت الطفلة.. ومن الذي أخفاها وما مقصده من ذلك.. وما سر الجثة التي وجدت محترقة في الشقة.. ومن الطفل صاحب هذه الجثة؟!

وانتهت مأساة الطيبة وشبح جبل المشنقة الذى كان ملتفًا حول رقبتها.

نطق رئيس المحكمة بعد مداولة في القضية امتدت حوالى أربع ساعات احتبس الجميع أنفاسهم وصوت القاضي يعلن..

حكمت المحكمة ببراءة المتهمه مما أسند إليها من اتهام.

سقطت مغشيًا عليها.. حاول الجميع إفاقتها أكثر من مرة بعد أن سمعت حكم البراءة وكأنها لا تصدق أنها ولدت من جديد.. وأنه قد كتبت لها الحياة مرة أخرى.

ومرّت الأيام والطيبة تتردد على مكتبى بين الحين والآخر من قبيل السؤال والتعبير عن العرفان بالجميل.. كانت تقصُّ لى بحرارة عن دفء الأيام الخوالى التى عاشتها مع زوجها وأنها كانت سعيدة معه بلا حدود، رغم المبالغ التى نهبها واستنزفها منها، ومع كل ما صنعه بها ومعها وما لاقته منه من قسوة الاتهام الذى كاد يودى بحياتها.. إلا أن الحنين كان يعاودها، وكانت تحلم بأن يعود إليها مرة أخرى وتلمس له الأعذار فيما أقدم عليه.. وهجرته.. وتركه مصر بعد الحكم ببراءتها.. وتلك مأساة الحب فى كل زمان ومكان عندما يكون من طرف واحد أو إذا كان محمولاً على المصلحة المجردة.. إنها عيون المحب المسحورة بالمحجوب فلا يرى عيوبه ولا يحس بسوء تصرفاته مهما اتسمت بالخسة والندالة.. وصدق المثل.. «حبيبك يبلع لك الزلط» أو «مراية الحب عمياء».

كان يحلو لها سماع سيرته وتقصى أخباره من أصدقائه.. ولم تياس من التفكير فيه حتى بعد أن عرفت أنه سافر إلى الخارج وتزوج من سيدة أخرى توسم فيها الثراء والبذخ والإنفاق عليه بلا حدود.. كانت النار تنهش في قلبها وهي تروى لى هذه القصة، ولكن حبها له لم يتزحزح من قلبها وحديثه الحلو لم يفارق أذنيها وصورته الأنيقة لم تبرح عينيها والأمل في عودته لا يفارقها لحظة.

وذات يوم جاءت لزيارتي كالمعتاد.. كان الحزن يملأ عينيها وهي ترتدى ملابس الحداد، وأخبرتني بصوت مفعج بأن زوجها قد لقي حتفه في الخارج في حادث أليم.. إذ اكتشفت زوجته الأجنبية التي تكبره بعشرات السنين أنه يعبث بمشاعرها.. وبخيانته لها.. واستيلائه على أموالها التي ائتمنته عليها وأطلقت يده في التصرف فيها.. كما اكتشفت وتأكدت أنه قد أعدَّ الخطة للتخلص منها والهرب بأموالها.. فقررت الخلاص منه حتى لا ينعم بثروتها..

وكانت المفاجأة الكبرى التي هزّت كيانها.. وبددت شعورها نحوه وأنه كان وهماً لا يستحق أن ابنته مازالت على قيد الحياة وأنها كانت في صحبته في الخارج وقد أعادتها السفارة إلى أمها.

واستطردت وهي تبكى بكاءً ملأته الحسرة والندم والاستغراب متسائلة..

لماذا قابل وفاءها وإخلاصها له بالغدر والخسة والندالة .. كيف أنه لم يكتف بما سلبه منها من أموال .. لم يقف طمعه عند حد .. دبر اتهامها للخلاص منها حتى يحكم عليها بالإعدام ويرث أموالها كي يخلو له الجو ليقتنص صيداً جديداً بعد أن هرب ابنته إلى الخارج.

وسألها كيف توصلت إلى كل هذه الحقائق.

فأجابت والأسى والحسرة يعتصران قلبها.

بعد عودة ابنته من الخارج تسلمتها أمها وأبلغت الشرطة بالحقيقة كي تثبت براءتي فعلاً وواقعاً غير مكتفية بحكم المحكمة بالبراءة ..

ونشطت الشرطة بعد هذا البلاغ وأجرت التحريات بحثاً عن الحقيقة، وقد تحققت من هذه التحريات أن الزوج هو الذي دبّر لها لكي يتخلص منها .. ويعيش مع صيده الجديد ويرث أموالها بعد إعدامها .. وأنه فكّر في خسة ودبّر في ندالة وخطط بلا ضمير لإنجاح فكرته الشيطانية فاتفق مع «تربى» كي يحضر له جثة فتاة في سن ابنته توفيت في توها .. موهما إياه أنه أستاذ بكلية الطب وأنه يسعى لشراء الجثة حتى يدرّب طلابه عليها، إلا أن القدر لم ينصفه ووقف إلى جانب زوجته لينقذها من حبل المشنقة، إذ لم يتمكن «التربى» من العثور على جثة طفلة ميتة حديثاً .. وكل ما وقع تحت يده جثة هذا الطفل .. فقدّمها إليه .. وتسلمها منه في عجلة من أمره .. دون أن يتبين أمر هذه الجثة .. ووضعها في عجالة في الشقة وسكب عليها البنزين ونفذ جريمته دون أن يدرى فيما إذا كانت الجثة ذكراً أم أنثى وأشعل فيها النيران

كى تأتى عليها تمامًا، ولكن إرادة الله كانت فوق كل إرادة وتفكير وتدير وتخطيط، وانكشفت نذاته وانفضح سره.. وخرج من الدنيا ولم يأخذ منها سوى الذنوب واللعنات.. ودعاء المظلومين.. فلا رحمة له فى الأرض ولا فى السماء..

كانت هذه آخر كلمات الزوجة.. المخدوعة..

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شامة

المحامي بالنقض

القضية الرابعة

صراع مع الوهم



■ ■ صراع مع الوهم

وقعت أحداث هذه القضية وباشرت تحقيق وقائعها أثناء عملي كوكيل نيابة بالجيزة.. كانت أحداثها مثيرة، أقرب من الخيال، بعيدة عن الواقع.. تجمع بين جناحيها الخير والشر والحب والكراهية.. الصفاء والغدر.. الحب والانتقام..

كانت في العشرين من عمرها جميلة رشيقة ممشوقة القوام.. بيضاء البشرة.. حباها الله بخضرة العينين التي كانت تشع جاذبية لا تقاوم.. كان شعرها الذهبي تاجًا يزين كل هذه المحاسن والمفاتن.. تمتلأ حيوية وشبابًا ورقة وعذوبة وخفة دم على حدّ قول كل من التقى بها لا تقاوم.. تقدّم لخطبتها الكثير من الشباب.. معظمهم في مراكز مرموقة رغم أنّهم على أولى درجات سلم الحياة.. لكنّ الرفض منها كان الجواب الدائم الذي كان محل استغراب الجميع.. وتساؤلهم التي لا تنقطع ما علّة هذا الإضراب عن الزواج.. طالما أنّ من تقدموا لخطبتها شباب زى الورد أمامهم مستقبل عريض..

ويمتاز الكثير منهم بحسن السمعة والاستقامة، وهو أمل يراود أي فتاة ويداعب أحلامها، وهى تسبح بخيالها في انتقاء شريك حياتها.. تساءل الكثيرون وزاد تساؤلهم.. هل هي على علاقة حب ملك عليها فكرها واستحوذ على أحاسيسها وأغلق قلبها على هذا المحبوب.. فما باتت ترى غيره ملكًا توجّهت على عرش قلبها.. وأعطته مفاتيح خزائن حبها ومشاعرها وسلّمته مقاليد مستقبلها بل وحياتها كلها.

وخاب ظنّ الجميع وطاشت كل خيالاتهم وتوقعاتهم وأفاقوا من أحلامهم على وقع ذلك الخبر الذى كان مسار دهشتهم وحيرتهم.. رافضين تصديقه أو حتى تخيله أو مجرد تصويره..

أخيرًا قررت أن تتزوج من كهل قارب السبعين من عمره، وأصرّت على هذا الزواج رغم الفارق الكبير الذى يقترب من الخمسين عامًا بين سن كل منهما.. وباركت أسرتهما الفقيرة زواجها من الكهل الثرى الذى انتشلها بثرائه من حياة المعاناة والفقر والحرمان.. إلى حياة الرفاهية والعز والأمان، نقلها لتعيش معه في الفيلا الفاخرة التي اشتراها خصيصًا لها واشترى لها سيارة فارمة وأفخر الملابس.. وأحضر لها العديد من الخدم.. ليكونوا رهن إشارتها..

وعاشت مع زوجها الكهل الذى دبّت في جسده الهزيل كومة من الأمراض.. ممرضة قبل أن تكون زوجة.. تعطيه الدواء في نهاره وتواصل السهر على تمريضه ليلاً.

ولم تمض سوى سنة وبضعة شهور حتى زادت مشاكله المرضية واشتدَّ عليه المرض وتدهورت صحته حتى وافاه الأجل.. وقد ترك لها ثروة كبيرة وأموالاً كثيرة في حساباتها في البنوك فضلاً عن امتلاك أراضي قام بشرائها باسمها.

وأحسَّت الفتاة الحلوة الجميلة التي باتت تزهر بجمالها ومالها.. وقد تبدَّل الفقر وحلَّ محله الغنى والثراء والثروة والملابس والروائح النفاذة والسيارة الفارهة.. أنَّ عليها أن تنطلق وأن تخرج من القمقم الذى دفنت نفسها فيه قرابة العامين.. والفقر المدقع الذى غاصت فيه من قمة رأسها حتى أخص قدميها.. انطلقت تعوِّض ما فات شبابها من حرمان، وهى تبحث عن الشاب الذى ستعطيهِ حبها.. ليس أى شاب جدير بهذا الحب.. فقد رسمت في مخيلتها نموذجاً لشاب وضعت بنفسها مواصفاته تتوافر فيه الوسامة والوجهة والرشاقة والذكاء واللباقة والطموح.. وأن يكون خفيف الظل حلو الكلمة.

مواصفات وضعتها في مخيلتها.. هكذا كان تفكيرها والصورة التي رسمتها في مخيلتها لشاب المستقبل الذى يعوضها الأيام والليالي الخاويات التي عاشت فيها ممرضة قبل أن تكون زوجة.. وقد جمَّدت أنوثتها.. وقتلت بداخلها كل رغبة.. كان همها الأول في تلك الفترة من حياتها أن تعبر جسر الفقر وحياة البؤس والحرمان التي ظلَّت تطاردها منذ فتحت عينيها على الحياة حتى دخلت فيلا هذا الزوج، حيث النعيم والثراء والترف، ولكن كل

ذلك كان على حساب أنوثتها التي تركتها وراء ظهرها لتفرغ لجمع المال التي غرقت فيه.

والتقت بشاب يقاربها في العمر.. كان نموذجًا لتلك الصورة التي رسمتها في مخيلتها.. والتي حلمت كثيرًا بها في منامها.. وفتحت عينيها فقد تحول الحلم إلى حقيقة، إنه شاب حديث التخرج من كلية الهندسة، يفصح مظهره المتواضع عن فقره.

وجدت فيه منذ الوهلة الأولى صورة مماثلة لها يوم أن التقت بزوجها الأول (فتاة كتب عليها القدر الحرمان من كل شيء).

وكان حديثه معها حديث الكفاح والمعاناة والعرق والجهد حتى حقق هدفه في الحياة وحصل على بكالوريوس الهندسة، وقد تخرج فعلاً في الكلية التي أحبها، وكانت أمنية حياته.. لكن طموحه لم يقف عند هذا الحد، فقد واصل على طريق الكفاح ما هو أبعد من ذلك.. الحصول على دكتوراة في الهندسة.

وصارحته بكل صغيرة وكبيرة عن حياتها وعن أسرتها.. عرف منها أنها نشأت في أسرة فقيرة وأنها كانت تعمل بائعة في أحد المحلات الكبرى عندما التقى بها زوجها الأول، ذلك الشيخ الكهل الذي بهره جمالها وسال لعبابه هيأماً في حبها، وأحسّت من نظراته العليلة ونبرات صوته الخفيضة أنه على استعداد أن يضحي من أجل القرب منها بكل ما يملك.. ويومها قبل كل الشروط التي طلبتها لكي تتزوج منه.

انتشلها من حياة الفقر الذى كانت تعيش فيه ونقلها إلى حياة الأثرياء وأصحاب الملايين.. لقد اشترى شبابها وجمالها بأمواله.. فقد كان فارق السن بينهما كبيراً، وظلت بجواره وهو لا يرد لها قولاً ولا يعارضها في رأى.. ولا يبخل عليها بشيء مهما كان ثميناً.. فقد كان وحيداً في الحياة لا زوجة ولا ولد.. كل أمنيته في الحياة أن تبقى إلى جواره، أن تغمره بعطفها وحنانها.. أن تكون كل دنياه.. أن تكون صورتها الجميلة آخر ما تسجله عيناه في الدنيا.. ونبرات صوتها الحلوة العذبة الحنونة آخر كلمات يسمعها في حياته.

ظلت بجانبه وهو يغدق أمواله تحت قدميها بلا حساب، لكنها كانت تعيش بلا عاطفة أو مشاعر.. لقد دفنت أحاسيسها ومشاعرها من أجل المال والمظاهر والحياة الجديدة التى انتقلت إليها.. كانت بائسة محرومة من الحب.. وكم راودتها هذه الأحاسيس والمشاعر في تلك الليالى الطويلة التى كانت تعيشها وحيدة بجوار زوج مريض يتعاطى العقاقير المهدئة والمنومة كى يسلم جسده لنوم عميق، تاركاً إيّاها تعاني من إحساس الوحدة والسهر الذى يجد مرتعاً خصباً في داخلها وفي أعماق نفسها المكبوتة التى جرّدتها من أنوثتها المتعطشة للرغبة الباحثة اللاهثة بحثاً عن حب لا وجود له.

انتهت فترة الحداد، كان عليها أن تعوّض ما فات من تعاسة وحرمان وفراغ عاطفى.. وأن تجول بفكرها وتسبح في خيالها بحثاً عن الحب الذى افتقدته عن إنسان يملأ هذا الفراغ.. يبادلها عواطفها ومشاعرها.

صارحته بأنه الشاب الذى رسمته في مخيلتها.. الصورة الجميلة التى

اختزنتها في مشاعرها منذ أن تفتحت عيناها على الحياة.. أعجبها صموده في الكفاح وإصراره رغم فقره على تحقيق حلم حياته حتى نجح وحصل على بكالوريوس الهندسة.. وكان يستعد للحصول على الدكتوراة.. لقد شعرت أن الحياة قد ابتسمت لها ابتسامة حلوة صادقة عريضة.. إنها الآن في قمة سعادتها ترقص معها الأرض طرباً وفرحاً لأنها عثرت على الإنسان الذي كان قلبها -المتعطش إلى الحب- يبحث عنه.. وصارحته بحبها له.. وجدت فيه صورة طبق الأصل.. نموذجاً حياً من حياتها.. مرارة العيش وضيق اليد التي حاصرتها وأغلقت أبوابها عليها.. قبل أن تتزوج ذلك الثرى، وكيف أنها قبلت هذا الزواج، وقد أغلقت على قلبها وأحاسيسها ومشاعرها وأنوثتها الباب بالضبة والمفتاح كي تسعد أسرتها وأخوتها وتجنبهم المصير المظلم والطريق المجهول.. الذي كان ينتظرهم في تلك الغرفة.. من منزل آيل للسقوط في أحد الأزقة التي لا يوجد فيها أى نوع من الحياة الإنسانية.

وصارحها بدوره أنه أحبَّ فيها روح التضحية والإيثار والعقل والحكمة، كيف أنها باعت نفسها وقبلت أن تقدم نفسها قرباناً من أجل أسرتها وإسعاد إخوتها.. وقالت له إنها بأموالها تستطيع أن تحقق طموحه وأنها ستقف بثروتها إلى جواره وهو بمجهوده وفكره وكفاحه سيحققان كل أمانيهما وأحلامهما في النجاح والحب.

وتزوَّجته، وسبحاً معاً.. في بحور الحب وينايع الهيام ترتشف كؤوس السعادة وذائق -لأول مرة في حياتها- طعم الحب الحقيقي.

أحسّت أنّ الدنيا كلها بين يديها وأنّ وجه الحياة المظلم قد تبدد وأنّ الشمس قد أشرقت وأطلت عليها، وغمرتها بأشعتها الجميلة بالحب والدفء والسعادة.

إحساس غريب من السعادة ملأ عليها حياتها تتضاءل أمامه كل كنوز الأرض.. وكأنّ الدنيا كلها بين يديها.

وانطلق الشاب الذى كان يتميز بالذكاء والطموح والرغبة فى التقدم بالشركة التى أسسها بأموالها فى طريق النجاح وكبرت مشاريعه، وذاع صيته.. وأفاء الله عليه من رزقه وهى بجانبه تدفعه بحبها ورعايتها له وسعادتها وفخرها بتقدّمه بكل خطوة يخطوها إلى الأمام.. وتبارك كل تقدم وتحفز كل انتصار له، وهى تعتبر أنّ كل تقدم له تقدّمًا لها.. وكل انتصار ترى فيه انتصارًا لحبها وتتويجًا لسعادتهما.

ولكن متى دامت السعادة لإنسان؟ فليس ما يحب المرء يدركه فقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن.

ذات صباح وقعت عيناها على مفاتيح خزينته التى يحتفظ داخلها بأوراقه الخاصة، فقد نسيها -وهو فى عجلة من أمره- للحاق بعمله.. لم تكن من عادتها أن تفتش وراءه، فقد كانت تثقها به وفيه بلا حد.

ومن قبيل الرغبة المجردة فى تنظيم ما بداخل الخزانة قامت بفتحها وبدأت فى تنظيمها.. لا بحثًا أو تنقيًا عما بداخلها.. فثقتها به كانت حائلًا

بينها وبين ذلك.

أصبحت قمة سعادتها أن تسهر على راحته.. توفر له كل ما تستطيع من مباحج الحياة وفرص المزيد من النجاح.

كانت سعادتها في إعداد طعامه بيديها.. تشعر أن الدنيا كلها وكأنها ملك يديها وهي ترى انبهاره وإعجابه بطريقة إعدادها للطعام.. وذوقها الرفيع في انتقاء ملابسه..

واستوقف نظرها احتفاظه بشريط فيديو داخل الخزانة وسط العديد من المستندات والأوراق التي تشكل أهمية بالغة له.. فما سر احتفاظه بهذا الشريط.. كان هذا هو السؤال الذي لاحقها وظل يضرب فكرها بعنف.. أثار فضولها وطردها للهواجس والأفكار التي تملكها أن تشاهد ما يحويه هذا الشريط.

وكانت المفاجأة التي لم تخطر لها ببال.. ولم تطرأ لها على خاطر.. ما رآته من مشاهد يحتوى عليها هذا الشريط.. إنها لا تصدق ما تراه.. وفركت عينيها وأمعنت النظر وكأنها تعاني من حلم مفزع.. زوجها في ملابس الزفاف وبجانبه عروسته.

أحسّت في تلك اللحظة أن الدنيا قد أظلمت أمام عينيها أكثر من أي وقت مضى في حياتها.. إنها طعنت طعنة دامية قاتلة أدمت قلبها المليء بالحب والإخلاص.

طعنات نافذة بلا مقدمات ولا توقع من أعز الناس وأحبهم إلى قلبها!
كادت تسقط مغشياً عليها من هول الصدمة، ولكنها تماكنت نفسها
وتذرعت بالشجاعة كي تترك لعقلها ولفكرها أن يعمل في هدوء وروية
وحكمة كي تجابه تلك الطامة التي صبت على رأسها فقتلت فيها كل الحب
والسعادة والمستقبل المشرق الذي كانت تتطلع إليه مع هذا الزوج الذي
استقر وملاً فكرها.. ورسخ في وجدانها لأول مرة تكتشف أنه خائن.. ويتأكد
لها أنه طامع.. ويتسم أمام عينيها أنه غادر.. مجرد من المشاعر.. يلبس قناعاً
مزيفاً يخفي وراءه وجهه الحقيقي الملىء بالغدر والخيانة والأنانية.

لقد خان الثقة الكاملة التي وضعتها فيه.. الأموال التي باعت نفسها من
أجلها سلمتها له بكل يسر وسهولة.. وبكل ثقة وأمانة.

كان عليها أن تعمل صوت العقل أو أن ترجع إلى عقلها، أن تفكر في هدوء
وروية.. بعيداً عن ثورة الغضب والانفعال.. أن تظهر بمظهرها الطبيعي
معه.. أن تتعامل معه بذات الأسلوب.. الذي مارسه معه منذ زواجهما من
أجل تحقيق هدف وضعته نصب عينيها استرداد أموالها التي باعت صدر
حياتها من أجله.

كان عليها أن تفكر في الطريقة التي تسترد فيها أموالها منه خصوصاً أنها
منحته توكيلاً عاماً يتيح له أن يسحب ما يشاء من أموالها، وأن يتصرف في أي
عقار أو منقول لها دون الرجوع إليها.

ودار في رأسها المثلث بالفكر المشحون بالتساؤلات سؤال كان لا بد أن تجد له إجابة في نفسها.

هل تواجهه بالحقيقة؟

هل تظهر له أنها عرفت كل شيء وأنها عاشت طيلة تلك الفترة مخدوعة فيه؟ وأنه كان ممثلاً بارعاً عندما أقنعها بكلامه المعسول أنها تحتل قلبه ولا مكان لغيرها في هذا القلب الذي أصبح مليئاً بحبها، وكيف أنه يفكر فيها وأن صورته لا تفارق عينيه سواء في صحوه أو في منامه؟

هل كان كل ذلك وهمًا عاشت فيه وخداعًا واحتيالاً منه لسلبها ثروتها؟

كيف ستواجه الأمر لو أزال القناع الذي يرتديه وكشف لها عن وجهه الحقيقي وتركها تعلق جراحها ذليلة.. كسيرة، وقد فقدت كل شيء ماديًا ومعنويًا بعد أن استولى على أموالها وقتل حبها.. وداس على مشاعرها. إنها كسيرة.. جريحة.. بات قلبها ينزف دمًا بعد أن كان يقتصر حبًا.

الخوف من المجهول يستبد بها بعد أن كان الأمن والأمان والأحلام الوردية تحيط بها من كل جانب.

ووجدت نفسها تشعل السيجارة وتدخن لأول مرة في حياتها.. لم تشعر بنفسها وهي تعتصر كوب الشاي إلا والدماء تنزف من يدها بعد أن تحطمت في قبضة يدها وهي لا تشعر..

وتوالت الأفكار والقرارات في رأسها المثلث وفي خيالها الحزين.. وانتهى

بها الأمر إلى قرار لا رجعة فيه بعد صراع مرير مع الألم والفكر والهواجس.
بعد أن أصبحت فجأة امرأة بلا قلب.. وجثة بلا مشاعر.. وتمثالاً بلا
أحاسيس ورأساً بلا فكر ولا عقل.

لقد ضاع الحب والحنان والمشاعر والأمل.. واختل ميزان العقل.. فقد
هوى بها زوجها بلا رحمة ولا شفقة وأغرقها في بئر الخيانة.

لا بد أن تنتقم منه، وسيكون انتقامها من نوع جديد.. موجعاً أليماً.. لا
رحمة فيه ولا شفقة.. لا بد أن تعذّبه عذاباً أليماً تشفى غليلها وهي تراه أمام
عينها يذوق مرارة الخيانة ويلعق جراح الندم في أن تلقنه درساً لن ينساه..
بعد أن تدمر حياته كما دمرها.. أن تقضى عليه قضاءً مبرماً.. أن تفتك به..
ولكن بأسلوبها الخاص وبأسلحتها التي هداها تفكيرها إليها.. أن تحوّلته إلى
أشلاء رجل كما جعل منها أشلاء امرأة.. أن تجعله أضحوكة على شفتي كل
من يراه.. ولعنة على كل لسان.

بدأت تنفذ فصول خطتها بالاستعانة بصديقة لها كانت تعرفها في الحي
الذي كانت تعيش فيه أيام فقرها، كانت تعرف أنّ زوجها يتاجر في المواد
المخدرة، وقد تم الحكم عليه بالسجن ونفذ مدة العقوبة وخرج حديثاً..
حصلت منها على عقار الهيروين المخدر.

نفّذت خطتها الجهنمية في الانتقام.. قدّمت له جرعات الهيروين وسط
مشروب القهوة الذي كان لا يخرج من مسكنه قبل أن يتناوله من يديها.

استطاعت بهذا الأسلوب الإجرامى الماكر أن تجرده من كل شىء.. أن يسجل باسمها كل الأموال والشركة التى كانت بينهما.

لاحظ الجميع وكذا والدته ذلك التغير المفاجئ الذى انتابه فقد بات عصبياً.. هزياً.. زائغ البصر.. شارد الفكر مهموماً.. زاهداً مكتئباً غير عابئ بالحياة.. ملقياً بالدنيا وما فيها وراء ظهره.. حتى إعداداته للدكتوراة ألقاه في سلة المهملات.. قد ذبل وجهه وأصبح يكسوه الاصفرار بعد أن كان.. مشرباً بالحمرة تلوح منه النضارة والإشراقه والبهجة والأمل الدائم في غدٍ مشرقٍ.

اصطحبته والدته إلى طبيب لتوقيع الكشف عليه.. فطلب عند تشخيص حالته إجراء عدة تحليلات.

كانت المفاجأة التى هوت على رأس والدته كالمنطقه والتي لم تكن تخطر لها ببال أو تجول لها في حسابان، إذ أظهرت التحاليل أنه مدمن عقار الهيروين المخدر.

لم تصدق ذلك.. بعد أن أقسم لها إيماناً مغلفاً وكانت تثق في صدق حديثه وفي أمانته أن هذا مستحيل وأنه لا بد -بل من المؤكد- أن التحليل كاذب.. فتوجهت به إلى معمل آخر لعمل تحليل جديد.. فجاءت النتيجة لتؤكد ما جاء بالتقرير الأول.. كان على الزوج أن يراجع حياته في الفترة الأخيرة ويستعرضها بكل دقة وتفصيل وكأنها شريط سينمائى أمام عينيه.. من الذى فعل ذلك؟ وما مصلحته في تدميره؟ إنها مؤامرة لا بد أن يكتشف خيوطها

وأبعادها.

وكان قد أحسَّ في الفترة الأخيرة تغييرًا واضحًا في سلوك وتصرفات زوجته قبله لم تستطع رغم محاولاتها الجاهدة إخفاءها.

بدأت الشكوك تتابه من ناحيتها خاصة بعد أن حوّلت الشركة كلها وكذا أموالها باسمها، واتخذت هي موقع المدير وجمعت كل الخيوط في يدها ليصبح هو أسيرًا بين يديها.. لا حول له ولا قوة.. يوقع على ما تريد قبل أن يتناول فنجان القهوة في الصباح من يدها، وأحسَّ أن هناك سرًا في هذا الفنجان.. سلبه فكره وعقله.. وجعله أسيرًا لرأيها وقرارها.. كان عليه أن يقطع الشك باليقين ليتأكد ما محتوى هذه القهوة.. تناول بعضًا مما في داخل الفنجان ووضع في زجاجة.. كما طلب الطيب المعالج.. ثم أرسله إلى التحليل.

وكانت المفاجأة التي ما كانت تخطر بباله أو تدور بخلد.

القهوة بها مخدر الهيروين....

لكن لماذا فعلت ذلك؟ ما سر غدرها به؟ إنها مؤامرة للقضاء عليه.. لا بد أن هناك رجالًا في حياتها؟ وقد دبّرا معًا خطة الخلاص منه.

لكن من هو ذلك المجرم الآثم الذى شاركها خطة القضاء عليه وموته مدنيًا وأدبيًا ببطء؟..

وأضناه فكره العليل وخيالاته المضطربة المتلاطمة غير المستقرة إلى

ضرورة البحث عن هذا العاشق الجديد، وقطع عليه هذا الموج العاصف من الفكر القاتل. رأى والدته القاطع والحاسم في ضرورة إبلاغ الشرطة بحقيقة ما حدث.

تساؤلات تبحث عن إجابة والتي دارت في ذهن ضابط المخدرات الذى تقدّم الزوج من تلقاء نفسه ببلاغ إليه طالبًا منه العون والمشورة والنصيحة خروجًا من هذا المأزق الذى تردّى فيه.

من المؤكد أنّ تساؤلات عديدة دارت تبحث عن جواب معقول ومقبول دارت في ذهن ضابط مباحث المخدرات وهو يتلقّى شكوى الأم وبصحبتها ابنها.. كان أول بلاغ من نوعه يصادفه، كان عليه -كما يفرض عليه منطق التحقق من الدليل- مراقبة الزوجة بعد استئذان النيابة العامة.

وأسفرت المراقبة عن شراء زوجته مخدر الهيروين الذى اعتادت أن تدسّه في القهوة لزوجها.. حتى استطاعت أن تجعله أسيرًا وعبداً بين يديها.

كان مخطط الزوجة في الانتقام من نوع جديد استقر عليه فكرها.. أن تمعن في إذلاله.. أن يسقط احترامه من عيون الناس.. أن يتحول هذا الاحترام إلى نوع من الازدراء والاحتقار بل والسخرية.. أن تثبت له في النهاية بعد تدميره أنها أذكى منه.. أن لحمها مرًا يسمم من يأكله.. كان من مخططاتها أن تواجهه في نهاية المطاف بخيائته.. عن سر نقمتها عليه.. عن سبب الحب الذى تحوّل إلى كراهية والنار التى أصبحت رمادًا.. أن تواجهه بما اكتشفته وهى في قمة ثقتها واطمئنانها إليه بأنّه قد خان حبها.. هو البادئ بالخيانة..

والبادى أظلم وعلى الباغى تدور الدوائر.

كان غلُّ الانتقام ينهش فكرها ويسرى في عروقها مسرى الدم.. أغرقته في بحر الإدمان لتقضى عليه كما قضى على حياتها.

لكنَّ القدر لم يمهلها فقد تم القبض عليها، وتم ضبط الهيروين الذى بدَّلت به حياة زوجها وغيَّرت مساره وكادت تقضى على مستقبله بل حياته.

تم ضبطها متلبسة وهى تعدُّ له فنجان القهوة فى الصباح كالمعتاد ولم تجد أمامها بداً من الاعتراف.. لقد اعترفت بكل شيء وقدَّمت شريط الفيديو الذى قتل حبها ودمَّر حياتها وحياة من تحب.

تم مواجهتى كمحقق للزوج بهذا الشريط وما جاء به فى مواجهة الزوجة التى فوجئت بالحقيقة لأول مرة وبأنَّها عاشت فى صراع مع الوهم وكيف أنَّ هذا الوهم كان هو الخنجر الذى ذبحت به نفسها.. كانت فى سبيلها للإجهاز به على زوجها.

إنَّ شريط الفيديو كان عن زيجة قديمة قبل أن يعرفها ويقترن بها، وقت أن تعرَّف عليها كانت قد انتهت هذه الزيجة بالطلاق وأصبحت مجرد ماضٍ.. أسدل عليه ستائر النسيان وطلب منى كمحقق أن أسجل تفاصيل الحقيقة التى آثر كتمانها فلم يصرح بها لزوجته حرصاً منه على مشاعرها واستمراراً لحب جمع بينهما ووفاء منه لمواقفها وراء نجاحه سنداً ودعماً.

ولكى يظلَّ المحبوب الذى رسمته فى مخيلتها حتى ولو كان زواجه من

امرأة قبل أن يعرفها.. لقد دفعه حبه الشديد له ألا يفتح صفحة عن ماضي أسدلت على أيامه ستائر النسيان.

روى الزوج لى كمحقق قصة هذه الزيجة وظروفها التي تمت فيها حتى انتهت بالطلاق منها.

كانت مسيرة حياته.. صورة كربونية لمسيرة حياتها.. نفس الظروف والملابس التي أكرهتها على أن تتزوج كهلاً فانياً جسداً بلا روح.. من أجل ماله.. هروباً من الفقر.. فقد تزوج هو من أرملة ودّعت سن الشباب، كان يقطن في حجرة على السطح في عقار تملكه كان وقتها طالباً معدماً يعيش وحيداً محروماً من كل لذات الحياة ومباهجها ومفاتها عاكفاً على دراسته.. حين التقى بها تطلب إيجار الغرفة التي استمهلها أكثر من شهر لسدادها.. عاملته بلطف وحنان.. قدّمت له أشهى الأطعمة التي افتقدها.. اشترت له أغلى الملابس.. كان ينظر إليها في البداية على أنّها ملاك هبط له من السماء.. يمدُّ له يد العون ليعبر الطريق الآمن حتى يحصل على البكالوريوس.. لكن تفكيرها كان أبعد من ذلك وهدفها كان آخر ما يفكر أو يتوقّعه منها.. كان ينظر إليها نظرة الابن لأمه.. لكنّ نظرتها له كانت نظرة خبيثة ملؤها الرغبة والشهوة.. ولم تخجل حين فاجأته بذلك وأعلنت له أنّها على استعداد أن تضع كل ما تملك في الدنيا تحت قدميه شريطة أن يكون ملكاً لها.. أن يتزوَّجها.. وأنّها على استعداد أن تحقق كل رغباته وآماله وطموحاته في الحياة.

تم زواجه منها بعد إحساس عميق رسب في أعماق نفسه أنَّها اشترته بأموالها أنَّها أدخلته في قفص من ذهب عليه أن يبقى فيه معاً.. كانت غيرها عليه عمياء بلا حدود تلاحقه في كل خطوة يخطوها.. تحسب عليه كلماته.. ونظراته.. أحسَّ بأنَّه يقضى عقوبة عن جريمة لم يرتكبها وكلمتا مرت الأيام زادت شكوكها وهو جسها التي لا تنقطع عن ملاحقته في صحوه ومنامه.

لم تبتسم له الدنيا يوماً وهو في أسرها رغم محاولاتها الجاهدة لإسعاده وإدخال البهجة عليه إلا أنَّه كان دائماً مهموماً حزيناً خائفاً مترقباً المجهول.

وكلما رسم الزمن بصماته على وجهها وشعرها الذى كساه البياض جنّ جنونها، وهى تحاول جاهدة أن تعيش في ثوب الشباب.

انتقت أغلى ثياب الشباب.. وأحدث صيحات الموضة منها.. اشترت أرقى أنواع العطور.. اقتنت أغلى الباروكات.. قاطعت الدنيا وما فيها حتى أولادها خاصمتهم وطردتهم من حياتها من أجل.. كنت أضغط على نفسى وأتصنع حلو الكلمات لإرضائها وإسعادها ولو وهماً..

وفجأة وبلا مقدمات زحفت الأمراض إلى جسدها فما عادت تفلح فيها ثياب براق أو عطور نفاذة وأدرك أولادها أنَّه الموت لا محالة وأجبروها على الطلاق منى.. وطلقتها.. كانت صفحة مريرة في حياتى قاسية في ذكراها على فكرى ماضياً قررت أن أطويه إلى الأبد.

لم أشأ أن تعايشنى زوجتى هذه الذكرى الأليمة إلى نفسى فأثرت أن

أحتبسها لنفسى.

طويت صفحات القضية بعد أن أتممت تحقيقها وأحيلت المتهمه للمحاكمة.

إنَّ هذه الزوجة أسلمت نفسها للانتقام والحقْد وهدمت قصة حب مع إنسان أحبها وأخلص لها لكنَّها حطَّمت حياتها وقضت على مستقبلها وظلَّت تصارع وهما وتطارِد شبحًا!! ثم تأكدت من كل ذلك بعد فوات الأوان.

لقد جنت ثمار ما زرعته من حقد وشك ودخلت مستقبلًا مظلمًا لتنفيذ حكم القانون.. تجابه تهمة شرسة وعقوبتها رادعة بعد أن سقطت بيديها في بئر الانتقام.

أما الزوج فقد تعالج من الإدمان واستقبل حياة جديدة بابتسامة ملؤها الأمل في مستقبل مشرق يواصل فيه تحقيق طموحاته بثقة وتفاؤل.

وانتهت أحداث هذه القضية وما زال سيناريو الأحداث فيها يجرى في مخيلتى وكأنَّه شريط سينمائي، وقد رَسَّخت في وجدانى ما أُرده دائماً أنَّ الصراحة والوضوح في حياة الزوجية أقصر طريق للوصول إلى الحقيقة.. إلى الأمن والأمان الحقيقى بينهما.

كان سؤالى الدائم كلما تذكرت أحداث هذه القضية.

ماذا كان سيحدث لو أنَّ الزوجة صارحت زوجها بما رأتَه في الشريط ولم تسلم نفسها للهوا جس والظنون والشكوك ولم يقدها عقلها أو تفكيرها إلى

مستنقع الانتقام من زوجها والتربّص به والإعداد المحكم بتدميره، كان
تصورى أنّهما سيعيشان في حياة ملؤها الحب ترفرف عليها حمامات الأمن
والأمان والاستقرار والسلام.. أسرة ناجحة سعيدة بكل معاني النجاح
والسعادة وحمّت نفسها وزوجها من السقوط في الهاوية.. ثمناً للصراع مع
الوهم.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو تينة
المحامي بالنقض

القضية الخامسة

ضيف على مائدة
((عتصاوي))



■ ■ ضيف على مائدة.. عشاوى

توجهت إلى مكتبي مبكراً لأنهي مقابلاتي مع
الموكلين، إذ كان متعيناً عليّ الانصراف بعد وقتٍ يسيرٍ حتى
ألحق ببعض زملائي لأداء واجب العزاء معهم في عزيز لدينا.

وما إن وطئت قدمي غرفة المكتب حتى دخل في أعقابى
مدير المكتب وأحسست من هرولته ومبادرته الحديث قبل
أن أسأله كالمعتاد عن الموكلين الحاضرين في المكتب،
بادرنى بأنّ هناك قضية قتل والموكل الحاضر فيها -شكله
مش مريح- وأنّه عصبى وباين على وشه الإجرام والعنف..
وأنّه يستعجل دوره في مقابلتى لكى يلحق القطار المسافر إلى
الصعيد الساعة الحادية عشرة ليلاً.. فأشرت إليه بإدخاله.

كانت النظرة إليه منذ الوهلة الأولى مخيفة.. كان أشبه بشور
بشرى شرس من الصعب ترويضه، من المستحيل السيطرة
على فكره أو إقناعه بغير رأى اعتقده.. كان ضخّم الجثة طويلاً
عريض المنكبين، بريق عينيه يشع منهما القسوة.. نبرات



صوته تعبر عن حدّته وعصبيته وانفعاله وانفراده بالرأى الذى لا يقبل بعده جدلاً أو مناقشة أو معارضة من أحد.

جلس أمامى وقد أحضر معه سيدة في العقد الخامس من عمرها جاءت معه على استحياء على غير عادة أهل الصعيد الحضور في أقران هذه القضايا.. وأحسّت بما يجول في خاطرى عندما سألتها عن سرّ حضورها وخروجها عما هو مألوف من تقاليد وأعراف.. فبادرتنى.. أنا أم المتهم.. وحسبت دموعها في مقلتيها وهى تقول بصوت خفيض ملؤه الثقة: «ابنى برىء والله وكررتها عدة مرات برىء من قتل أخته.. مما أدخل الشك في نفسى بصدق حديثها.

وأشارت إلى الحاضر معها «وده خطيبها وابن عمها في الوقت نفسه.. وكان مفروض حيتجوزها قبل الجريمة بحوالى أسبوع».

طلبت دوسيه القضية لتصفحه حتى أكوّن رأياً قبل قبول الدفاع في القضية.. ففتح ذلك العملاق حقبة كانت تلازمه منذ دخل غرفة المكتب وقدم لى دوسيه القضية التي كان محدداً لنظرها أمام محكمة الجنايات بعد حوالى أسبوعين.. وهو يردد بصوت أجش ويداه تعبث بشاربه وكأنه يزهو بفحولته ورجولته الطاغية.. ابن عمى زى ما قالت مرات عمى برىء.. وأنا كان نفسى أقتلها وأشرب من دمها وسط القرية وقدام الناس كلها علشان شرف العيلة الى داست عليه في الوحل..

أمسكت بدوسيه القضية وطلبت منهما الانتظار في غرفة الاستراحة حتى أتصفح أوراق القضية وأكون رأيًا سريعًا وأنا أودعهما بابتسامة إن شاء الله حتلحقوا القطار.

قبلت الدفاع في القضية، فقد أيقنت منذ الوهلة الأولى أن المتهم بقتل شقيقته عمدًا مع سبق الإصرار والترصد والذي أصرّ على الاعتراف بقتلها ومثلّ كيفية ارتكابه للجريمة برىء.. وأنه ليس القاتل.. وأن للواقعة صورة أخرى مغايرة تمام التباين ومخالفة كل الخلاف لما جرى عليه اعترافه الذي أصرّ وصمم عليه طيلة فترة الاستدلالات والتحقيقات أمام النيابة العامة.

وجاءت لحظة المحاكمة.. كانت المواجهة مع المتهم أشبه بأمواج بحر عاتية في ليلة حالكة الظلام.. كان يصرّ مؤكداً أنه قاتل شقيقته.. كان ثبات أعصابه ورصانة كلماته ورباطة جأشه توحى للجميع في القاعة أنه عاشق لحبل المشنقة ساعياً إليها بسرعة وبكل قواه وأنه في نظره إكسیر الحياة.

كانت نظرات الرجل الحادة وحديثه الممتلئ عنفاً وغلظة قاطعة أنه غير مقدّر للعواقب الوخيمة التي من المحتمل في انتظاره من جراء اعترافه بقتل أعز الناس إليه وهي شقيقته.. عمدًا مع سبق الإصرار والترصد.

كانت قسمات وجهه التي تنطق بالجدية والإصرار على المضي قدماً باعترافه مهما كان الثمن ولو كان حبل عشناوى ملفوفاً حول رقبته.

كان يجلس في قفص الاتهام كالطاووس نافسًا جناحيه وسط أبناء قريته

الذين اكتظت بهم القاعة عن آخرها.. وهو ما يلبث أن يتجول في قفصه بين الحين والآخر مستعرضاً قوته، مؤكداً للجميع نخوته ورجولته.. موزعاً نظراته للحاضرين.. الذين كانوا يبادلونه نظرات الفخر والإعجاب ويحسون فيه الرجولة بمعناها الحقيقي.. المدافع عن شرفه وشرف أسرته.. بل القرية كلها.. لم يكن بالقاعة موضع لقدم سواهم.. وقد جاءوا ليشهدوا محاكمة ابن قريتهم.. الرجل بمعنى كلمة الرجولة.. صاحب النخوة الذى لم يتحمل خروج شقيقته عن العادات والتقاليد التى توارثوها منذ أمد بعيد.. كان من وجهة نظرهم -وفى عيونهم- القديس الطاهر الذى توضعاً وتطهر من آثام شقيقته التى جلبت للأسرة الخزي.. ولطخت شرفهم فى وحل العار.. ذلك الرجل الذى لاكته الألسنة بعد أن كانت تعجز عن الجدل معه أو مجرد مواجهته.. وحامت الشائعات وكثرت حول شقيقته وترددت الكثير من الأقاويل والروايات التى نسجها أهل القرية من خيالهم السقيم وفكرهم العقيم.. ولكنها كانت أشبه بالسكاكين التى تنهال عليه أو أشد.. فكانت همسات الناس بمجرد مروره أمامهم سهاماً مسمومة تجد هدفها إلى قلبه الذى بات كسيراً جريحاً يقتر دماً بعد أن كان فتى القرية الأول بلا منازع.. لا يرد له قول ولا يخالف له رأى.. كان مسموع الكلمة من الجميع.. مرهوباً لا يجروء أحد على أن يخرج من عباءته أو يعصى له أمراً..

لم يكن أمامه من خيار أمام أهله وذويه وأهل قريته سوى الثأر لشرفه.. أن ينتقم لكرامته.. أن يثبت للجميع أنه الرجل القوى الذى لا يهاب شيئاً..

ولا يرهبه حتى جبل المشنقة.. واستبد به شيطان العادات والتقاليد والأعراف البالية أنه إذا لم يثأر لشرفه وينتقم لكرامته سيصبح أضحوكة الجميع.. سيمحون اسمه من سجل الرجال.. أما شقيقته فقد كانت ريفية يفور منها الجمال وتتدفق منها الأنوثة.. كانت بيضاء اللون.. ممشوقة القوام.. شعرها الأسمر الطويل يزيد جمالاً على جمالها.. وهو يهف على خديها.. كان كستائر الليل بمجرد أن يتلح البحر قرص الشمس وقت الغروب.. وعينها ذات اللون الأسود الكاحل كانت كعيون المها التي تسحر من ينظر إليها من أول لقاء.

وقد أكسبها هذا الجمال الطبيعي الطاغى ثقة بنفسها بلا حدود وتمرداً على واقعها الريفى الذى حال بينها وبين اتمام دراستها، فقد كانت متفوقة فى دراستها وحصلت على مجموع كبير فى الثانوية العامة.. كانت أميتها أن تكمل تعليمها الجامعى وتتفوق فيه وتحصل على الشهادة العالية..

لكن أخاها أصرَّ على أن تقف عند هذا القدر، وقد فرضت عليها التقاليد أن تعدَّ نفسها للزواج من ابن عمها القروى الثرى الذى دفن فكره وأغلق عقله فى معتقدات أهل قريته وأنه أولى من غيره وأحق بالزواج من ابنة عمه، خاصة بعد أن قرأ المرحوم والدها الفاتحة لهما منذ طفولتهما.

وفى الوقت الذى كان شقيقها يرسم مستقبلها على طريق مظلم وزيجة لا كفاءة فيها.. وزوج لا تحس ناحيته بأية عاطفة.. بل على العكس تنفر من

تصرفاته وكلماته.. كان تفكيرها يسير في خط معاكس وفي طريق متناقض ضد كل ما خطط له.. وعليه هو أن يسير في طريقه ومنطقه الذى تحكمه القوة والعنف والبطش.. لقد رأت أن مستقبلها يرتبط بمستقبل مهندس شاب كان يعمل في إحدى الشركات قريباً من قريتها.. جمع الحب بين قلبيهما منذ النظرة الأولى التى التقت نظراتهما أثناء عودتها من المدرسة.. والتقى أكثر من مرة، والتحف حبهما واعتصم بأشجار الحقول ونما تحت تغريد العصافير.. وتعددت اللقاءات بينهما، وامتلاً قلبيهما بالحب الذى تناقلته الطيور على أوراق الشجر من كثرة لقاءهما ومن فيض ما سمعوه من أحاديث الحب وتنهدات الغرام.

وانتشرت قصة حبهما بين أهالى القرية وتناقلتها الألسنة كل حسب ما خيل له شيطان هواه بل وجنح بهم ميزان التخييلات المسمومة إلى حدود بعيدة لا أساس لها، فقد كان حبهما شريفاً نقياً عفيفاً، ولكنَّ ألسنة الناس لا ترحم وتخيلاهم وشطحاتهم لا تقف عند حدود.

فقد شاع الخبر بين أبناء القرية على هذا النحو الكريه مسرى الريح.. ونما إلى علم شقيقها، هذه الأحاديث الهامسة.. ولم يكن بمقدور أحد من أهل القرية أن يواجهه بالحقيقة.. فجئن جنونه وحمل سلاحه النارى وأطلق الرصاص على المحبوب قاصداً قتله.. وشاء القدر أن ينجو من الموت بأعجوبة بعد أن انبطح على الأرض متخذاً ساتراً كان وجاء له ومانعاً من نفاذ الرصاصات المتلاحقة إلى جسده والذى لولاه للقى حتفه في الحال.

غير أنَّ الفتى لم يقابل الإساءة بمثلها.. وقدر مشاعر الأخ والظروف والعادات والأعراف والتقاليد التي يعيش أسيرًا في دائرتها.. ولا يملك إلا الانصياع لها مجبرًا.. لم يجابه ثورة الأخ ونيته القضاء عليه بانتقام مقابل.. كان بوسعه أن يزج به في غياهب السجن وينفرد بمحبوبته.. ولكن سمو فكره وحسن تقديره ووزنه العاقل للأمور كان هاديًا له.. غلبت عليه أخلاقه وشهامته واستبدت بفكره وقراره.

بالرغم من أنَّه رآه وتأكد من أنَّه هو الذى أطلق النار عليه إلا أنَّه رفض اتهامه وحتى بعد أن أكدت التحريات أنَّه هو الذى شرع في قتله.. وواجهته النيابة بها.. أصرَّ على أنَّه ليس هو المتهم، بل عرضته النيابة عليه في محاولة أخيرة فأكد منذ الوهلة الأولى أنَّه رأى من أطلق النار عليه رؤى العين وأنَّ المائل أمامه شخصًا آخر مما حدا بالنيابة العامة أن تكلف الشرطة بمزيد من التحريات فحامت الشبهات من جديد حول ابن العم باعتبار أنَّه زوج المستقبل وله مصلحة في التخلص من غريمه الذى احتل قلبها وانتهت التحريات إلى أنَّه لم يكن موجودًا بالقرية وقت الحادث.. ومن ثم فقد انتهت النيابة إلى إصدار قرار بالآ وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم معرفة الفاعل وقيد القضية ضد مجهول.

وحفاظًا على حياة المهندس.. أصرَّت جهة عمله أن تنقله إلى مكان آخر بعيد.. بعد أن أكدت تحريات الشرطة أنَّ وجوده في هذه الشركة فيه خطر محقق ومؤكد على حياته وأنَّ ما حدث له مرة من الممكن أن يحدث

مرة أخرى ستكون فيه نهايته.

وأكدت التحريات أنَّ لقاءات الابنة مع المهندس هي التي دفعت الأسرة بأكملها إلى التفكير في قتله، وإنَّ هذه الفكرة لاقت قبولاً وترحيباً من أهل القرية وجاءت على هواهم، فقد رأوا في زواج هذا الدخيل على القرية عيباً عليهم أن يتكاتفوا جميعاً للحيلولة دون حصوله.. منعاً لتكراره مستقبلاً لأى فتاة من ذويهم.. وبعد الواقعة ازدادت شراسة الأخ واستبد به عناده على تزويج شقيقته من ابن عمها بل وأصرَّ ابن عمها على ضرورة إتمام هذا الزواج بأسرع ما يمكن قطعاً للألسن ووضع حدٍّ للقليل والقال.

ولكنَّ الأخت أصرت على الرفض.. بل وأكدت لوالدتها أنَّ الموت أهون عليها من الزواج من هذا الأُمى.. ضيق الأفق.. محدود الفكر.. وأن تقدم على الانتحار لتقدم جثتها للموت الأبدى خير من أن تقدم جسداً بلا روح جثة مجردة من الإحساس والمشاعر لهذا الوحش.. كانت تتخيل بين الحين والآخر أنَّها جثة هامة يلتهمها في وحشية بين أنيابه التي تقطر دمًا في نهم يتلذذ في أنانية.. وقد اصم أذنيه وأغلق عينيه عن صرخاتها وعن آلامها.

فجأة اختفت الأخت وكأنَّ الأرض انشقت وبلعتها.. وانتشرت الشائعات في القرية وسرت مسرى الريح تؤكد أنَّ شقيقها أو ابن عمها قد قتلها حتى يتم التخلص من عارها.. ولم تمض أيام على اختفائها حتى ظهرت جثة طافية في نهر النيل الملاصق للقرية، وتم استخراج الجثة.. كانت مشوّهة الوجه على نحو يصعب معه الوقوف يقيناً على صاحبها.

أثبت مفتش الصحة الذى انتقل فور العثور عليها لمناظرة الجثة وإثبات حالتها وعما إذا كانت الوفاة طبيعية أم جنائية.. وجاءت النتيجة أن الوفاة جنائية نتيجة الاعتداء عليها جنائياً.. كما جاء بالتقرير وجود إصابات مدممة بالرأس وترك تحديد سبب الوفاة والآلة المستخدمة في أحداثها للطب الشرعى.

كان البحث جارياً ومتصلاً من قبل رجال الشرطة للوقوف على شخصية القتيلة والوصول إلى القاتل والباعث على ارتكاب الجريمة.

كانت المفاجأة إذ تقدّم الأخ معترفاً بأن الجثة لشقيقته وأنه قتلها ليغسل عاره ولينقى ثوب الأسرة الأبيض من دنس هذه الفاجرة التى لطّخت سمعته وأذلت كبرياءه هو والأسرة بأكملها وأن الموت كان أهون عليه من أن يقف هذا الموقف المخزى الذى فرضته عليه هو وأسرته وهو يواجه عيون الناس وشماتة الشامتين وحقد الحاقدين، فأصرّ على التخلص منها ليثبت للكافة أن أسرته عالية شامخة لا تقبل الضيم ولا تنحني أمام صغائر الأمور، وأنها تطهر وتنظف ثوبها الأبيض بنفسها مهما كان الثمن وتطرد من حظيرتها كل مارق أو شارد أو فاسد أو متمرّد على التقاليد والأعراف التى توارثوها أبا عن جد.

كانت هذه هى صورة لأحداث الدعوى التى وقفت أمام المحكمة مدافعاً عنه.

استوقف نظرى بعد فحصى وتمحيصى لكافة الأقوال والأدلة فى

الدعوى عدة أمور ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالصورة الصحيحة للواقعة التي تقود إلى الحقيقة التي ينشدها الجميع:

أولاً: جاء اعتراف المتهم حسبما رصدت التحقيقات على لسانه بأنه استدرج شقيقته إلى شاطئ النيل ليتفاهم معها بعد أن أوهمها بأنه قبل زواجها من المهندس وأنه يرغب في الوقوف على معلومات عنه قبل دعوته لإتمام هذا الزواج.. وأنهما ركبا زورقاً وتجاوزا الحديث وأثناء محاولته إثناءها عن فكرتها وإصراره على زواجها من ابن عمها قفزت في النيل محاولة الهرب لكنه ألقى بنفسه في المياه وتعبها وضغط على رأسها في المياه قاصداً إغراقها.. حتى تأكد من غرقها ومفارقتها الحياة.. وإمعاناً وإصراراً في الانتقام منها أمسك بالمجداف وهوى على رأسها وتركها جثة هامدة وسط المياه ورأى التيار يجرفها وهي تعوم على سطح الماء.

ثانياً: جاء تقرير الصفة التشريحية لجثة المجنى عليها يتضمن عدة حقائق..

(١) أن الجثة التي تم انتشالها كانت في حالة انتفاخ شديد وتحلل أنسجة وانتشار الديدان بها.

(٢) أن سبب الوفاة هو إصابات قطعية رضية حيوية بالرأس - أي حدث أثناء الحياة - تحدث من آلة قطعية رضية.

(٣) أنه بتشريح الرئتين لم يثبت وجود مياه بداخلها.

إزاء ما سلف طلبت مناقشة الطبيب الشرعى الذى أجرى التشريح
بجلسة المحاكمة.

” مثل الطبيب الشرعى المشرع بجلسة المحاكمة فطلبت منى المحكمة
توجيه الأسئلة التي أرغب فيها إليه..
سألته..

عن التغيرات الرمية التى وجدت عليها الجثة أثناء توقيع الكشف
الظاهرى عليها..
فأجاب..

كانت فى حالة انتفاخ شديد وتحليل الأنسجة وانتشار الديدان بأجزاء
متحللة من الجثة..
وسألته..

عن المدة ما بين الوفاة والتشريح واقع التغيرات الرمية الذى شاهد الجثة
عليها من الناحية الفنية.
فأجاب..

بأنه يتعين أن ينقضى ما بين الوفاة والتشريح مدة لا تقل عن عشرة أيام.
وعاودت سؤاله.. سؤالاً مهماً يرتبط بإجابته السابقة..

هل من الممكن أن تحدث هذه التغيرات الرمية بالجثة خلال مدة ثلاثة

أو أربعة أو خمسة أيام.

فأجاب..

بأنه يستحيل من الناحية الفنية حدوث ذلك ولا بد من أن تمر عشرة أيام على الأقل قابلة للزيادة وليس النقصان.

فتأكد لي أن المتهم كاذب في اعترافه وأن الجثة ليست لشقيقته.

واستطردت في سؤال الطبيب الشرعي..

ما السبب المباشر في وفاة المجنى عليها؟!

فأجاب..

الإصابات القطعية الرضية التي هُشمت الرأس.

فكان سؤال التالى..

ما الآلة المستخدمة في إحداث هذه الإصابات؟!

فأجاب..

آلة قطعية رضية أي ساطور أو بلطه أو فأس ذات حافة حادة.

فسألته..

هل من الممكن أن تحدث هذه الإصابات من مجداف؟!

فأجاب..

يستحيل ذلك لأنَّ المجداف آلة راضة والإصابات الموصوفة برأس

المجنى عليها قطعية رضية تحدث من آلة قطعية رضية، ومن المستحيل فنيًا أن تحدث من آلة راضة.

واستمر توجيه أسئلتى إليه..

هل قمت بتشريح الرئتين..

فأجاب.. مستنكرًا

بالطبع وده واضح في تقريرى.

فسألته.. سؤالاً في منتهى الفنية..

هل تبين لك وجود مياه في الرئتين؟!

فأجاب..

لا.

فسألته سؤالاً جازماً..

هل من الممكن فنيًا أن يكون سبب الوفاة إسفسكيا الغرق دون أن يتبين

من التشريح وجود مياه في الرئتين؟!

فأجاب..

يتعين إذا كان سبب الوفاة هو إسفسكيا الغرق وجود مياه في الرئتين وتلك

حقيقة علمية مستقر عليه.

فسألته سؤالاً قررت أنه الأخير..

هل من الممكن أن تطفو الجثة عائمة على سطح الماء فور الوفاة؟!

فأكد في إجابته استحالة ذلك من الناحية العلمية لأن كثافة الجثة لا تسمح بذلك إلا بعد فترة زمنية تنتفخ فيها وتطفو على سطح الماء.

وبدأت مرافعتي طالباً البراءة للمتهم مستهلاً دفاعي بأن الحقيقة في الدعوى الماثلة قدّر لها أن تقبر فليس في الدعوى من دليل يشفي غليل الحقيقة المؤودة شاهد يقيم يقول إنه رأى الواقعة لحظة حدوثها غير ذلك الحديث المتهالك الذي نعت بأنه اعتراف للمتهم وهو حديث هسّ ضعيف عاجز، لا يستطيع أن يقف على قدميه أمام الحقائق اليقينية التي قدّر لها أن ترصد في أوراق الدعوى، وهذه الحقائق المؤكد تمثلت في مناقشة الطبيب الشرعي الذي أكد كذب اعتراف المتهم وأنه مخالف للواقع والحقيقة والدليل الفني في الدعوى، ومن المسلمات القانونية أن الاعتراف لم يعد سيّد الأدلة وإنما بات دليلاً محفوفاً بالمخاطر منافعاً مجافياً للعقل والمنطق ضد الوضع العادي للأمر في أن يقدم الإنسان دليلاً ضد نفسه يورده موارد التهلكة في سهولة ويسر، ومن ثم كانت هناك من الضوابط والقيود العديدة للأخذ بالاعتراف كدليل معتبر استقر عليها القضاء، وهي أن يكون الاعتراف وليد إرادة حرة مبرأة من أي تداخل أيّا كان قدره هذا التداخل مادياً أو معنوياً وأن يكون واضحاً وظاهراً وجلياً مبرأ من أي ضغوط نفسية أو خارجية متفقاً مع بقية الأدلة في الدعوى ومنها الدليل الفني، فإذا جاء الاعتراف متناقضاً مع

الدليل الفني مخذولاً منه بات اعترافاً مكذوباً لا يعتد به ولا يصلح كدليل للإدانة.

ولمّا كانت أوراق الدعوى حسبما نضحت به الحقائق المؤكدة المرصودة فيها قد خلت من دليل يشفى غليل الحقيقة المفقودة في الدعوى الماثلة شاهد رؤية يقول إننى رأيت الواقعة وانحصر الدليل المقدم في الدعوى في هذا الاعتراف الذى ثبت كذبه على السياق الآتى:

أولاً: فقد اعترف المتهم أنّه أنهى حياة المجنى عليها بالضغط على رأسها في الماء حتى ماتت غرقاً وثبت من مناقشة الطبيب الشرعى على النحو السالف أنّه يستحيل حدوث الوفاة بهذه الصورة نظراً لأنّ تشريح الرتين أثبت خلوهما من المياه.

ثانياً: جاء باعتراف المتهم أنّه بعد التأكد من وفاتها غرقاً أنّه إشفاء لغيظه من سوء فعلتها قام بضربها على رأسها بالمجداف وهو ما ثبت كذبه بدوره فنياً.. إذ قطع الطبيب الشرعى بأنّ هذه الإصابات لا تحدث من آلة راضة كالمجداف وإنما حدثت من آلة قطعية رضية كساطور أو بلطة أو فأس.

ثالثاً: ما ثبت من مناقشة الطبيب الشرعى بالجلسة وأكده من أنّ التغيرات الرمية التي وجدت عليها الجثة وقت التشريح تقطع بأنّ وفاتها كانت من مدة لا تقل عن عشرة أيام، في حين أنّ اعتراف المتهم أنّه قتلها في تاريخ سابق على العثور على الجثة بثلاثة أيام.

رابعاً: أن ما يؤكد كذب المتهم في اعترافه ما أورده بتحقيقات النيابة من أنه عقب قتلها طفت جثتها على سطح الماء وأنه رآها والتيار يجرفها حتى غابت عن عينيه في اتجاه الجنوب، وهو ما يستحيل بدوره حدوثه بناء على مناقشة الطبيب الشرعى بالجلسة، إذ يستحيل أن تطفو الجثة على سطح الماء فور وفاتها، لأن كثافة الجثة لا تسمح بذلك إلا بعد فترة زمنية تنتفخ فيها، مما يدفع بها إلى الطفو على سطح الماء.. كما أن ما يقطع بأن اعتراف المتهم هو حديث الوهم والخيال الذى لا يصادف واقعاً أو حقيقة هو استحالة أن يجرف التيار الجثة باتجاه الجنوب، إذ إنه عكس اتجاه التيار المائى الذى يتعين معه اتجاه الجثة في مسارها على الفرض الجدلى نحو الشمال لا الجنوب.

وأحسست من عيون هيئة المحكمة -وهى تنصت لدفاعى وتتابعنى فيه- بالرجوع إلى أوراق الدعوى في كل جزئية أثرتها في دفاعى أن المتهم لم يقتل هذه الجثة وأنها ليست شقيقته.. أحسست أن الشك قد تسرب إلى وجدان المحكمة في جدية هذا الاعتراف وصدقه وأن وراء إصراره على قتل شقيقته لغزاً غامضاً مثيراً للدهشة والحيرة، خصوصاً أنه كان دائم المقاطعة أثناء المرافعة بصوت جهورى يؤكد أنه القاتل مردداً إيه يعنى قتلها بساطور أو بشومة أنا باعترف انى قتلتها.

وازداد يقينى، وهو ما أحسست بقناعة المحكمة به أن هذا الشاب مضلل وأنه يعلم سلفاً أنه مكذوب.. واسترجعت صوت والدته لأول مرة عندما

حضرت إلى مكتبي مؤكدة أنه برى..

إنَّ هناك سرًّا تختزنه هذه المرأة بين جنباتها.. إنَّها تعرف الحقيقة كاملة.. ولكن ما سر صمتها.. لمن تكون هذه الجثة.. ولماذا يصر ابنها على هذا الاعتراف.. ويقدم رقبته طبعًا مختارًا لجبل عشماوى.

لاشك أن أسئلة كثيرة وتخيلات عديدة قد دارت في ذهن الكثيرين ممن حضروا جلسة المحاكمة.. والمتهم يخاطبهم داخل قفصه بكل ثقة وإصرار لا تصدقوا.. أنا القاتل.. غسلت شرفي بيدي.. أمام الشرف تهون الحياة.

وكانت المفاجأة التي زلزلت أركان القاعة.. مفاجأة من العيار الثقيل.. لم تدر بخلد أحد لا الدفاع ولا المحكمة ولا أي من الحاضرين.. كانت مرافعتي قد قاربت من الانتهاء عندما علا على باب قاعة الجلسة صوت سيدة تصرخ من أعماقها تناشد المحكمة أن تسمح لها بالكلام.. كانت تصطحب معها فتاة توشَّحت بالسواد الذى غطَّى جسدها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها.. وطلب منها قبل بدء حديثها أن تزيل النقاب وأن تكشف عن وجهها، ذلك الوجه الذى سيكشف بدوره عن وجه الحقيقة الذى غطَّاه أو طمسه التراب الكثيف الذى هاله عليه المتهم باعترافه الكاذب..

وزالت النقاب وكشفت عن وجهها إنَّها أخته التي اعترف بقتلها.. جاءت بصحبة أمها التي كانت تصيح صيحة مذعورة وهى تطلب الحديث إلى المحكمة.

ووافق رئيس المحكمة.. وتقدّمت نحو المنصة.. وطلب منها أن تقسم بالله أن تقول الحقيقة.

قالت بعد أن أقسمت إيمانًا مغلظًا أنّها لن تقول غير الحق ولا شيء إلا الحق:

أنا بصفتي أم أردت حماية ابنتي بعد أن شعرت بأنّ ابني وابن عمها قد اتفقا على قتلها، والبحث عن المهندس لقتله.. ولكم أن تتصوروا الجزع والفرع والرعب الذي من الممكن أن يستبد بمشاعر أم تسمع بأذنيها أنّ ابنها سيقتل شقيقته التي تربّت معه وعاشا في حب كل للآخر منذ أن تفتّحت عيناها على الحياة.. ستضيع منها ستفقدّها إلى الأبد وهى التى احتضنتها في طفولتها وربّتها في شبابها.. ولن يقف الأمر عند هذا الحد ستكون كارثتها مضاعفة تفوق الوصف والخيال.. سينال جزاءه.. سيعدم بسببها هو وابن عمه.. وناهيك عن العار والذلة والمهانة التي ستحلّ بالأسرة بأكملها.. إنّهُ الوهم.. فأى عار ارتكبته ابنتي؟ لقد أحبّبت حبًا شريفًا نظيفًا نقيًا.. وهذا هو حقها الطبيعي.. كحق أي فتاة في الحياة.. لم ترتكب أى فحشاء.. كان المهندس صادقًا بدوره في حبه لها متفانيًا في الإخلاص والوفاء لها طالبًا وراغبًا الزواج منها على أعين الأَشهاد وعلى كتاب الله وسنة رسوله.

كان حديث الأم أيقونة شعرية مسّت شغاف القلوب ونفذت إلى فكرهم واستقرت في ضمائرهم.. تساءلت والدموع تملأ عينيها أى جرم ارتكبته ابنتها.. هل عندما يتقدّم للزواج منها مهندس شاب تتمناه الكثيرات

زوجًا تفخر أي عائلة من الارتباط به.. هل في ذلك ما يشين؟ هل فيه جرم؟ إنَّ الجرم هو أن يتم زواجها بالإكراه رغمًا عنها.. أن تسلم جسدها جثة هامدة لا روح فيها ولا حس ولا رغبة لشخص انقطعت خيوط المحبة بينهما.. أن تعيش تحت سقف واحد مع زوج لا تطيقه.. فأى عيب في هذا؟ ومن منا يستطيع أن يقهر أحاسيسه ومشاعره أن يطفى نار الحب المشتعلة التي تزيد التهابًا وتأجيجًا بين ضلوعه؟

رغم أنَّ المهندس غادر البلدة ما وقف الأمر عند هذا الحدّ، فقد أراد شقيقها أن يزوجه ابن عمها في الأسبوع التالي رغمًا عنها ضاربًا بمشاعرها وأحاسيسها عرض الحائط.. كل ما كان يحرص عليه ويسعى إلى ترسيخه وتوثيقه هو تلك التقاليد والعادات والأعراف البالية التي عفى عليها الزمن والتي مازالت تلك الأعراف الموروثة التي مازالت عالقة في النفوس مستبدة ومسيطرة على رؤوس أهل القرية.

إنَّها تحب ابن عمها كأخ لها.. لكنَّ مشاعرها تلفظه كزوج، ونحن لسنا أحرارًا حين نحب أو أخيارًا عندما نكره.

أحسست بالانكسار في عيون ابنتي وأنَّها تحطّمت بالفعل وباتت شاردة ذابلة بعد أن كانت زهرة متفتحة، أضحت كارهة للحياة، فالموت أهون عليها من هذه الزيجة التي رأت فيها قتلاً لآدميتها وذبحًا لمشاعرها.. كان الزواج منه بمثابة انتحار.

كان على ألا أقف موقف المتفرج وأنا أرى النار تزداد اشتعالاً واقترباً من الجميع.. تكاد تلتهم الأسرة بأكملها.. الابنة.. والابن.. وابن العم.. وسمعة الأسرة بأثرها.

فكرت سريعاً في حلّ استخرت الله فيه وهدانى إليه وسط هذه الأمواج المتلاطمة التي كانت تملأ فكري وتكاد تقضى على.. ووسط هذا الفكر الملبّد بالغيوم أصدرت قراراً قاطعاً قررت أن أدفع ثمنه مهما كان هذا الثمن.. لن أسمح بهذه الزيجة.. سأقف بكل ما أوتيت من قوة أمام جريمة تدبر أمام عيني.. لن أسمح بأن أرى ابنتي تذبح قرباناً لتقاليد بالية عفى عليها الزمن.. طلبت من ابنتي الاختفاء بسرعة من القرية عند أحد أقاربنا في القاهرة وطلبت منها أن تطلب المهندس الشاب وتتزوج على أعين الأشهاد وعلى سنة الله ورسوله.

وصمتت الأم وهي تلهث من الانفعال.. ومدّت يدها إلى جيبتها، وأخرجت ورقة قدّمتها للمحكمة وقالت: اقرأوا هذه الورقة.. إنها قسيمة زواج ابنتي من المهندس.. وأضافت والفرحة الممزوجة بالإصرار والانتصار تشعّ من عينيها إن ثمرة هذا الزواج جنين ينبض في أحشاء ابنتها.

وصرخت -بلا وعى- صرخة مدوية اهتزّت لها أركان القاعة -لعنة الله على هذه المعتقدات البالية.. لقد أثرت أن أحطمها، أن أكون أول من يبدأ بالقضاء عليها ومحوها من فكر وعقول من أسلم نفسه عبداً لها.. وتساءلت موجّهة سؤالها لجموع الحاضرين في القاعة ومنهم ابنها في القفص طالبة

الإجابة.. هل كنت على حق عندما اخترت هذا الطريق.. عندما أصدرت قرارى لأخذ نازًا كانت ستلتهم الجميع.. هل أكرمت ابنتى عندما تزوّجت ممن تحب؟ هل أكرم زوجها المهندس بدوره عندما تزوّجها زواجًا شرعيًا تتويجًا لحيتهما؟

وقطع هذا الانفعال والناس صامتون وكأنّ على رؤوسهم الطير صياح من جانب آخر.. إنّهُ صياح ابن العم الذى تقدّم من بين صفوف الحاضرين. وهو يحيى الأم ويصادق قولها ويؤيدها في كل خطوة خطتها.. وكل كلمة تلفظت بها.. ويبارك هذا الزواج ويردد أنّه ليس أنانيًا إلى هذه الدرجة.. إنّ نخوة الشهامة والرجولة تأبى عليه أن يعيش تحت سقف واحد في بيت لا يسوده الحب بين الزوجين.. مع زوجة لا تبادله مشاعر الحب.. إنّهُ يعلن أمام الجميع أنّه يبارك هذا الزواج إنّهُ يحبها من كل قلبه ولكنّه حب من نوع آخر كأخت له وابنة عم.

وفى غمرة الفرحة التي استبدت بمشاعر الجميع فوجئ الحاضرون بالمهندس الشاب يصحبه والده ووالدته يدخلون القاعة مهئين بحكم البراءة.

استقبلهم الكل بابتسامة ملؤها الترحيب والفرحة والتكريم وتعانق الجميع في لحظة حب صادقة دعوهم فيها للاحتفال بهذه المناسبة السعيدة بين أهالى القرية جميعا وكأنّهم بذلك يعلنون تمردهم على خزعبلات الماضى وتقاليد عفى عليها الزمن ليعلموا عن مولد فكر جديد.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة
المحامي بالنقض

القضية السادسة

لقاء مع إبليس



لقاء مع ابليس

فصول هذه القضية وأحداثها كانت أشبه بالناي الحزين الذي يعزف على أشلاء الموتى.. بطلها فلاح مصرى يقطن إحدى قرى صعيد مصر.. أنجب ولدين كانا قرة عينيه.. عاش على ما تعطيه أرضه من رزق وخير، لكن طموحاته كانت أكبر من واقعه.. أراد أن يقلد أبناء قريته الذين باعوا أرضهم ونزحوا إلى العاصمة ووجدوا في التجارة شطارة ودخلوا دنيا الثراء من أوسع الأبواب.. وبدأت الهواجس تطارده.. لماذا لا يصبح مثلهم؟.. همّ أحسن منى في إيه.. ليه ما بقاش أحسن منهم.. وفعلا لم يصمد كثيرا أمام أفكاره.. قرر أن يبيع أرضه التي كانت بالنسبة له مثل الماء والهواء.. والبقرة الحلوب التي تدرّ عليه الخير كل الخير.. وعاش من رزقها هو وأسرته طيلة حياته.. وأغراه طموحه وعزم وتوكل وباع أرضه التي ورثها عن أجداده وأفنى فيها طفولته وشبابه وأغمض عينيه عن نظرات أبناء القرية الذين



كانوا يرمقونه في «الجاية والرايحة» ولسان حالهم يقول في سخرية «ليه ياعوضين بعث القيراطين».. «الى يفرط في أرضه زى الى يفرط في عرضه»..

وسافر هو وولده إلى القاهرة أملاً في أن يفتح الله عليه باب رزق جديد يعوّضه ما فات.. كانت المرة الأولى التي يحضر فيها إلى القاهرة المدينة التي لا تنام والحيرة تستبد بفكره هل كان مخطئاً أم مصيباً عندما باع أرضه وترك قريته ونزح إلى عالم المجهول.. فقد كان عالم القاهرة بأضوائها وسحرها وجمالها بمثابة المجهول بالنسبة له.

أحسّ في أول يوم نزح فيه إلى القاهرة أنّه سقط في بحر لا شاطئ له تتصارعه الأمواج.. وتتقاذفه الرياح.. فهل سيتحقق حلمه ويصل إلى شاطئ الأمان أمام هذه الأمواج العاتية؟ كان إصرار الرجل بلا حدود وعزمه وجلده لا يتوقفان اشترى على الفور منزلاً يجاوره مخبز، بدأ العمل فيه بجد منذ اليوم الأول.. كان ساعده الأيمن ابنه الأكبر الذي كان يعمل في الفرن بلا توقف.. يصل الليل بالنهار، عيناه لا تغيب عن العمال حتى يزيد الإنتاج ويحقق حلم أبيه ويرفع رأسه وسط أهل قريته.

كان الله معه، فالله دائماً مع الكادحين المخلصين في عملهم.. زاد الإنتاج واتسعت رقعة التوزيع عامًا بعد عام.

أما الابن الأصغر فقد أصرَّ الأب والأخ على مواصلة تعليمه حتى يحصل على «الشهادة العالية» كما كانا يسميانها.. فقد كانت تلك أمنياتهما أن يرياه في مركز مرموق وقد شغل وظيفة يتفخخرون بها ويتباهون أمام أهل

قريتهم.. ويؤكدون لهم أنَّهم كانوا على حق عندما باع الأب أرضه ونزح إلى القاهرة ليعيش هو وأولاده في عالم خصب جديد مهياً لاستقبال أحلامهم بل دافع لتحقيقها.

وأدرك الأب أنَّ الأيام تسرق ابنه الأكبر.. وأنَّ قطار العمر يمضي به وهو لا يفكر إلا في المخبز ولا ينصرف ذهنه إلا في العمل وجمع المال ليكون حصناً لهم وأمنًا وأمانًا من خدر الأيام.. فصمم على ألا يتركه على هذا الحال.. لا بد أن يتم نصف دينه واختار له فتاة تسكن في الحى الذى يقيمون فيه.

كانت حسناء ممشوقة القوام شعرها غجرى.. عيناها كعيون المها.. ضحكاتها تنفذ إلى القلب وتحتل أكبر جزء منه إن لم تحتله كله فلا تتركه معافى سليماً.

وعاش الابن الأكبر مع زوجته في منزل الأسرة يعوّض الليالى الحالكة التى كان يقضيها سابحاً في عرقه أمام نيران الفرن.. إنَّه أمام نار من نوع جديد لا تقل في لهيبها عن تلك النار التى كانت تلفح وجهه أمام الفرن.

كانت زوجته كالقطة السيامى.. سحرت الجميع بأسلوبها اللبق وبهرتهم بجمالها الفتان.. واحتلت رؤوسهم بقذها الممشوق.. غطت المنزل ببهجة لم يعهدها من قبل.. بدلت ذلك السكون الذى كان يخيم على المسكن من قبل وكأنَّه منزل مهجور لا حس فيه ولا حياة.. أصبحت هى الملكة المتوجة على عرش أفئدة الجميع الذى امتلأ بحبها والإعجاب بها.

ولم يستطع الابن الأصغر أن يقاوم سحرها وخفة دمه ودلالها بعد أن لطشت قلبه البكر وسرقت عقله المتعطش إلى الحب.. بدأت أحواله تتبدل.. بدأ يهتم بمظهره.. بملبسه.. يقتنى الروائح النفاذة علّها تنفذ إلى قلبها بعد أن أطارت النوم من عينيه وزرعت جذور حبها في أعماق قلبه التي كانت تنمو بسرعة متزايدة يوماً بعد يوم وترفرف أوراقها داخل قلبه الخصب.. كان لا ينام الليل ولا النهار.. قلبه يخفق دائماً يردد أنشودة حبها.. اقتنى أغاني الحب.. والغرام.. التي تحكى سهر الليالي في جفون المحبوب التي فارقت النوم.. واستعصت عليه.. كان يتعمّد تشغيل الشرائط التي تحكى حلاوة الحب وجنته، اقتنى ما استطاع قراءته بنهم من حكايات الحب والغرام الرومانسية التضحكية بكل شيء من أجل المحبوب.. غيّر نبرات صوته ولهجته الصعيدية ليتحدّث معها برقة ونعومة تعكس نبضات قلبه الذى ملأه حبها.. كان يطيل النظر إليها فتغمره سعادة لا حدود لها إذا ابتسمت خيّل إليه أنّها تبسم له وحده وأنّه ملك الدنيا وما فيها.. معها كان يحس أنّ السعادة فتحت له أبوابها على مصراعها، ليدخل إلى جنة حبها.. استبدت الحيرة بالشاب واستحوذ عليه القلق وهو مازال كاتمًا حبها داخل أضلاعه.. لم يبح به لأحد سوى نفسه الحائرة الهائمة المتدفقة شوقاً وعشقاً وافتتاناً بجمالها.. كم تساءل في ليله الطويل وهو شارد الفكر هائم في حبها لا يغمض له جفن ولا تنام له عين.. فقد عود قلبه على أن يسهر معها يناجيها في خياله ويسأل قلبها هل نفذ الحب إليه.. هل تبادله هذا الفكر.. هل تسرّبت نار نيرانه إلى أحاسيسها فباتت تتقلب كما يحدث له وكأنّه ينام على الجمر.

كل هذه الأسئلة كانت تدور في عقل الفتى وهو حائر هائم لا يعرف لها إجابة.

وقطع عليه هذه الحيرة وهذا القلق الذى يستبد به ذات ليلة عندما طلبت منه أن يقابلها خارج المنزل بعيداً عن عين شقيقه ووالده.

فى تلك اللحظة عمته الفرحة وكأن الدنيا كلها ملك يديه، واعتقد أن الطير قد وقع وأن سهام الحب قد نفذت إلى قلبها فأدمته.. وأن كيوييد الحب قد احتل عقلها وفكرها.. وأنها طلبت لقاءه لتبوح له بحبها وتعترف له بأشواقها وهيامها به وأنه فتى أحلامها وأن زواجها من أخيه كان أكبر خطأ ارتكبه في حياتها وأن عليهما أن يفكرا معاً بقلب وبفكر واحد في تصحيح المسار ولكن كيف؟ كان سؤالاً محيراً.. خاصة وأنها أصبحت أما لطفلين.. هو عم لهما.

التقى بها بعيداً عن عيون العزال في مكان شاعرى على ضفاف النيل.. قابلته بابتسامة عذبة.. ورمقته بنظرة ساحرة.. أحس لحظتها أن ظنونه وأحلامه أصبحت حقيقة.. إنها جاءت لتصارحه بحبها، وتلعثم لسانه وتحجرت الكلمات بين شفثيه حتى قطعت سكوت اللقاء وهى تضغط على يده قائلة:

- أنا حيت

ولم يتركها تكمل الحديث عندما تشجع وهو يقول..

- أنا عارف كل حاجة.

ازداد رنين ضحكاتها وهى تقول فى غرابة:

- والله ما أنت عارف حاجة. طيب قوللى إنت عارف إيه؟

أحبّ أن يسمع منها حديث الحب، ذلك الحديث الذى سهر الليالى الطويلة يسمعه فى خياله الشارد.. لقد حانت اللحظة التى أصبح الحلم حقيقة ماثلة أمام عينيه.. ها هى جاءت إليه بقدميها.. بإرادتها.. باختيارها.. لتعلن له هذا الحب الذى طال انتظار سماعه.. عليه أن يتمهل قليلاً، فقد مضى الكثير وما بقى إلا القليل فليسمع منها هى إعلان حبها تنطق به من بين شفتيها وكأنه البلسم الذى يداوى جراح قلبه.

وبدأت فى الحديث والبسمة لا تفارق شفتيها.. وقلبه مازال يخفق وازداد خفقاناً عندما تحدثت..

- أنا.. جيت.. أقولك.. إنى عاوزاك تتجوز أختى هى بتحبك وانت مش حتلاقى أحسن منها.

تسمّرت عيناه وجد الدم فى عروقه وازداد قلبه خفقاناً وكسا وجهه حمرة لاحظتها وهو يسمع منها هذه الكلمات.. كانت مفاجأة قاتلة غير متوقعة.. كان حديثها كالصاعقة التى حلّت برأسه وشلّت فكره والمطرقة التى هوت على قلبه الجريح فقضت عليه.. فما عاد قادراً على الإجابة أو مجاراتها فى الحديث.

ربما أحسّت لحظتها بأنّ الخبر كان مفاجأة له فقد كانت ذكية لمّاحة.

وسألته:

- مالك .. اتخذت كده ليه؟ انت مكسوف ولا إيه؟

أكيد مكسوف وده واضح .. وشك شكله اتغير .. أقدر أقول مبروك.

لم يسعفه لسانه في أن يرد عليها وهو مطأطئ الرأس كسير النفس، وقد استبدت به خيبة الأمل وأجابها بصوت متلعثم ..

- أبداً.. أبداً..

واستمر يرددّها وكأنّه لا يدري ماذا يفعل وماذا يجيب؟!!

وتركته في حيرته وقد قررت الانصراف حتى لا يراها أحد منفردين

قائلة:

- على العموم أنا حا أسيك دلوقتى وأنا عارفه إنك حتوافق .. حا أسيب لك فرصة تفكر فيها برواقة .. لحظتها أحسّ بعد أن فارقت .. أنّه يتيم وحيد في هذه الدنيا وأنّ الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت وأنّ آماله وأحلامه قد تحطّمت بلا رحمة وبلا هوادة على صخرة الواقع المرير والأليم .. أحسّ أنّه عاش الأيام والليالي حالماً واهماً يغوص في بحور الخيال يعذب نفسه في نيران الحب الذى يكتوى بناره هو فقط .. فكّر جدياً في أن يلفظها من حياته وأن يطردها من فكره وأن يقذف بها من قلبه الذى تربّعت على عرشه .. فقذفته

الأفكار ولعبت برأسه الهواجس.. لكن ما لبث هذا الفكر أن تبدد أمام وساوس الشيطان التي بدأت تتسرب إلى أوصاله وتنفذ إلى مخيلته وتنهش فكره من جديد.. أعاده الشيطان إلى عادات أهل الريف عمومًا وتقاليده الصعيد خصوصًا.. إنَّ الزوج إذا ما توفي فعلى الأخ أن يتزوج من أرملة شقيقه خصوصًا أن زوجة أخيه قد أنجبت طفلين سيكون هو الأولى بتربيتهما ولم يشعر بنفسه وهو يصيح من أعماقه صيحة استرعت والده وهو يصرخ..

- لا.. لا.. مش ممكن..

ويضرب بيده على المنضدة التي تحطم زجاجها فأدماها كقلبه الجريح الذي مازال يقطر دمًا.

صرخ من أعماقه لا وهو يتذكر الليالي الطويلة التي قضها شقيقه في المخبز، والعمل الشاق الذي كان يفوق قدرته، ومع ذلك كان يتحامل على نفسه ليوفر له ولوالده الراحة والمال.. كان يقطع من قوته ويعطيه له ليكمل دراسته حتى يكون على قدم وساق مع أقرانه في الدراسة.. لم يحرمه من شيء.. لم يجعله يحسّ في يوم أنّه أقل شيئًا من أي زميل له.. ولكن ما لبث الشيطان أن استحوذ على ضميره وكتب شهادة وفاته.. فقد زيّن له الشيطان صورتها وهى بين أحضانها تغمره بدفئها وأنوثتها وحنانها.. تخيل صوتها وهى تشدو له أغاني الحب التي سمعها لها كثيرًا.. وكأنّه صوت الكروان يشدو.

لم يستطع أن يقاوم نفسه التي جرّدها منه شيطان العشق.. أمام بسمتها التي

لا تفارقه وصوتها الذى يتغنى بأعذب كلمات الحب.

وسط هذا البحر الخضم من الأمواج المتلاطمة من الأفكار التى تصارعت جميعاً فى رأسه الخاوى.

حسم إبليس الموقف لصالحه وتغلّبت كفة الشر على كفة الخير.. غاب الضمير وانعدم الفكر.. انحنى الفتى أمام إبليس منفذاً خطته الجهنمية التى زرعها فى أعماقه للتخلص من شقيقه حتى يغنم بزوجته.. فقد غرس فى نفسه المريضة وفى ضميره المعتل أن ذلك هو الحل الأمثل الذى سيحقق له السعادة ويجلبها بين أحضانه.. صوّر له شيطانه أنها تحبه.. وأن أخاه هو الحائل بين أن ترتدى فى أحضانه معلنة حبه الذى يحتل قلبها.. وأن الفكرة التى طرحتها للزواج من أختها كانت لمجرد اختبار حبه لها.. وأنه كان عليه أن يعلن لها فى تلك اللحظة أنها هي التى تحتل قلبه.. وتملك أحاسيسه.. وتستحوذ على فكره.

سمع نداء الشيطان ولباه.. قتل أخيه هو المفتاح السحرى الذى سيفتح له أبواب السعادة.. هو الذى سيدخله إلى جنة قلبها.. بل سيظهر أمام الجميع مظهر الشاب الشهم الذى لم ينس فضل أخيه عليه وعلى الأسرة.. فتزوَّجها لمّا لشمّل الأسرة ووفاء وردًا لجميل..

ودوى نداء الشيطان فى أذنيه.. لاحقها حتى أصمها فلا تسمع إلا نداءه.. وأغلق على ضميره ونحاه بعيداً عنه وشلّ فكره فأضحى بلا أذن تسمع.. بلا

ضمير يحاسب.. بلا فكر يقدّر ويدبّر.. قاده الشيطان مغيبًا، حيث المخبز الذى يعمل فيه أخوه.

انتظره ليلاً حتى انتهى من عمله فى مكان مظلم داخل إحدى حجرات الفرن بعد انصراف العمال وانقضى عليه بساطور وظلّ ينهال عليه به حتى تيقن من وفاته.. لم يتحرك قلبه الذى تحجّر كالصخر وهو يسمع صرخات شقيقه ويستعطفه وينظر إليه فى استغراب وحسرة.. نظرة الوداع وهو يتعجب ولا يصدق ما يرى.. وهو يردد كلماته الأخيرة.. مش معقول!! مش معقول.. انت!

حتى دماؤه التى نزت أنهاراً لم تشفع لدى نفسه المريضة ولا عينيه التى أصابها العمى.

وفى لحظة كان الشقيق الأكبر يلفظ أنفاسه الأخيرة تشبث ممسكاً بأخيه.. محتضناً إياه آخر أحضانه ربما أراد أن يذكره فلربما شفعت الذكرى له وحالت دون استمراره فى فعلته.. ولكن دون جدوى.. كيف كانت الحياة بينهما بالأحضان ونزع الأخ وهو ينازع سكرات الموت كم قميص أخيه القاتل وسقط على الأرض وهو مازال متشبثاً ممسكاً به وانصرف ومعه الشيطان دون وعى أو شعور، فقد حقق جزءاً من خطته وهو لا يعي أنه قد ترك الدليل المادى على فعلته.. كم قميصه الذى مازال فى يد أخيه قابضاً عليه ملوثاً بدماء أخيه.

وعاد إلى المنزل وكأن شيئاً لم يحدث، وقام بتغيير ملابسه وأعاد إليه

إبليس الأمل بعد أن تخلّص من شقيقه عليه أن يشكره لأنّه هداه إلى طريق السعادة.. الآن أصبح الطريق خاليًا له مع زوجة أخيه.

واكتشف الأب والعمال في المخبز الجريمة صباح اليوم التالي، وكاد يصاب بالجنون، من القاتل؟ وما الدافع إلى ذلك.. وما زاد من حزنه أنّه محبوب من الجميع وليس له أعداء.

وبكى الابن الأصغر على مصرع أخيه، كانت دموع التماسيح تغيّمًا على فعلته الشنعاء.. فما زال إبليس يلاحقه ويخطّط له ويرسم له معالم الطريق.

واستبدت به البجاجة وهو يعلن على قبره لحظة إيداعه مثواه الأخير.. أنّه لن يترك القاتل سيتعقبه حتى يثأر منه.. وأنّه لن يغمض له جفن أو تقرّ له عين قبل أن يتوصّل إليه ويقتصّ منه مهما كلفه ذلك من ثمن.

نشطت المباحث في جمع التحريات وأطلقت عيونها في كل الأماكن التي تحيط بالحادث، في الفرن، في الشارع الذي يسكن فيه القتل.. عثر رجال الشرطة فور انتقالهم إلى مسرح الحادث على القتل ممسكًا بكم القميص بين أنامله ملوثًا بالدماء، عرضت هذا الكم على عمال الفرن الذين أكدوا أنّه كم القميص الذي كان يرتديه شقيقه ليلة الحادث.. وتمت مواجهته بهذا الدليل وعلة وجوده في قبضة أخيه فلم يستطع أن يقدم تبريرًا لذلك ولم يجد أمامه وقد حاصرته الأدلة سوى الاعتراف بجريمته.. روى

تحالفه مع الشيطان وصفقته مع إبليس وكيف أنَّ نار الغيرة من شقيقه حرقت قلبه ونهشت فكره وأماتت ضميره.. وأشعلت النيران بداخله، وسرت في كل عروقه مسرى الدم.

كان كلما أغلق شقيقه باب غرفة النوم مع زوجته تشتعل فيه النيران.. ويزداد لهيبها اشتعالاً.. داخل نفسه السقيمة وقلبه المريض وفكره العليل.

وهداه تفكيره السقيم وخياله العقيم إلى التخلص منه بعد أن أقنعه الشيطان أنَّ أخاه هو العقبة الوحيدة في طريق الوصول إلى قلب زوجته.. إنَّ قتله هو الحل الوحيد والطريق الذى لا بديل عنه للاستحواذ عليها.

وأمام اعترافه وموت ضميره وبشاعة فعلته وتدنى فكره حكمت محكمة الجنايات بإعدامه شنقاً.

كانت تلك الصورة التى وضعها الأب أمامى من واقع الأحداث التى عاصرها وعصرته.. وسطّرت فى أوراق القضية التى قدّم صورة منها لى، وطلب منى مستعظماً كأب للقاتل والقتيل.. الدفاع عن ابنه القاتل جاء حانئاً باكياً متكئاً على عصى.. وقد ترك هول الصدمة ووقعها على جسده الهزيل فبات مرتجفاً.. مرتعشاً.. شاردًا.. شاخصاً ببصره.. سابحاً في بحر من الظلمات.. لا أمل في النجاة منه.

أهم ما استوقف نظرى وهزّ مشاعرى وسبح فيه خيالى أمران.

أولهما: أنَّ قصة قابيل وهابيل تعيد نفسها من جديد بصورة عصرية وبشكل

أكثر وحشية وبأسلوب أكبر تدنيًا وسقوطًا.. كانت الخيانة في أبشع صورها هي البئر التي سقط فيها الأخ.

وكدت أرفض الدعوى لولا تلك الدموع التي كانت تنساب بلا حساب من عيني الرجل، وهو يتوسل إلى ويستعطفني حتى لا يفقد ابنه الثاني وهو يرفع وجهه وكفيه إلى السماء داعيًا الله أن يعجل بحياته وأن يرحمه من هذا العذاب المقيم.

ثانيًا: فقد أحسست وأنا أتابع اعتراف الابن القاتل بين سطور القضية.. أن الصورة قاتمة.. صورة الدليل بالنسبة له بل صورته كابن مدلل ومتعلم.. كانت أكثر إظلامًا وهو يعترف بكل جرأة ووقاحة أنه قتل شقيقه من أجل حب زوجته وحتى يزيحه من طريقه ويخلو له الجو معها.. لقد هانت عليه روح شقيقه واستباح دمه في مقابل نزوة وشهوة جسد استبدت بفكره المريض وضميره الميت وأحاسيسه المتحجرة، خصوصًا أن تحريرات المباحث أكدت استقامة الزوجة وأن ما كان يجول في فكره من حب وهيام بها ما خطر لها ببال ولا ورد لها بفكر وأنه كان غارقًا في تخیلات وأوهام هو المسئول عنها بعيدة عن الصحة منفصلة تمامًا عن العقل والواقع والمنطق.

ووسط هذا الظلام الذي أحاط بالدليل وبظروف القضية ووقائعها وأحداثها ظهر لي بصيص من الأمل وأنا أطلع أسباب الحكم الذي قضى بإعدامه لعلّي أجد فيها من الأسباب ما ينقضه، أملًا في إعادة محاكمته

خصوصاً وأنّ الدفاع الذى حضر معه قد قصر دفاعه على طلب استعمال الرأفة.

تبين لى من أسباب الحكم أنّه لم يدلل استقلالاً على نية القتل وهو بذاته سبب كافٍ لنقض الحكم.

وأوردت فى أسباب الطعن أنّ جرائم القتل من الجرائم ذات القصد الخاص الذى يتعين أن يدلل عليه استقلالاً فى الحكم.. ألا وهو نية القتل.. وأنّه يتعين لسلامة الحكم أن يدلل على هذه النية استقلالاً وأن يورد من الأدلة أنّ المتهم عندما اعتدى على المجنى عليه لم يقف عند القصد العام.. وهو قصد المساس بجسده وإنما تعدّاه إلى ما هو أبعد من ذلك وهو القصد الخاص.. أى قصد إزهاق روحه.

وأوردت أيضاً كسبب آخر أنّ الدفاع الحاضر مع المتهم قد اكتفى بطلب استعمال الرأفة فحسب وهو دفاع قاصر لا يحقق الغاية التى تغياها المشرع الدستورى والإجرائى فى أنّه لا بد أن يكون مع المتهم فى جناية أمام محكمة الجنايات محام على درجة من القيد لا تقل عن ابتدائى ليدافع عنه دفاعاً جدياً لا شكلياً ينبى أنّه ألمّ بظروف الدعوى وملابساتها، وارتفاع مرافعة جدية لا شكلية نظراً لما للاتهام بجناية من أمر له خطره وخطورته.. وتلك الغاية والحكمة التى تطلبها المشرع الدستورى والإجرائى لا تؤتى ثمرتها ولا تتحقق غايتها أمام تلك الكليّات القاصرات فى محضر جلسة المحاكمة من أنّ الدفاع طلب استعمال الرأفة. وأخذت محكمة النقض بهذه الأسباب

وقضت بنقض الحكم أمام دائرة جديدة.

وأمام بكاء الأب وتوسلاته اهتزَّ وجداني لحال هذا الأب وما حلَّ به
من كارثة تنوء عن حملها الجبال ابن قتل بيد أخيه الابن الآخر الذي سيعدم.
ولم أجد بداً غير الاستجابة لرجائه رحمة بأب شاء القدر أن يضعه في
هذا الموقف الأليم.

وكان يوم إعادة المحاكمة..

ومنذ الوهلة الأولى التى اعتلت هيئة المحكمة المنصة رمقه
المستشارون بأعينهم وهو قابع خلف القضبان أحسست أنَّهم يرون فيه
الذئب الغادر الذى لا يتورَّع أن ينهش أقرب الناس إليه أحسست أنَّهم يرون
فيه صورة مجسمة للخسة والندالة وانعدام الضمير.

وتبين لى اشمئزاز أعضاء الدائرة من هيئته وشكله وصورته.. وبان لى
ذلك أكثر وضوحاً أثناء توجيه رئيس الدائرة الأسئلة إلى المتهم:

- انت متهم بقتل شقيقك واعترفت فى النيابة..

فتلعثم فى الإجابة

وعلا صوت رئيس المحكمة..

- لقد اعترفت بأنك قتلته طمعاً فى الزواج من زوجته.

فانهمر فى البكاء ولم يحس أحد ببيكائه.. ولم يجد نحيبه طريقاً إلى القلوب

المستنكرة لفعلته الراضة لمجرد إعطائه أملاً في إعادة محاكمته.

وطلب رئيس الدائرة منى المرافعة..

فطلبت من الهيئة أن يتسع صدرها وتسمع أقوال والده بناء على رغبته وإصراره في الحديث إليه.

وسمحت المحكمة للأب في أن يتحدث ونادت عليه..

تقدم إلى المنصة هزلاً مهموماً يكسو الحزن وجهه، وقد خارت قواه وعجزت ساقاه عن حمله فحضر محملاً على الأكتاف.. أشعث.. خفيض الصوت وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة.. كان صوته باكياً وحديثه نابغاً من القلب قال بصوت متحشرج وكأنه يخاطب ملك الموت..

- القضية كلها ممكن أقولها في كلمة واحدة..

أنا الضحية.. أنا الذبيحة التي ذبحتها سكين الأيام بلا شفقة ولا هوادة ولا رحمة.. وشخص ببصره وكأنه يستعرض شريطاً لهذا الكابوس، لهذه المصائب المجتمعة التي هوت على رأسه كالمطرقة.. ابن قتل وابن آخر سيقتل باسم القانون.. سقط على الأرض.. خيل للجميع لحظتها أنه فارق الحياة وغادر الدنيا حتى لا تواصل الحياة تسديد طعناتها إلى قلبه الدامي المشخن بالجراح ورفعوه بصعوبة وهو يقول:

- اعدموني أنا وبلاش ابني.. حياتي لم يعد لها ثمن لولا أن الانتحار حرّمه الله لانتحرت.. واسترحت من هذه الحياة القاسية.. ما قيمة الحياة

عندما يفقد الإنسان أعز ما يملك «ابنيه» إنَّ الموت هو الراحة الحقيقية لى.. أنا المجنى عليه الحقيقى فى كل ما حدث.. فى هذا السيناريو المفزع.. أرجو وأتوسَّل لكل واحد منكم أن يرى نفسه مكانى.. أن يعانى آلامى.. أن يرى دموعى التى تنهمر ليلاً ونهاراً حتى أشدَّ أنواع المهدئات والمنومات فقدت مفعولها معى.. أنا راضٍ بحكمكم.. هل سيحس بعد ذلك بأى طعم للحياة.. أنا الحى الميت بل الميت فعلاً تصوروا أنَّ كل أحلامى وآمالى راحت أدراج الرياح وكل شقاء سنوات عمرى اختطفه الشيطان فى لحظة! فلماذا أعيش؟ وما فائدة الحياة.. ثم توقف عن الكلام، ورفع يديه إلى السماء يناجى ربه مستغيثاً فى صوت جهورى.. وقال: اللهم لا اعتراض على حكمك.. إنى مؤمن بقضائك وقدرك ومتحمل لكل العذاب والألم الذى حلَّ بى.

ثم التفت إلى طفلتين كانتا كزهرتين ذابلتين، وقد كسا وجههما الحزن والذلة والانكسار.. كانتا تجلسان فى الصف الأخير فنادى عليهما وبان من ملامحهما الأسى والهم والحزن والانكسار وهو يناشد رئيس المحكمة:

- «البنتين دول بنات ابنى اللى اتقتل وعمهما هو اللى محكوم عليه بالإعدام».

وأجهش الرجل فى بكاء عميق وهو يردد فى أسى وحسرة.

- أنا حاسس إنَّ أيامى فى الحياة معدودة.. من سيفق على البنتين دول؟.

مين يريهم؟ مين يراعيهم؟ الحكم بإعدام ابني إعدام لى وللبنتين دول.. ما مصيرهما وزاد إجهاشا بالبكاء.. الشارع طبعاً.. حيشحتوا أو ينحرفوا.. أو.. وتوقف لبرهة وهو يجهدش في البكاء على نحو أدمى قلوب الحاضرين وهزّ مشاعرهم خاصة بعد أن انهمرت دموع الطفلتين في بكاء متواصل.. وإذا مت مين يدفننى؟..

ظلّ الأب يتحدّث من قلبه ما يقرب من نصف ساعة، صمت الحاضرون جميعاً.. المستشارون والمحامون والجمهور والمتهمون القابعون في قفص الاتهام وهم ينصتون إلى هذا النغم الحزين لصوت القلب قبل أن يكون صوت اللسان.

كان الجميع مشدوهاً وكأنّهم يشاهدون تراجيديا مأساوية الأحداث جسّدها الأب.. وصوّر سيناريو أحداثها وكأنّهم يرونها رؤيا العين.. بل إنّ البعض من الحاضرين.. دمعت أعينهم.. إشفافاً على حال الأب وتعاطفاً معه.. أحسّوا أنّه الضحية الحقيقية لكل هذه الأحداث..

أحسست أنّ تأثراً واضحاً على وجوه أعضاء الدائرة، وقد بات واضحاً في عيونهم ذلك، بل لقد تأثرت أنا شخصياً بحديث الأب، فقد كان نابعاً من القلب هزّ وجداني ونفذ إلى أعماق قلبي واستولى على فكري واستحوذ على مشاعري.

كان حديث الرجل وطريقة أدائه ينفطر لها القلب.. أحسّ الجميع بمأساته التي استقرّت صورتها في وجدانهم.

وفي غمرة هذا المشهد المأساوي طلب منى رئيس الدائرة من فرط انفعاله وتأثره أن آخذ الرجل وأخرج به إلى خارج القاعة، فقد فهموا مضمون الرسالة وأدركوا فحواها.

ورفع رئيس المحكمة الجلسة بعد هذا الحديث الدامي من الأب. فما عاد أحد في القاعة قادرًا على أن يصمت أمام دموع الأب أو يغالب هذه الدموع التي بدأت تجد لها طريقًا على خدود الحاضرين. أحسست في فترة الاستراحة براحة عميقة، فتلك هي مهمة المحامي في كيفية تحريك وجدان المحكمة وفنية كيفية الوصول إلى مشاعرها. وقطع هذا الصمت صوت الحاجب..

- فتحت الجلسة..

بدأت مرافعتي قائلاً:

إنَّ الأصل في الشريعة الإسلامية وهي أصل للتشريع وفقاً للدستور أنَّها فرقت بين جرائم الحدود وجرائم النفس، فجرائم الحدود حق خالص لله يغلب فيها حق الرب على حق العبد.. لا شفاعاة فيها.. ولا يرد عليها الصلح أو العفو.. أو الدية.. أما في جرائم النفس فحق الفرد يغلب فيها على حق الرب إذ إنَّ علَّة العقاب فيها هو إشفاء غيظ المجنى عليه إعمالاً لقوله تعالى.. في سورة الإسراء ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا﴾.. أى (ولى الدم) وقوله تعالى: في سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ

وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُنِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلْيَبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّيِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۖ

وإعمالاً للآيتين الكريمتين فإنّ ولى الدم له أن يعفو أو يتصالح أو يتنازل أو يقبل الدية على نحو يمتنع معه ويأجماع آراء الفقهاء القصاص شرعاً لأننا أمام نص معلوم في الدين بالضرورة أوردته الله لحكمة بالغة أنّه تخفيف ورحمة من الله.

وها هو الأب ولى الدم شرعاً يقف أمامكم.. يلوذ بمحرابكم العادل في أن ترحموا شيخوخته.. أن تتسلوه من عذابه.. أن تهونوا عليه فداحة المأساة.. ألا يفقد ابنه الاثنين في وقت واحد.. استجيبوا لصرخاته.. لرجائه.. لتوسلاته.. ودعواته لله في أن يرحمه من هذا العذاب المقيم.. أنقذوا ابنه الآخر فذلك حكم الله ومن أحسن من الله حكماً عندما أورد في كتابه الكريم.. ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّيِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.. حديثاً لا ريب فيه ولا مرأى من أن ولى الدم إذا عفا فلا بد أن نأخذ بعفوه، فهو التخفيف من الله الذى يتعين له أن تفتح له كل الأبواب، والقول بغير ذلك إغلاق لباب الرحمة الذى فتحه الله وأوجب العمل به إنقاذاً لهذه الأسرة الأب.. والبنتين قبل المتهم.. إنهم المجنى عليه الحقيقيون كما جاء في حديث الأب العفوى، وهو حديث يعجز أبلغ الكتّاب في أن يصوروه.. وأبرع الممثلين في أن يؤدوه ولكنه صورته بعفوية لأنه حديث القلب بلا زينة ولا رتوش.

ورفعت الجلسة.. وران الصمت على القاعة.. الكل ينتظر سماع حكم

المحكمة.

وتباينت الآراء توقعًا للحكم.. واختلفوا في قدر العقوبة التي ستوقعها المحكمة

وقطع هذا الجدل صوت الحاجب من جديد..

- محكمة..

ووجه رئيس المحكمة قبل النطق بالحكم حديثه للمتهم مؤنبًا وموبخًا ومستهجنًا فعلته:

- أنت مستهشش أى رحمة.. إنَّ جريمتك لا تطهرها مياه المحيطات..
إذا كنا استعملنا الرأفة معاك عشان أبوك وولاد أخوك البنيتين.
ونطق بالحكم..

حكمت المحكمة حضوريًا بمعاقبة المتهم بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات.

ومرّت الأيام سريعًا.. مضى ما يقرب من عامين عندما طرق باب مكتبى الأب.. كان مبتسمًا سعيدًا حليق الذقن.. منتصب القامة، وقد تحلّى بثوب ناصع البياض وهو يتأبط ذراع ابنه بعد أن أفرج عنه بمناسبة عيد الفطر بعد قضاء ثلاثة أرباع المدة جاء لشكرى بعد الإفراج عنه..

ما أغرب القدر وقدرته على إسدال ستائر النسيان على الماضى.. لقد نسى

الرجل مقتل ابنه في غمرة الفرح بنجاة الابن الثانى من حبل المشنقة.. وسأله على استحياء ما حال الزوجة بعد مقتل زوجها.. كان جوابه غريباً.. كان يعرض بنان الندم ويعتصر الحزن والأسى كلماته.. وهو يتردد في الإجابة..

مش عايز أسمع سيرتها.. وأعدت المحاولة أستدرجه وأستنطقه ما يختزنه داخل خزينة نفسه..

ألم تحاول أن تتصل بك بعد الحادث..

سرح لبرهة وأحسَّ أنَّ من حقى أن أقف على الحقيقة كاملة.. وقد عاصرت كافة أحداث القضية التي كان لابد للوقوف على نهايتها من معرفة حقيقة هذه المرأة..

أجاب..

بعد اتهامى في القضية وانقضاء عدتها بعدة أيام تزوّجت من ابن الجيران.. وسافرت معه إلى أحد بلدان النفط تاركة بنتيها لافطة حياتها السابقة ونبذتها وراء ظهرها..

راودته وساوس الشيطان وهو في سجنه ينتظر حكم الإعدام أنَّ علاقة كانت تربطها بهذا الفتى الذى تزوّجته، أنَّها هي التي رسمت وخططت وفتحت له أبواب الشيطان كي يخلو لها الجو مع هذا الشاب.. راودتنى فكرة الانتقام منها.. انتظرت لحظة الإفراج عنى بعد الحكم الأخير لتنفيذ ذلك..

وقطعت عليه حديثه بسؤالى..

وما الذى حال دون ذلك؟

أجاب.. بعفوية وبلا تفكير..

مشهد والدى فى المحكمة كان هو العاصم الذى حال بينى وبين الاستجابة لنداء الشيطان.. كان لابد أن أطرده إبليس من حياتى.. أن أتجه إلى الله.. أن أوفر لوالدى وابنتى الراحة والأمن والأمان..

عاهدنى أن يصبر ويداوم على ندمه على ما فات.. وأن ينسى الماضى بكل آلامه وأحلامه وأن يفكر فى مستقبله لابد أن يبدأ من جديد ويستغفر الله ويندم على ما فات وذكرته بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾..

وسار قطار العمر ومرّت سنون عندما كنت أترافع فى قضية فى أحد بلدان الصعيد رأيت شاباً يلبس وشاح المحاماة وترافع فى ثقة وإقناع وإمام وإيمان بقضيته..

قدم إلى مصافحاً معانقاً مؤكداً أن كلماتى له مازالت ترن فى أذنيه لا تفارقهما كانت حافزاً ودافعاً فى أن يبدأ من جديد.. فى أن يبدد ظلمات الطريق المجهول.. الذى أسلم نفسه للسير فيه.. صمّم وجداً فى تصميمه وحصل على ليسانس الحقوق وآثر أن يعمل فى مهنة المحاماة التى أقسم أنه أحبها بسببى.. وأصرّ على أن يفضى إلى بأسرار حياته الخاصة.. لقد تزوّج من زميلة محامية وأنجب ولدين هما كل حياته.. دنياه.. أملته فى حاضره

ومستقبله.

أما زوجة أخيه فقد طلقها زوجها بعد أن شكَّ في سلوكها معلناً أنَّ حبْل
الخيانة لا ينقطع.. وتنهد في حسرة فقد سارت في طريق الرذيلة.. بعد أن
عقدت صفقة مع إبليس.. وتم ضبطها وقدمت للمحاكمة ونالت جزاءها.
ودعنى بعد هذه الكلمات بالقبلات والأحضان وهو يردد أنه القدر لا
يمكن لأى منا الهروب منه.. فهل يملك النهر تغييراً لمجراه؟!

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو تقة

المحامي بالنقض

القضية السابعة

نصابون لكن ظرفاء



■ ■ نصابون لكن ظرفاء

أحداث هذه القضية متعددة الفصول لم تحدث وقائعها كما هو الحال في القضايا الجنائية دفعة واحدة.. وإنما تعددت فيها المواقف على نحو جعل من كل موقف منها حدثاً مثيراً شكّل في ذاته قضية كاملة.. فالأحداث وإن ربط بينها ووحدها أشخاصها إلا أنّ أحداثها مغايرة مختلفة الخيال فيها أقرب من الواقع.

كانت بداية لقائي بأحداثها في بداية الستينيات عندما كنت وكيلاً لنيابة الجيزة الكلية أجلس في مكتب رئيس النيابة والذي كانت له سلطات المحامي العام في ذلك الوقت عندما كان زميل لي يعرض قضية قتل اتهم فيها مهندس -يعمل مديراً في أحد المصانع الكبرى بأحد مراكز الجيزة- بقتل زوجته الشابة.

كانت وقائع الجريمة وأدلتها مثيرة للحيرة، فقد تضمّنت حسب عرض زميلي لها أنّ زوجته عثر عليها مقتولة داخل شقتها الفاخرة في إحدى العمارات الشاهقة أمام حديقة



حيوان الجيزة، حيث فوجئت الخادمة عند عودتها عقب شراء بعض الحاجيات ومتطلبات المنزل بها غارقة في دمائها.. وهو ما قررته بالتحقيقات وأنها لا تعلم شيئاً عن الجريمة أو دوافعها أو الجاني، إذ وقعت في غيبتها، وأضافت أن باب الشقة كان مفتوحاً على غير العادة وأنها صرخت مستغيثة بمجرد رؤيتها هذا المشهد البشع الذي ما كان يخطر لها ببال أو يجول لها بحسبان.

وبانتقال الشرطة فور إبلاغ أحد الجيران بالحادث ومعاينة مسرح الجريمة تبين أنها مصابة بعدة طعنات نافذة إلى صدرها وقلبها.. وما أثار الغرابة أنه بتفتيش دولا ب ملابسها تبين أن مصوغاتها ومجوهراتها لم تمسسها يد ولم تتعرض للسرقة حتى أساورها الذهبية ودبلة الزواج وخاتم ثمين من الماس كانت في يدها.. كما أنه لم يتبين سرقة أى من محتويات الشقة، مما رجح أن جريمة القتل لم تكن بقصد السرقة.. وأثار العديد من التساؤلات عن الباعث الحقيقي لارتكابها.

ونشطت التحريات وانتهت إلى صحة ما سرده وأن ما قررته من أقوال هو الحقيقة وأنها ليس لها أي يد في أحداث الجريمة.. غير أن أصابع الاتهام أشارت إلى الزوج.. وأنه هو الذي دبّر جريمته بإحكام، وما عزز هذه التحريات وعضدها وقوى من شأنها ما أشارت إليه من باعث ودافع لقتلها، إذ كشفت التحريات عن وجود علاقة أئمة وحب قديم كان يربط بينه وبين سيدة أخرى، وأنها تزوجت وعاشت مع زوجها الذي اصطحبها إلى أحد

بلدان النفط تزوّجته طمعاً في ماله، إلا أنّه قد توفي مؤخراً، وما إن عادت إلى القاهرة حتى سارعت بالاتصال به إحياء لعلاقتها القديمة وسال لعبه أمام ثرائها وما تكتنزه من أموال ثمناً لهذه الزيجة من ذلك الكهل الذى استبدّ به المرض، وقد تأكد عودة هذه العلاقة ولقاءاتهما المستمرة في شقتها التي ورثتها عن المرحوم.. ولكن السؤال المحير ما الذى يدفع الزوج إلى أن يغامر بمركزه ومستقبله بل وحياته ليرتكب جريمة قتل زوجته، إذ إنّ في إمكانه أن يطلقها ليعود إلى ماضيه الذى يجد فيه المتعة ولذة الحياة.

غير أنه ما لبث أن تراجع هذا الشك أمام ما ثبت من اطلاع وكيل النيابة المحقق على دفتر الحضور والانصراف فتبيّن أنّه حضر ووقع الساعة الثامنة والدقيقة الرابعة وأنّه انصرف ووقع فور علمه بالحادث الساعة الواحدة ودقيقتين.. كما تبين أنّ بروتوكول ونظام المصنع الذى يعمل فيه يفرض على أي موظف أو عامل مهما كان مركزه بعد دخوله المصنع عدم الانصراف أو الخروج إلا بتصريح يسجل بدفتر البوابة الذى يلزم الجميع بالتوقيع فيه ويثبت ساعة ودقيقة الحضور وكذلك الحال بالنسبة للانصراف.

ولكن ما استوقف النظر ما انتهت إليه التحريات حسبما عرض الزميل لأحداث القضية أنّها كانت دميمة بدينة فاتها قطار الزواج عندما تزوّجها.. وأنّه ضعيف الشخصية أمام زوجته وأسرته، فقد كانت من أسرة لها جبروتها وسطوتها، كما أنّ زوجته كانت قوية الشخصية شديدة البأس مسموعة الكلمة لا يستطيع أن يرد لها قولاً أو يعصى لها أمراً.. كان مقهوراً مغلوباً على

أمره يحس في أعماقه بالذل والانكسار والمهانة والندامة لزواجه منها.. فقد تزوّجها في لحظة يأس بعد زواج محبوبته وسفرها مع زوجها.. كان يتذكر من حين لآخر الأيام الخوالي التي عاشها عاشقاً ولهاًناً مدلاً من محبوبته ملكاً متوجاً على عرش جهما.. كانت تلك أحاديثه كلما خلا لنفسه لائماً ومعاتباً ومحاسباً على تلك الزيجة التي قذفت به في قفص موصد بين قضبان من الذل والمهانة.. كان لا يمل الشكوى إلى أصدقائه المقربين طالباً منهم النصيح والتفكير معه في مخرج من هذه الورطة.. كان يجد في شكواه لهم متنفساً يخرج ما يؤرق فكره من سوء معاملة زوجته وأسرته له وكم نصحه أصدقاؤه بأنّ الحل الوحيد كى يخرج من هذا السجن هو طلاقها.. لكنّ العقبة التي كانت تحول بينه وبين ذلك هو مؤخر الصداق الكبير الذى التزم به، هذا فضلاً عن شيكات وقعتها على بياض كانت تهدده دائماً بها.

كانت القضية على نحو ما سلف من عرض الزميل.. خالية من أى دليل معتبر سوى قولة مرسلة لا ترقى إلى مرتبة الدليل الذى يصلح كأساس للإدانة.. إذ من المسلمات أنّ الأدلة المعتبرة التي تصلح أساساً للإقناع الجنائى الذى تبنى عليه الإدانة إما قولية أو فنية أو مادية.

كما أنّه من المبادئ المستقرة فقهاً وقضاء أنّ الدليل الجنائى يبنى بالجزم واليقين ولا يبنى على الظنون والشكوك والافتراضات. وأنّ التحريات مهما كانت قوتها لا ترقى إلى مرتبة الدليل الذى يصلح منفرداً كأساس للإدانة.. ولما كان من اللازم على نحو ما سلف أن نكون أمام دليل واحد على

الأقل من الأدلة المعتبرة كاعتراف المتهم على نفسه أو آخر عليه أو شاهد رؤية للواقعة أو دليل مادي.. خاصة أن السكين المضبوط في مكان الحادث قد تم رفع البصمات من عليه بمعرفة الأدلة الجنائية وتبين خلوه من أى بصمة وهو ما يؤكد ويفيد أن القاتل إما أنه كان يرتدى «جاونتى» أو تعمّد مسح البصمات بعد أن ارتكب الواقعة وترك السكين أو ألقى سكيناً آخر بعد ان احتفظ بالسكين أداة الجريمة ليضلّل العدالة.

وكان رأى زميلي وكيل النيابة الذى حقّق القضية وقام بعرضها على النحو السالف، وقد خلت القضية من دليل.. إصدار قرار بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية قبل المهندس الزوج لعدم كفاية الأدلة «أى حفظها».. وتكليف الشرطة بالبحث عن القاتل الحقيقي.

وفى تلك الأثناء التى أمسك فيها رئيس النيابة بقلمه وهمّ بالتأشير بتأييد ما انتهى إليه وكيل النيابة تأسيساً على ما سلف.. قطع ذلك دخول أحد كبار رجال القضاء، حيث همّ رئيس النيابة باستقباله فانصرفت أنا وزميلي حتى صباح اليوم التالى ليصدر تأشيرته.

وتشاء الأقدار أن يصاب زميلي فى اليوم التالى بمغص كلوى حاد وتم نقله إلى المستشفى، حيث أجريت له عملية جراحية «مرارة» حصل معها على إجازة مرضية لمدة شهر، فأحال رئيس النيابة القضية إلىّ للتصرف وطلب منى أن أعد قراراً فى قضية زميلي المريض سألقة الذكر التى سبق عرضها عليه «قراراً بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية لعدم كفاية الأدلة».

كان على أن أقرأ أوراقها ملياً.. انتهى بي إلى ضرورة استيفاء التحقيقات للتحقق من عملية دخول وخروج المهندس من بوابة المصنع وقوفاً عما إذا كان قد حضر وانصرف في اليوم نفسه الذي وقعت فيه الجريمة وفقاً لما ثبت في دفتری الحضور والانصراف، غير أن رئيس النيابة بادرني وأنا أعرض عليه وجهة نظري بأن وكيل النيابة المحقق سبق أن اطلع على الدفترين وتبين منهما توقيع المتهم أمام ساعة الحضور وتوقيعه أيضاً أمام ساعة الانصراف، وهنا عرضت وجهة نظري المخالفة وفحواها والأساس الذي كوّنت عليه عقيدتها في هذا الخصوص من التحقيقات قد جاءت قاصرة من التثبت على نحو يقيني أن التوقيع بالحضور والانصراف - هما للمتهم، وهو ما لا يمكن القطع به إلا بتحقيقه فنياً عن طريق الطب الشرعي «قسم الأبحاث والتزييف» لإجراء مضاهاة بين توقيع المتهم وبين التوقيع المنسوب إليه بدفتری الحضور والانصراف.

ففكر برهة يقلب فيها هذا الرأي وسبح وكأنه يضع هذا الرأي على ميزان العقل والمنطق فانساب، حيث أصدر قراره باستيفاء التحقيقات على النحو الذي انتهت إليه.

وقال باسمًا.. «على العموم الاستيفاء مش حيزر.. لما نشوف النتيجة».

كان واضحاً من هذه الكلمات وما استشعرته من طريقة أدائها وما لمحته في عينيه أنه غير مقتنع تماماً بالنتيجة وأنها تحصيل حاصل وأن التقرير الفني سينتهي إلى أن التوقيع توقيع المتهم.

وبالفعل تم الاستيقاء المطلوب وأرسل المتهم ودفترى الحضور والانصراف إلى الطب الشرعى «قسم الأبحاث والتزييف» لبيان عما إذا كانا متطابقين من عدمه، «أى لشخص واحد أم لشخصين».

وكانت المفاجأة التى أكدت صدق توقعى، وقد تعلّمت من هذه الواقعة أن على رجل القانون سواء أكان محققاً أو قاضياً أو مدافعاً - ألا يصادر على المطلوب ويستهن بتحقيق واقعة مهما قدر عدم جدواها لما فى ذلك من حكم سبق على دليل قبل أن ينحسم أمره بتحقيقه خاصة إذا كان الأمر يتعلّق بمسألة فنية بحثة لا يستطيع أن يقول قائله فيها غير أربابه من المختصين فنياً كل فى مجاله - إذ لا يمكن التنبؤ سلفاً بما تسفر عنه نتيجة تحقيق الدليل والرأى الذى من الممكن أن يتخذ بناء على ما يسفر عنه.

لقد أثبت إجراء المضاهاة أن التوقيع المنسوب للمتهم على دفترى الحضور والانصراف ليس توقيعه.

وإزاء هذه المفاجأة قمت باستدعاء موظف الاستعلامات بالمصنع المسئول عن دفترى الحضور والانصراف فى يوم الواقعة.. وواجهته بهذا الدليل الجديد.. فلم يملك غير الاعتراف بأن الخط المنسوب إلى المتهم فى الدفترين خطه هو.. وأضاف أن المتهم هو الذى طلب منه التوقيع بدلاً منه لأنّه لن يحضر فى هذا اليوم، إذ لديه أمر مهم يريد أن ينهيه، وألح عليه فى ذلك وأصرّ على أن يكون الأمر سرّاً بينهما لا يعلم به أحد، وأقسم الموظف أنّه لم

يكن يدرى ما وراء ذلك، ولم يكن يعرف أنَّ هناك جريمة سوف ترتكب تحت ستار هذه المجاملة التى قام بها له خاصة وأنَّه رئيسه بالعمل وله سلطان أدبى عليه.

كان من موجبات فن التحقيق استدعاء المتهم ومواجهته بهذا الدليل الجديد فانهار واكفهر وجهه وكسته صفرة واضحة وأصبح فجأة كالعود الذابل المترنح ثم سقط على الأرض وأجهش فى البكاء.

وطلبت منه أن يقدم تفسيراً أو تبريراً لما سلف، ولكنه عجز، واعتصم بالبكاء والانكار.

وكان لا بد من المسير فى الطريق حتى نهايته تجميعاً لأدلة أخرى حتى نهايته.. فاستدعيت الخادمة التى نفت أقوال المتهم تماماً، وأكدت أنَّها لم تتصل به فى عمله، حيث ذكر ذلك فى بداية التحقيقات من أنَّه علم بالحادث من بلاغ الخادمة.. وأصرَّت على أنَّه قد حضر بعد حضور الشرطة بدقائق ولا تعلم من الذى أخبره بالحادث.

فاستدعيت المتهم وسألته مجدداً: كيف علمت بالحادث؟

فأجاب بأنَّ الشغالة هى التى اتصلت به فى العمل وأخبرته بالحادث.

فواجهته بإنكار الخادمة، وأنَّها لم تحدِّثه تليفونياً بالحادث إذ أنَّه لم يكن موجوداً أصلاً فى العمل يوم الحادث، فازداد اضطراباً وعصبية وإجهاشاً فى البكاء مردداً عبارة «مظلوم ... مظلوم».

وبانتهاء ما سلف من نتائج وتحقيقات عرضت القضية بأحداثها الجديدة على رئيس النيابة الذى ذهل من النتائج التى أسفرت عنها التحقيقات.

وقال لى بالحرف الواحد: «كان عندك بعد نظر ومعاك حق.. ودم المجنى عليها كان سيضيع هدراً».

فشكرته على هذه الإرهاصة، وكنت قد أعددت قائمة بأدلة الثبوت قبل المتهم وقيداً ووصفاً جديداً للتهمة الموجهة إليه وهى القتل العمد مع سبق الإصرار فوافق على ذلك، وأصدر قراراً بإحالة المتهم إلى محكمة الجنايات بالقيّد والوصف الجديد للتهمة قبله.

وبجلسة المحاكمة حضرت ممثلاً للنياية وترافعت فى الدعوى وطلبت معاقبته بأقصى العقوبة جزاءً لجرمه وقتل زوجته وهى قتل للنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق.. فجريمة القتل مؤثمة شرعاً وقانوناً أيّا كان المجنى عليه أو كان الباعث أو الدافع عن الجريمة.. إذ كان فى وسعه أن يطلق زوجته بالحسنى ويتركها لحال سبيلها وينطلق هو حرّاً لحال سبيله.. ولكن شيطانه هداه إلى الجريمة فلطّخ يديه بدمائها غيلة دون ذنب أو جريرة فحق عليه العقاب.

وانتهت محاكمته وقضى بمعاقبته بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ومضت السنون لتكون أمام الفصل الثانى من أحداث هذه القضية.

بعد سبع سنوات تقريباً انتقلت للعمل وكيلاً لنيابة بنى سويف، وأثناء وجودى فى مكتبى عرض على ضابط المباحث محضراً بصحبته شاب يرتدى ملابس الشرطة العسكرية وقرر أنه ليس ضابطاً بالشرطة العسكرية أو غيرها من فروع القوات المسلحة أو الشرطة.. ولكنه نصاب محترف غارق من رأسه حتى أخصى قدميه فى الاحتيال وسلب أموال الأبرياء، وله ملف متخم بالعديد من قضايا النصب، وسجل حافل بالأحكام التى سلب وتفنن فى نهب أموال ضحاياه.. وقد تم القبض عليه فى دائرة القسم، وهو يرتدى هذه الملابس، ومن المؤكد أنه فى سبيله إلى تنفيذ أحد مخططاته الاحتيالية.

وقد تبين لى من استجوابه أنه اعتاد النصب على جميع فصائل البشر، وكانت هوايته النصب على الفنانين وأصحاب النفوذ.. وعلى وجه الخصوص الفنانات، وأنه يحتفظ بأجندة تحمل أسماء وعناوين وتليفونات العديد من الشخصيات المهمة، وبسهولة تثير الغرابة والعجب أنه أدلى باعترافات تفصيلية بارتكابه جرائم نصب واحتيال على كثير ممن وردوا فى الأجندة، إذ قمت بسؤاله عن مدى صلته وعلاقته بهذه الأسماء كان ببساطة يعترف بحيلة جديدة أو بطريقة غير مسبقة أوقع فى شباكه ضحيته.. بل توسع فى طرقه الاحتيالية ووطد علاقته وصادقته بكبار الدجالين.. وتعلم منهم الحيل والأفانين والإيهام بالقدرة على الاتصال بالجن وتسخيره لجلب الحبيب وتطويع القلوب والأحاسيس بل ووصل به التمداد والفجر إلى حد ارتداء الزى العسكرى وانتحاله صفة ضابط بالشرطة العسكرية.. كان يوقف أى

سيارة شرطة ويطلب منها التوجه به في مأمورية ويطلب من قائدها الوقوف أمام مسكن الضحية، ويطلب منه الانتظار لحين عودته، فلا تملك الضحية إزاء هذا «السيناريو» المحكم إلا أن تصدق حديثه وتستسلم لطرقه الاحتيالية بل وبلغت درجة إجرامه أن خدع مطربة مشهورة راحلة بعد أن أفهمها بأنه ضابط بالمطار وأن أحد المعجبين العرب أرسل إليها هدية ثمينة تم تقدير جارك عليها قدرت بمبلغ خمسمائة جنيه - وقتها كان هذا المبلغ يمثل قيمة كبرى - وأوهمها بأنه حضر إليها من منطلق وفرط إعجابه بفنها وأن أمنيته حياته أن يراها، وقد حقق الله له هذه الأمنية واستسمحها في أن يدفع هذا المبلغ من جيبه الخاص إعجاباً بفنها وتقديرًا متواضعاً منه لها.

وازداد إصراراً على الدفع أمام إصرارها على دفع المبلغ، وبعد جهد ومكابرة بينهما حصل منها على المبلغ ووعدا بأنه سيحضر لها الهدية في اليوم التالي.. وطبعاً لم تكن هناك هدية بل كان وهماً وضاع عليها المبلغ.. ولم تبلغ لأسباب قدرتها بينها وبين نفسها عن الحادث.

وإزاء اعترافاته التفصيلية أمرت بحبسه على ذمة القضية.

وتم إيداعه سجن بنى سويف العمومي وإمعاناً في طرقه وأساليبه الحديثة والمتجددة في الاحتيال أرسل إلى السلطات العليا خطاباً من سجنه بأن هناك مؤامرة على الدولة وأنه ممسك بخيوطها ويريد أن ينقذ البلد من شرورها فأجرى النائب العام اتصالاً برئيس النيابة بعد إبلاغ السلطات له بهذا الأمر وطلب إحضار هذا النصاب لسؤاله على وجه السرعة بهذه المعلومات..

ولكنه استطاع بأفانيته وحيله أن يهرب من رجال الضبط ويختفى عن عيون الشرطة.

ومرّت الأيام والشهور والسنون وكأنّه الفصل الثالث من فصول هذه القضية فوجئت بخبر غريب بإحدى الصحف.. كان مثار اهتمام كافة وسائل الإعلام وترديدها بل مثار دهشة وغبابة الرأي العام لهذا الحدث.

الزوج المهندس قاتل زوجته برىء وأنّ القاتل الحقيقى هو النصاب الذى اعترف له بذلك وأنه هو القاتل الحقيقى.

كان المهندس قد قضى عليه بعقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة ثم طعن على الحكم بالنقض، وقبل نقضه وأخلّى سبيله تمهيداً لمحاكمته مجدداً أمام دائرة أخرى، وفي هذه الفترة التى كان فيها طليق السراح تزوّج من محبوبته التى ارتكب جريمته وقتل زوجته هيّاماً فى حبها، وأنجب منها طفلاً.

ثم كانت المحاكمة الثانية بعد عدة سنوات وقضت المحكمة فى المحاكمة الثانية بمعاقبته أيضاً بالأشغال الشاقة المؤبدة.

وطعن من جديد بالنقض فى الحكم الأخير، وتأييد الحكم وأصبح باتاً، وكان عليه أن ينفذ العقوبة..

وشاءت إرادة الله وقدره أن التقى فى السجن بالنصاب الذى اعترف له بأنّه قتل زوجته وأنه كان على علاقة بها وكان يستحوذ على مالها، إذ كانت تنفق عليه بسخاء، وقد استحوذ على فكرها ولعب بأوتار قلبها وأسمعها عذب

حديثه وهيامه وجه لها وأنها هي أول حب دخل قلبه فاستحوذ على كل مشاعره وأحاسيسه.. استغل دمايتها المنفرة لتكون الوتر الذى عزف عليه منظومة احتياله وجهه المزيف.

وتلقّفت أجهزة الإعلام هذا الخبر الغريب حتى أنّ التلفزيون عرض القضية من الزاوية الإنسانية البحتة وجمع على نحو بات كل مشاهد لما دار من حديث بشأنها متعاطفًا إلى حدّ الرثاء والبكاء لحال هذا المهندس الذى ظلمه القدر طيلة هذه السنين التى قضاها بريئًا وراء القضبان وهو يستمع إلى حديث النصاب الذى بدا نادمًا ساهمًا واجمًا على فعلته.. طالبًا العفو من المهندس الذى أخذ يبكى بكاءً مرًا على زهرة شبابه التى قضاها وراء القضبان.. بكى معه المشاهدون رثاءً لحاله.. والنصاب يطلب منه الصفح والغفران معلنًا أسفه وندمه ورغبته فى تصحيح هذا الخطأ الجسيم الذى ارتكبه فى حقّه، وأنّه سيكفّر عن هذا الخطأ مهما كان الثمن.. وأنّه على استعداد لأن ينال جزاءه بأى عقوبة حتى لو كانت الإعدام إذ إنّ ما يعنيه فى المقام الأول أن تعود له سمعته وشرفه وكرامته واعتباره، وأن يعود إلى زوجته وإلى طفله الذى حرم منه.

واستطرد المهندس باكيًا فى هذا المشهد المأساوى «الميلودراما» فى أعنف صورها، وهو يروى كيف مرت عليه الليالى قاتمة سوداء طويلة، وهو يبكى ظلم الأيام وظلم العباد ولكن الشئ الذى جعله يصبر على محنته هو أنّ الإيمان كان يملأ قلبه والثقة بالله كانت تغمر نفسه وأنّ الله لن يتخلّى عنه.

كان لابد من تحقيق هذه الواقعة الجديدة.. وتشاء المقادير أيضًا أن أحقق هذه القضية باعتبار أن هذه الحالة من حالات التماس إعادة النظر قانونًا لظهور دليل جديد كان مجهولاً.

واستدعيت النصاب وواجهته بالاعتراف المكتوب الذي كتبه على نفسه وسلمه للمهندس يعترف فيه بأنه قاتل زوجته وأنه كان على علاقة بها وأنها كانت تحبه حبًا جنونيًا وتغار عليه من خيالها.. فصمم أن يتخلص منها وأن يتخلص من قيودها وأن يحيى حياته بعيدًا عن مطاردتها بعد أن حصل منها على ما يكفيه لمدد طويلة من أموال.. فتم سؤاله عن سر عدم سرقة مجوهراتها، فقرر أنه كان في عجلة من أمره حتى لا ينكشف فاستغل فترة غياب الخادمة لشراء بعض المستلزمات للمنزل وقام بتسديد طعناته إليها حتى تأكد من قتلها وهمّ بالفرار بعد أن أزال بصماته من على السكين.. فقد كان هدفه الأساسي هو الخلاص من ملاحقاتها ومطاردتها له.

واستدعيت المهندس وسألته عن معلوماته على ضوء هذا الاعتراف.

كان يتحدث والدموع تنساب من عينيه، وبدنه يرتجف بالكامل وهو ينظر إليه نظرة فيها عتاب ومحاسبة عن كل لحظة قضاها محطماً يائساً، وقد حطّم حياته كلها وهو يردد بنبرة التأكيد والثقة: «برىء.. برىء.. برىء». أنا قتلها من الأول ما حدث صدقني.. لكن ربنا أراد أن يظهر الحقيقة وينصف الحق.. لكن بعد إيه! بعد ما اتخرب بيتي واتفدت من شغلي واتعذبت في السجن!!

وطلبت تحريات الشرطة على ضوء التحقيقات الجديدة.

كانت المفاجأة غير المتوقعة.. لقد كان القدر يقف للمهندس بالمرصاد كادت الحيلة تنجح.. الحيلة الجديدة التي لجأ إليها النصاب كحيلة من حيله المبتكرة والمتجددة والدائمة.. كانت بدورها قاب قوسين أو أدنى من النجاح.. من تحقيق هدفها، فقد تبين لسوء حظ المهندس العاثر أن النصاب يوم مقتل زوجته كان مسجوناً ينفذ عقوبة بالسجن عن إحدى جرائمه.. ولم يكن مطلق السراح إذا حديثه حديث كاذب.

وبات من المتعين الوقوف على سر هذه الحيلة الجديدة لهذا النصاب المبتكر بأحدث أنواع الطرق الاحتيالية.. التساؤل المطروح.. ما تفسير كل هذه الأحداث؟ وما سر هذه المسرحية المتقن توزيع الأدوار فيها؟ وما الدافع لاعتراف النصاب بجريمة عقوبتها الإعدام عن واقعة لم يرتكبها؟ استدعت النصاب وواجهته بكل ما سلف وأنه كاذب، إذ إن وقت مقتل زوجة المهندس كان يقضى عقوبة بالسجن.. وقدمت له الأدلة الدامغة التي لا يستطيع أن يكذبها.

ابتسم في سخرية وهو يردد - «يابيه.. أنا رجل نصاب ورزق الهبل على المجانين.. والنصاب لازم يكون ذكى ويعرف نقطة الضعف عند الضحية ويضرب ضربته على الوتر الحساس في الوقت المناسب».

وأضاف.. «أنا بالصدفة كنت مسجون معاه وعادتى دائماً أننى أنفذ

إلى أعماق من مجرد أن أجازبه الحديث فعرفت قصته وفكرت في حيلة جديدة على ضوء هذه الأحداث.. حسبت المدة لقيت أنه مضى أكثر من عشر سنين ما بين اعترافى ووقوع الجريمة أى أن الدعوى العمومية انقضت بمضى المدة القانونية وهى عشر سنوات.. وعرفت من كلامه إنه مش وش بهدلة.. ومراته الجديدة معاها فلوس كثير وبتحبه وأنها على استعداد بأن تضحى بأى مبلغ فى سبيل إنه يخرج لها حتى ولو اقتضى الأمر تدبير خطة لهروبه.. وأن هناك محاولة لتدبير هذا الهروب نظير مبلغ مالى كبير.. وأنت عارف يا بيه بأن الصنعة تحكم.. وأنا نصاب ودى شغلتي فقلت أنا أولى.. وعرضت عليه فكرة الاعتراف وحررته مكتوباً وسلّمته إليه بعد أن استلمت مبلغاً كبيراً من زوجته.. وهو بسلامته يخرج وأنا ألهم القرشين.. ويا دار ما دخلك شر لأن أى محاكمة أنا عارف أن القضية انتهت وانقضت الدعوى بمضى المدة.. لكن الفرحة ما تمت (قليل البخت يلاقى...) وباقى المثل سعادتك عارفه.

وأهى حديثه وهو يغادر غرفة التحقيق مبتسماً ومتسائلاً..

«الناس ليه يقولوا عليه نصاب.. يا بيه أنا فهلوى موش نصاب.. أنا بأجد لذة وراحة نفسية لما أعمل شوية فهلوة وأشوف القناعة والرضا والاطمئنان فى عيون الى قدامى وهو بيسلمنى كل الى طلبته.. كنت باحس بانى أذكى منهم.. علشان كده عمرى ما تعاملت مع شخص محتاج.. كانت كل واقعة بطلها شخصية مرموقة وعلى قدر كبير من الفهم والذكاء.. كنت فى منتهى السعادة والرضاء النفسى وأنا باحس إنى أذكى منهم.. كنت باحس

إنى بأرضى عقدة مش قادر اتخلص منها.. انى فشلت في إكمال تعليمي كنت حاسس إنى لو كملت حابقي أحسن من مراكز كتيرة كانوا زملاء لى.. لكن في النهاية الدنيا حظوظ وكل واحد ونصيبه.

أدركت من معاشتي وقائع هذه القضية وأحداثها أن عدالة السماء هي التي فرضت نفسها في هذه القضية وأبت إلا أن يلقي القاتل جزاءه.. فقد كاد يفلت من العقاب مرتين الأولى عندما همَّ رئيس النيابة بإصدار قرار بألا وجه لولا دخول أحد كبار رجال القضاء وما أعقبه من انصراف وكيل النيابة المحقق والعارض لأحداث القضية والذي أجرى ليلتها جراحة بالمرارة في أعقابها أسندت القضية إلى فهداني الله إلى هذا الاستفتاء الذي غيّر وجه الرأي في الدعوى، وقاد إلى الحكم عليه بالسجن المؤبد.. والمرة الثانية كانت باعتراف هذا النصاب المحكم الذي كاد يخرج منه السجن بريئاً.. إلا أن إرادة الله شاءت أن تحول دون تحقيق هذه الخطة المحكمة التي كانت ستنجح حتما لو لم يثبت أن النصاب كان مقيد الحرية يوم مقتل الزوجة.

إنّها إرادة الله التي تغلب على كل إرادة وحكمه الذي يعلو على كل حكم
إنّها عدالة السماء.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو تينة

المحامي بالنقض

القضية الثامنة

عدالة السماء



عدالة السماء

عاش طفولته وصباه وشبابه محروماً من دفء الأسرة وحنان الأبوين.. فقد مات أبواه في حادث سيارة وتركاه طفلاً.. فتجرع مرارة اليتيم وهو صغير، حرم بفقداهما ينابيع الحنان ومرافق الأمان التي تعين الإنسان على مواجهة الحياة، لكنه لم يفقد إصراره وعزيمته على شق طريقه.

ساق الله له رجالاً من أقربائه وقف بجانبه وتبنّاه وساعده حتى أكمل دراسته وحصل على بكالوريوس الهندسة.. ووقف في طابور الانتظار في قطار التعيين من قبل القوى العاملة، ورأى أنَّ كل المتظرين الذين سبقوه فقدوا الأمل في الحصول على عمل.

كان طموحه في الحياة بلا حدٍّ فانضم إلى أسراب الطيور المهاجرة التي تحطّ على أرض النفط والبترو، حيث فرص العمل متاحة للجميع.



وتحمّل عذاب الغربة والبعد عن الأهل والأصدقاء والأحباب سعيًا وراء المال.

وامتدّت غربته عشرين عامًا أفنى خلالها زهرة شبابه في العمل الذى وصل فيه الليل بالنهار حتى استطاع أن يجمع ثروة كبيرة.. عاد بها إلى أرض الوطن وتذكّر في غمرة غربته وكفاحه أنّه قد نسى نفسه وبدأ يشغله ويؤرقه حرمانه الطويل من متع الحياة فلم يعرف عالم النساء ولا خفق قلبه بحب، فقد تعمّد أن يغلق بابه حتى لا يكون فيه فراغ لشيء إلا عمله وجمع المال.

التقى بها رآها فتاة جاوزت سن العشرين بقليل.. حباها الله جمالاً يدير الرؤوس.. تتفجّر أنوثة طاغية وتتمتع بجاذبية آثرة.

سعى للتعرف عليها وتودّد إليها وتكرّر اللقاء وأحسّت باختلاقه الفرص للقائها، عاملة في كافيتريا في وسط القاهرة.. لمحت في بريق عينيه إعجابه بها وفي نبرات صوته حبًا دفينًا يكتمه في صدره.. كان سخيًا معها في البقشيش الذى يقدّمه مع حساب طلباته.

طلب لقاءها بعيدًا عن العمل.. حكى لها قصة حياته.. طفولته.. سنوات عمره التى عاشها يعمل حتى جمع ثروة كبيرة.. وعن حرمانه من العطف والحنان.. وبحثه عن إنسانه تعوّضه ما فات.. تكون له بمثابة الأم والصديقة بعيدًا عن الرغبة والجنس.

واتفقت معه ورحّبت به، وأفهمته أنّها معجبة بكفاحه ومثابرتة وإصراره على النجاح رغم الظروف الصعبة التى أحاطت به.

وبدأت مخاوفه التي كانت تستبد به من فارق السن بينهما، وأعطته الأمان والثقة.. وأفنعتته أنها أكبرت فيه رجاحة عقله وحسن تفكيره.. وأحبّت فيه رزائنه وخبرته في الحياة، فلا وجه للمقارنة بين كل هذه الميزات التي يفتقدها الشباب في مثل سنه.

كم كان سعيداً وهو يسمع منها هذه الكلمات.

أخيراً وبعد عناء الغربة آن لهذا الطير المهاجر أن يستقر في بلده.. أن ينعم بدفء الأسرة وعش الزوجية.

واتفقت معه على أن يتقدّم لأسرتها، فهي موافقة على زواجها منه رغم فارق العمر بينهما.. فهي تبحث عن رجل مثله يوفر لها حياة الاستقرار ويبعدها عن حياة الشقاء في عملها وما تلاقيه من عبث واستهتار من بعض رواد الكافيتريا.

وتم زواجهما.

انتقلت إلى شقته الفاخرة المطلّة على النيل.. عاشت في ظلّ الحياة المترفة.. ارتدت الملابس الغالية المستوردة.. وتحلّت بالمجوهرات الثمينة.. واستعملت في تنقلاتها أحدث السيارات التي اشتراها لها.. وغرق في بحور أنوثتها يطنّى عطش الحرمان.

ولكنّ السعادة لا تدوم.. فقد أصيب في عموده الفقري أثناء عمله، فأقعده المرض الفراش، وأحسّ بتغيير سريع في معاملتها له.. لم تقف بجانبه

في مرضه الذى امتد لأكثر من ثلاث سنوات.

أطلقت يدها في أمواله التى وضعها في البنوك بعد أن حصلت منه على توكيل عام يتيح لها صرف ما تريد.. وأطلقت لنزواتها ورغباتها العنان.. تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل، فإذا سألها أجابته ساخرة بأنها شابة.. وأنها لن تبقى شبابها أسيرة مرضه.. كان يحبس مرارته وتعاسته وعجزه في صدره.. لا ينام من النهار والليل إلا قليلاً رغم الأدوية والمهدئات والمنومات التى كان يتعاطاها.. وفي الوقت الذى كان يسبح في خياله.. يستعرض تاريخ حياته ولحظات السعادة التى عاشها في بداية زواجهما.. كانت تنبعث من شقة جاره خريج معهد الموسيقى الذى سكن حديثاً إلى جوارهما وكان يعيش وحيداً في شقته بعد أن أتم دراسته في المعهد وعاش يقضى ليله ونهاره يعزف ويلحن ويغنى.

وأحسَّ بأن زوجته بدأت تطيل المكوث في المنزل وعزفت عن حياة السهر وهى تمعن في السماع إلى صوته الدافئ وموسيقاه وألحانه الحاملة.

وذاث ليلة صحا من نومه، وقد استبدَّ به الأرق ولم تفلح في التغلب عليه جرعة المنوم الزائدة التى تناولها فلم يجد زوجته بغرفة نومها.. بحث عنها في كل أرجاء الشقة فلم يجدها.

احتبس في داخله الممزق ونفسيته المحطّمة هذا الأمر.. بدأ يراقبها على حساب أعصابه المنهارة وعيونه الساهرة التى لا تنام.

اكتشف أنها تتسلل إلى هذا الشاب كل ليلة وقد تزينت بأزهى وأبهى ملابس النوم وتعطرت بأغلى العطور وأنفذاها.. بعد أن تتأكد من تناوله جرعة كبيرة من المنوم كانت تقدمها له في كوب اللبن دون أن يدري، بالإضافة إلى الأدوية التي كان يتناولها ومن بينها دواء منوم آخر.

ومنذ أن اكتشف خيانتها وتأكد منها طار النوم من عينيه إلى الأبد.. ولم تفلح كل المنومات في أن تغمض له جفناً واستبدت الأفكار السوداء بفكره المثقل.. وتزايدت حيرته.. ماذا يفعل؟

وفجأة عثر على هذا الزوج مقتولاً في غرفة مكتبه.

تضمنت مذكراته التي كان يسجلها ويحتفظ بها في درج مكتبه تفاصيل حياته على النحو السابق منذ أن تلقى صدمة اليتيم وهو صغير حتى واجه صدمة الحياة في شيخوخته على يد زوجته الخائنة.

وأضاف في مذكراته أنه يشعر أن نهايته في الحياة قد قربت بعد أن واجهها بخيانتها فصدمة في مشاعره وأحاسيسه، وكان جوابها في منتهى الفجر والبجاجة، إذ طلبت الطلاق منه.. عايرته في رجولته وأنها وجدت ضالتها في هذا الشاب الذي أخرجها من ذلك القبر الذي تعيش فيه الذي ملأ حياتها بهجة وحيوية وأملاً في الحياة.. وأنه فوجئ بما هو أكثر من ذلك بما لم يكن يتوقع.. هددته بالقتل إن لم يستجب لمطلبها بالطلاق.. ويفتح لها الباب على مصراعيه.. باب الخيانة.. الذي لم تجد حياء في أن تعلنه مدوياً في وجهه..

أيقن بما أحسّه من نظرات الشر في عينيها من تهديدها وتوعّدها له أنّ حياته في خطر.. هددتها بأنّه سيبلغ النيابة العامة بخيانتها واستيلائها على أمواله ولكنها لم تكثرث.

كانت تلك هي مذكراته التي عثر عليها بدرج مكتبه.. كما عثر على شريط مسجل بصوته يتضمن ويوثق هذا الإقرار.

كما عثر وكيل النيابة المحقق على بلاغ للنيابة العامة يتهم زوجته بالزنا مع هذا الشاب والاستيلاء على أمواله.

وأورد في مذكراته المكتوبة والمسجلة أنّه يخشى على حياته منها، وأنّه فكّر كثيراً في أن يتحرر من عبودية حبها وأن يطلقها، ولكنّه في كل مرة كان يرى نفسه ضعيفاً أمام حبها.. أسيراً أمام فتتها وجمالها.

أشارت أصابع الاتهام منذ الوهلة الأولى إلى أنّ الزوجة هي صاحبة المصلحة الأولى في قتله وفي الخلاص من أسره وفي التحرر من تلك الورقة التي تربط بينهما، فما عاد بينهما سوى ورقة الزواج التي باتت حبراً على ورق، وقد آن الأوان أن تتخلص منها.

كانت تلك هي الصورة التي واجهتنى كمحقق للقضية..

بدأت التحقيقات بعد أن اطلعت على مذكرات الزوج واستمعت إلى شريط التسجيل، وأفرغت مضمونها في محضر تحقيقات النيابة، كما أفرغت مضمون التحريات المبدئية بأنّ الزوجة صاحبة المصلحة وأنّها على

علاقة أئمة بالجار الموسيقى الذى تبين أنه منذ حوالى شهر غير متواجد فى الشقة وأنه مسافر لإحدى البلاد العربية فى عمل مع إحدى الفرق الموسيقية وأنه سيعود بعد شهرين.

وتبين أن الخادمة كانت موجودة بالمسكن وقت الحادث فاستدعتها وسألتها، فأكدت ما كانت تراه من تصرفات قاسية وحادة فى معاملة المرأة لزوجها بعد مرضه، وأكدت أن الزوجة قد تخلّصت من زوجها بعد أن طلبت الطلاق ورفض وأنها رأتها بأمر عينيها وهى تدسّ له السم فى طبق البامية الذى قدّمته له للغذاء فى مكتبه.

ولكن الشئ المحير أن الزوجة كانت غارقة فى البكاء مصرة على الإنكار نافية أنها قتلتها.

واعترفت بحبها لهذا الشاب.

- نعم أحببت ذلك الشاب الموسيقى، فقد رأيت فيه فتى أحلامى.. أعجبت بحلاوة صوته وطلاوة حديثه.. كنت أتمنى أن أرتبط به إلى الأبد ليعوضنى أنوثتى التى افتقدتها مع هذا الكهل.. طلبت الطلاق من زوجى لأرتبط به ولكنه رفض.

وأقسمت أغلط الأيمان بأنّها لم تقتله ولم تخنه.

واستوقف نظرى أثناء معاينة جثة المجنى عليه أنه تقياً فعلاً، وكان لون القىء بنيّاً غامقاً، فطلبت رفع هذه الآثار بمعرفة الأدلة الجنائية لتحليلها

وبيان عما إذا كانت تحتوى على مادة سامة من عدمه ونوعها إن وجدت.

واستوقفنى وأنا أناظر جثته.. وجود إصابة بجهة المجنى عليه تقطر دمًا.

وواضح من شكل الإصابة أنها إصابة رضية أى نتيجة اصطدام الجهة بآلة رضية كعصا أو ما شابه ذلك.

فأعدت سؤال الخادمة على ضوء ما سلف عن ظروف هذه الإصابة.

قررت أنها شاهدت الزوج بعد أن تناول طبق البامية وبدأت تطفى عليه آثار السم وبدأ فى القيء وهو يقول لها:

- قتلتنى يا خاينة..

فاعتدت عليه بـ «عدة» التليفون كى تخمد صوته للأبد.

تم حبس الزوجة على ذمة التحقيقات.

وأصدرت قرارًا بتسريح جثة الزوج لبيان ما إذا كانت به إصابات والآلة المستخدمة فى إحداثها وعما إذا كانت حيوية من عدمه، وكذلك بيان ما إذا كان تناول مادة سامة ونوعها وأثرها فى إحداث الوفاة وهل كانت الوفاة نتيجة هذه المادة أم الإصابة التى فى جبهته.

يقتضى فن التحقيق فى أمثال هذه القضايا قص أظافر المتهم ومن تحوم حوله الشبهة فى الجريمة بحثًا عن مواد سامة، إذ إن تلك المواد تعلق

غالبًا بالأظافر وتحتها وتظهر في التحليل وتكون بمثابة دليل مادي على مقارفة من يثبت أنه عالقة بأظافره للجريمة.

كما أمرت بقص أظافر الخادمة أيضا باعتبار أنها مقيمة إقامة مستديمة مع الزوجين.

كانت المفاجأة التي حملتها التقارير الطبية:

لقد ثبت من تقرير معامل التحليل أن أظافر المتهممة والخادمة خالية من أى مواد سامة، فى الوقت الذى ثبت فيه من تقرير الصفة التشريحية لجثة المجنى عليه وتحليل أحشائه أنه تناول فى مشروب القهوة مادة سامة شديدة المفعول وأنها هى سبب الوفاة.

كما تبين أيضًا من تحليل آثار القىء أنها لمشروب القهوة وبها نفس المادة السامة.

ولكن ما أدهشنى وأثار شكوكى فى أقوال الخادمة التى تعتبر الدليل القولى قبل الزوجة أن معدة المجنى عليه كانت خالية من الطعام.

إذن حديث الخادمة وروايتها أن الزوجة دسّت السم فى طبق البامية الذى تناوله المجنى عليه حديث كاذب، فمعدة المجنى عليه ليس بها طعام أصلاً، كما أن السم كان فى مشروب القهوة الذى تناوله على معدة خاوية.. وهو ما لم تقل به الخادمة.

وما زاد شكوكى أن إصابة الجبهة إصابة رفيعة وطويلة لا تحدث وفقاً

لتصوير الخادمة من عدة تليفون، ذلك أنه من خلال خبرتي في التعامل مع الدليل الجنائي وقراءاتي المستفيضة لكل ما كتب عن الطب الشرعي.. أن الآلة الراضة تترك صورتها على موقع الإصابة منها في جسم المجنى عليه وهو لا يتصور أن تكون آلة الاعتداء على جبهة المجنى عليه بعدة تليفون فلا تترك أثرها الكبير على عموم الوجه ولا يكون من أثر سوى الخيط الرفيع في الجبهة الذي جاء بالتقرير الطبى الشرعى أنه نتيجة الاصطدام بجسم راض كعصا.

وإزاء ذلك التصور ووقوفاً على اليقين فنيًا بتحديد الآلة المستخدمة في إحداثها وعما إذا كانت حسب الوصف الذى شاهده وأثبتته في تقرير الصفة التشريحية تحدث من الاعتداء بعدة تليفون من عدمه.. لذلك قمت باستدعاء الطبيب الشرعى وطلبت منه إجابة صريحة على هذا السؤال.

جاءت إجابته مؤكدة لما توقعت.. وأكد أنه يستحيل علميًا أن تحدث من الاعتداء بعدة تليفون.

سبحت عميقًا في تصوراتى واحتمالاتى واستعرضت في مخيلتى وفيما أثبتته في محضر معاينة مكان الحادث من أن المجنى عليه كان منكفئًا بوجهه على المكتب الذى كان يجلس عليه.

فأعدت سؤال الطبيب الشرعى ورسمت له الصورة التى كان عليها المجنى عليه لحظة معاينتى للجثة على النحو سالف البيان.. وسألته سؤالاً صريحاً عما إذا كان من الممكن أن تحدث إصابة الجبهة نتيجة اصطدام رأس القتل بأحد أضلاع المكتب.

جاءت إجابته واضحة وقاطعة في أن ذلك هو التصور الصحيح من ارتطام رأس المجنى عليه بحافة المكتب بعد أن خارت قواه نتيجة سريان السم في جسمه والهبوط الحاد في الدورة الدموية، فهوى برأسه على حافة المكتب دون قصد، حيث أسلم أنفاسه الأخيرة.

وأيقنت أن الخادمة كاذبة وأن هناك سرًا وراء هذا الكذب لا بد من كشفه إذ إن حقيقة الحادث تكمن في كشف هذا السر.

تذكرت على الفور صورة الزوجة وهي تصر على الإنكار وتدفع عن نفسها التهمة بكل ثقة رغم اعترافها بخيانة زوجها مع الشاب الموسيقى.

وراودتني التساؤلات العديدة.. ما الذى حدا بالخادمة أن تتهم مخدومتها بهذه التهمة الخطيرة وتلف جبل المشنقة حول عنقها، فالتهمة الموجهة إليها هي القتل بالسم وعقوبتها الإعدام وفقًا لنص المادة ٢٣٣ من قانون العقوبات.

هل الخادمة هي المتهم الحقيقية بالقتل وما الذى دفعها إلى ذلك والزج بالزوجة في هذا الاتهام بأدلة تفوح منها رائحة الكذب.

لا شك أن هناك لغزًا ولا بد من فك طلاسمه والوقوف على الحقيقة.

من الذى دس السم للزوج؟

لماذا تقرر الخادمة أنها رأت الزوجة وهي تدس السم في طبق البامية ويثبت -بعد ذلك- أنه لم يتناول أية أطعمة ومنها بلا شك البامية ويثبت أن

المادة السامة كانت في القهوة.

لماذا قررت الخادمة أنَّها رأت المتهمه وهى تهوى بعدة التليفون على رأس زوجها، بينما تثبت استحالة حدوث إصابة الجبهة من عدة تليفون؟! إن وراء أقوال الخادمة سرًا لا بد من كشف القناع عنه.

واستدعيت الخادمة وواجهتها بأكاذيبها وأنَّ عليها أن تدلى بالحقيقة إذ أنَّها بهذه الأقوال الكاذبة ترتكب جريمة تضليل العدالة.. بل إنَّ شكوكًا تقترب من اليقين أنَّها وراء مقتل المجنى عليه.

وانهارت مؤكدة أنَّها ستقول الحقيقة كاملة ولن تخفى شيئًا.. وقد أحسست في نبرات صوتها أنَّها صادقة فيما ستدلى به بعد أن أحسَّت بأنَّ سهام الاتهام في طريقها إليها.

كانت أقوالها الجديدة أنَّ الزوجة بريئة إنَّها لم تقتله.. لقد انتحر الزوج.. هو الذى وجد في هذا الانتحار خلاصًا لحياته وإنهاء لآلامه ووضع حدَّ لعذابه.

ولكن أترك زوجته تنعم بماله الذى أفنى عمره فى جمعه وتزوّج ذلك الشاب الموسيقى لينعم بماله ويسعد بفتنتها وجمالها.. لن يحقق لها ذلك مهما كان الثمن.. لن يسمح لنفسه أن يعيش محطّمًا ذليلاً كسير النفس، لقد أصبحت حياته بلا أمل ولا ثمن ولا معنى لها.. عليه أن يحطّمها كما حطّمته.. أن يقضى عليها كما قضت عليه.. هي وعشيقتها أن يسلمهما بيديه

إلى حبل المشنقة، فقد قتلت فيه كل شيء وملأت نفسه المحطمة باليأس
والزهد في الحياة.. سيكون انتقامه من نوع جديد.

استطردت الخادمة قائلة:

- نعم إنه قرر أن ينتقم من زوجته ومن عشيقها الشاب الموسيقي..
أحس أن حياته باتت معدومة.. هو والميت سواء.. سواء أمام نفسه أو أمام
عينها بل إن حياته باتت عذاباً.. يستحيل تحمله وفي الموت الراحة الوحيدة
له.. أعطاني مبلغاً كبيراً من المال، ووضع السم أمام عيني في فنجان القهوة
وارتشفه أمامي بعد أن اتفق معي على اتهام الزوجة بوضع السم والتأكيد على
خيانتها لزوجها حتى لا ترث منه.

- تلك هي الحقيقة.

كان على كـمـحـقـق ألا آخذ هذه الرواية مأخذ اليقين وخصوصاً أنها
كذبت في البداية.

لماذا لا يكون حديثها الجديد مناورة أخرى أرادت أن تخفي بها
الفاعل الحقيقي.

واستمراراً في الوصول إلى دليل يقيني على صدق روايتها أو هدمها تم
استخراج جثة المجنى عليه.. وتم قص أظافره وإرسالها إلى معمل التحليل.

وجاءت النتيجة لتؤكد.. ما توقعت.. فقد تبين من تحليل الأظافر أنه
عالق بها المادة السامة نفسها التي ثبتت من التشريح وجودها في أحشائه أدت

لوفاته.

وكادت خطة الزوج في الانتقام من زوجته ولفّ جبل المشنقة حول رقبتها.. كادت تفلح فقد أحكم خيوطها ابتداء من مذكراته وشريط التسجيل وشكواه المكتوبة إلى النيابة.. التي كان يعلم - بلا شك - أن النيابة ستطلع على ما جاء فيها.. وبعد أن وجّه فيها أصابع الاتهام نحو زوجته، وأنه تيقّن من غدرها وتهديدها له بالقتل إذا لم يطلقها، وقد لمح في عينيها الإصرار على ذلك ورغبتها في التخلص منه.

لقد أحكم نسج خيوط خطة انتقامه عندما اتفق مع الخادمة ورسم معها خطة اتهام زوجته بعد وفاته.

وكادت خطته أن تنجح بالفعل وأن يطوّق جبل المشنقة رقبة زوجته. وفي اليوم التالي لسؤال الخادمة واعترافها الذي غيّر مسار الأحداث والدليل في الدعوى حضر الشاب الموسيقى من تلقاء نفسه وقد عاد من السفر وعرف الحادث.

كان حديثه بدوره يتسم بالغرابة ويؤكد أن الزوجة رغم غدرها لزوجها وتمردها عليه وخيانتها لحبه.

قال الشاب الموسيقى:

- نعم كانت تردد علىّ في شقتي المجاورة عندما يخلد زوجها للنوم.. كانت تشكو لي قسوة حياتها مع الرجل الذي أصبحت بالنسبة له ممرضة لا

زوجة.. كيف أنَّها أصبحت فريسة للوحدة والملل.. وكيف أنَّ هذه الحياة فرضت عليها قبل أن تعرفه.. حياة السهرات الماجنة ولكنها عندما أحسَّت بدفء الحنان في صوته وهو يشدو بأعذب كلمات الحب اهتزَّ قلبها الذي ذبل وتغيَّر كيانه الذي تحلم.. عشقت الحياة بعد أن زهدت فيها.. وأحسَّت بالأمل بعد أن استبد بها اليأس.

- بدأ نبض الحب يتسلل إلى قلبها ويتملك عليها مشاعرها.. كانت تحس بحرارة لا حدود لها وهي تشكو إليه.

ويستطرد قائلاً:

- كنت أستمع إليها وأمسح دموعها وأهوّن عليها حياة الفراغ والملل والعذاب الذي تعيش فيها وأطلب منها أن تتذرَّع بالصبر.. «أن تكون زوجة وفية لزوجها حتى آخر لحظة في حياته».

وواصل حديثه..

- وذات مرة طلبت مني فجأة وبصراحة وإصرار لا يخالجه أدنى شك أن أساعدها في التخلص من زوجها في قتله.. إنَّه يرفض طلاقها، لقد طلبت منه الطلاق من أجل حتى نتزوج ونعيش سوياً.. طلبت مني أن أفكر معها في الوسيلة التي أنهى بها حياة زوجها.. إنَّها ما عادت تطيق العيش معه.. كل لحظة تعيش فيها إلى جواره كانت تحسُّ فيها أنَّها حبيسة إلى الأبد بين جدران سجن مظلم لا أمل في الخروج منه.

ويستمر مستطرّدًا في حديثه:

- هدأت من روعها.. رفضت تمامًا أن أشاركها فكرها أو أجاريها فيما تنوى الإقدام عليه.

وأحسست لحظتها أنني كنت مخدوعًا فيها.. رأيت في عينيها لأول مرة الخسة والدناءة والخيانة.. رأيت فيها ما يتنافى مع مبادئ الحب والإحساس المرهف الذي زرعه حب الموسيقى والغناء في وجداني.

واتخذت قرارًا بيني وبين نفسي لا رجعة فيه أن أترك الشقة وأن أسافر للغناء في إحدى البلاد العربية تلبية لرغبة متعهد طلب مني ذلك.. صممت أن أختفى من حياتها نهائيًا.

وأقسم الشاب بأغلظ الأيمان وهو يقول:

- صدقني إنني لم ألمسها.. كنت متعاطفًا فقط مع ظروفها، كان اعتقادي بأن سماعي لشكواها يهوّن عليها الأحاسيس التي كانت تسيطر عليها.

وأنهيت ما كان بيني وبينها من صداقة بريئة من وجهة نظري وتركتها وقد صممت على أن يكون ذلك بلا عودة إلى الأبد.

وأنهى الشاب الموسيقى حديثه في التحقيقات.

وطويت دوسيه القضية.

حقًا ما أغرب القدر. لقد وقف إلى جوارها القدر في أن تفلت من حبل

المشفقة مرتين.. مرة عندما أثبتت التحقيقات أنها لم تقتل زوجها وإنما مات متحرراً.. ومرة ثانية عندما صدها الشاب الموسيقى ولم يسايرها في هواها ورفض تنفيذ رغبتها المدمرة في قتل زوجها.

ولم يكن أمامي وقد ثبتت براءتها في التهمة الموجهة إليها بقتل زوجها إلا إخلاء سبيلها.

لمحت الفرحة بلا حدود تكسو وجهها.. لقد ثبتت براءتها وها هي تخرج للحياة منطلقة بلا قيود وقد أصبحت تمتلك ثروة كبيرة.

وظننت بعد أن أصدر قراراً بالألا وجهه في إقامة الدعوى.. أى براءة المتهمه أن الأحداث قد توقفت عند هذا الحد. حتى كان اليوم التالى عندما حضر إلى ضابط المباحث الذى شارك البحث في قضية القتل ليعرض على - والابتسامة تكسو وجهه - محضراً لقضية جديدة.

فسألته عن سر ابتسامته فابتدرنى قائلاً - عارف سيادتك الست الى أفرج عنها امبارح بعد ما ثبت أن جوزها انتحر وإنها مقتلتهاوش..

فسارعت في سؤاله

- أيوه.. وإيه علاقة ده بالمحضر الى معاك دلوقتى.

فازدادت ضحكته وأحسست أنها ضحكة تكتم سخرية في أعماق نفسه وهو يقول:

- فعلاً المحضر ده خاص بيها.

وبسرعة أمسكت المحضر وأدركت على الفور سر الدهشة التى أحسست بها فى ابتسامة الضابط، لقد هالنى ما رصد به.. لقد انقلبت بها سيارتها الفارهة وسقطت بها فى النيل وبجوارها شاب مخمور لقى المصير نفسه.. كانت تنطلق بها كالمجنونة بعد سهرة صاحبة نفضت بها عن نفسها غبار الماضى وباتت طليقة من قيد الزوجية الذى كان يربطها بزوجها.. الذى هدّه المرض.. وأصبحت حرة.. تعيش بلا رقيب أو حبيب.. وقد قررت أن تنعم بحياتها الجديدة بالأسلوب الذى خططت له ورأت فيه إشباعها لأنوثتها التى توقفت فى السنوات العجاف الماضية وكانا فى طريقهما لإكمال ما بقى من الليل وممارسة الرذيلة فى شقته.

لقد أثبت القانون الوضعى براءتها من قتل زوجها ولكن عدالة السماء لم تتركها لعبثها ولهوها، فقد كانت سبباً فى تدهور أحوال زوجها وشل أفكاره.. كانت سبباً فى انتحاره خلاصاً من العذاب الذى كان يعيش فيه..

ولم أتمالك نفسى وأنا أشارك الضابط الابتسامة.. ابتسامة السخرية من القدر.. أدركت على الفور أنه يشاركنى الفكر نفسه الذى راودنى وأنا أقرأ المحضر.

لقد أفلتت من حبل المشنقة مرتين ولكنها لم تغفل من عقاب السماء.. إنها حقاً.. عدالة.. السماء.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شامة

المحامي بالنقض

القضية التاسعة

قاتل رغم أنه



قاتل رغم أنفه

من منّا يملك أن يهرب من قدره.. أن يغيّر مجرى حياته.. أن يحقق كل ما يريد، فالمثل الشعبي الشائع أصاب كبد الحقيقة.. «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين».

سيناريو الأحداث لهذه القضية يؤكد أن الإنسان ليس حرّاً في اختيار طريق حياته بل ليس حرّاً في تحديد خطواته، فمن كتبت عليه خطي خطاها ومن كانت منيته بأرض فلن يموت في أرض سواها.

كان شيخاً فانياً حانياً نحيل الجسد، كسا الشيب رأسه وأظهرت بصمات الزمن علاماتها على وجهه الذي امتلأ بالتجاعيد وغطته الهموم كان يسير حانياً وكأنما حملته الدنيا كل أعبائها على كتفيه رغم أن عمره لم يناهز الخمسين عاماً.. كان واضحاً من نبرات صوته أنه يعاني الكثير، وأنه يخترن بداخله من الآلام ما ينوء جسده الهزيل عن حمله.. كان أشبه بجثة متحركة.

جاء يوكلنى للدفاع فى قضية قتل .. فسألته عن صلته بالقاتل أو بالقتيل .

وكانت المفاجأة وهو يجيب بصوت مرتجف ..

القتيلة بنتى .. ثم تنهّد تنهيدة ملؤها الحسرة والألم الذى بدأ يطرح نفسه من داخله ..

فسألته عن المتهم وصلته ودافعه على القتل .

فأجاب ..

ابن أخويا .

فعجبت مستغرباً هذا المشهد الذى يقدم فيه الأب على توكيل محام للدفاع عن قاتل ابنته .

ودار فى ذهنى الكثير من الأسئلة الحائرة التى لم أجد لها جواباً .. وأنا أحاور الرجل علىّ أستشف منه ولو نذرًا يسيرًا من حديث يفسر هذا الأمر الذى يجافى طبائع الأمور .. وإزاء صمته وإصراره قدّم لى دوسيه القضية ، وقال بصوت مرتجف الحقيقة كلها فى أوراق القضية .

ولمح الشيخ علامات الاستغراب والتعجب فى عينى ، وهو يسلمنى ملف الدعوى .. فبادرنى معلناً موقفه الغريب بأنّه هو رب الأسرة وأنّ المتهم فى مقام ابنه .. إذ إنّ ابن أخيه .

بدأت أتصفّح أوراق القضية .. كانت القتيلة هى زوجة شقيق

المتهم..

كانت بداية الأحداث حسبما سطر في أوراق الدعوى عندما أصرَّ والد القتيلة على زواجها من ابن عمها رضوخاً للتقاليد والعرف الجارى الذى يأخذ حكم القانون فى بلدتهم ولا يستطيعون بل لا يملكون منه فراراً.. وإلا فاللعنة والعار ستحل بالأسرة بأكملها على نحو يفقدها اعتبارها ويطأطئ رؤوس أبنائها إن لم ترضخ لهذه التقاليد.

كانت فتاة ريفية.. حلوة الطلعة.. فى العشرين من عمرها تعيش فى إحدى قرى محافظة سوهاج التى ترى فى هذه التقاليد دستوراً مجرد التفكير فى الخروج على طقوسه جريمة لا تغتفر.. كان أمنية كل شباب القرية الزواج منها.. إلا أن والدها كان له رأى آخر إرضاء وتنفيذاً لحكم هذه التقاليد.. صمم على زواجها من ابن عمها المقيم فى امبابة.. رغم أن جسده كان مستودعاً للأمراض.. كان مريضاً بمرض صدرى خطير.. السعال لا يفارقه ليلاً ونهاراً، وقد هدَّ المرض جسده فأصبح هزيراً منهك القوى.. يلهث وتتلاحق أنفاسه لأقل مجهود.. وفوق كل ذلك كان يكبر ابنة عمه بربع قرن.. لم يعبأ الأب بكل هذه الفوارق، وساق ابنته ضارباً بإرادتها وأحاسيسها ومشاعرها والفارق الكبير بينهما عرض الحائط.. كان قد فاته قطار الزواج ورفضت كل من تقدَّم إليها الزواج منه، ولكنَّ عمه قرر أن يلحقه «بالسبوسة» بعد أن تحرك قطار العمر، وزوَّجه من ابنته الحسنة كمرضة قبل أن تكون زوجة تسهر الليل على نغمات سعاله وموسيقى أنينه وهو يطرب أذنيها

بشكواه التى لا تنقطع من آلامه المبرحة.. ولما كان فاقد الشئ لا يعطيه، فقد ظلت كما دخلت بيت الزوجية عذراء لم يمسسها أو بمعنى آخر زواج مع إيقاف التنفيذ.. وفي الوقت نفسه الذى كانت تتزايد فيه متاعب الزوجة نفسياً وجسدياً، وقد وضعها زوجها في طريق مظلم مسدود مع زوج لا حاضره ولا مستقبل.. أمراضه المستعصية تهدد حياته في كل لحظة.

كان يقطن في مقابل الشقة التى يقطن بها شقيقه الأصغر.. كان يمتلىء رجولة وفتوة.. فى الثلاثين من عمره.. يعيش حياته بالطول والعرض حياة ماجنة صاخبة بوهيمية وقد سبح في ملذاته وأشبع شهواته بعد أن مسح «بأستيكة» تلك المبادئ والقيم والعادات التى تشبّت بها أهل قريته.. أحسّ بمدى معاناة زوجة أخيه وهى الأنثى التى تطلّ من عينيها الحسرة المقرونة بالحيرة على شبابها وأنوثتها اللذين قبراً مع هذا الزوج العليل وهى لا تملك من أمرها شيئاً.. فما عاد أمامها سوى أن تواصل المسيرة في هذا الطريق المظلم مستسلمة بلا حيلة لا تعرف أين ومتى ستكون النهاية.

إلا أن أخاه في غمرة حياته الماجنة المستهتره أحسّ بما تعانيه من أنوثة وفتنة طاغية وفراغ عاطفى.. أعطى لنفسه الحق في أن يكون رجلها القادر على حل كافة مشاكلها وتبديل حياة المعاناة والحرمان العاطفى إلى حياة ملؤها الحب والعشق والهيّام ولكن على طريقته البوهيمية والتي تطرد كل قيمة أو مبدأ أو شرف.

بدأ في مطاردتها في غدوها ورواحها، تفنّن وانتقى أعذب كلمات الحب

وأرشف أذنيها بكل عبارات الغزل ووعدتها بأنه سيكرّس كل حياته لإسعادها.. وسيعزف عن حياة اللهو والعبث التي يحياها.. ستكون هي السبب في إصلاحه.. وتغيير مسار حياته التي أصابها الضياع والمجون بسبب زواجه من زوجة منفرة تنغص عليه حياته بالليل والنهار فأسلم نفسه لتعاطي الخمر والمخدرات حتى يهرب من واقعه الأليم.. وأنه عندما رآها والتقت عيناه بعينيها أفاق من غفوته وغاص في بحور الحب التي كانت تسبح في هذين العنين.. فأقلع عن ملذاته بعد أن طهره حبها أملاً في أن تجاوبه هذا الإحساس وتبدّل شقاؤه بالهناء والسعادة.. خاصة وأن الأطباء في آخر كشف على زوجها توقعوا موته قريباً، فقد أصبح يستعصى مع مرضه العلاج.

وأحسّت هي بما يدور في ذهنه وما يعتمل في فكره فصدّته منذ البداية ونهرته في أكثر من موقف، فقد كانت تقاليد ومبادئ أهل الصعيد تحتلّ فكرها وجسدها على نحو يستعصى معه أي محاولة لاقتحام هذه المبادئ.. ولكن في كل مرة كانت ترفض مجرد سماع حديثه.. وتنهره بشدة.. كانت النار تزداد اشتعالاً في قلبه.. ورغبة في تملكها واستحواذه لها تتزايد يوماً بعد يوم.

أحسّت زوجته وأم أولاده بما يعتمل في نفسه ويدور في فكره.. أدركت رغبته المحرّمة، فقد كانت تعرف الكثير من نزواته وطيشه ولهوه ومجونه فنهرته أكثر من مرة وأنبته على هذه التصرفات المحرّمة شرعاً.. فهي مازالت زوجة أخيه.. وعليه احترام هذه الصلة خاصة مع ظروفه المرضية التي تقتضى أن يقف إلى جواره في محنته المرضية.. لا أن ينهش في عرضه بما تأباه

ويرفضه منطق وحوش الغابة.. وحذّرتَه بأنّ تصرفاته الطائشة لم تصل بعد إلى علم أخيه وأنها تخشى لو علم بذلك في أن تقضى الصدمة على حياته، وهو في هذه الحالة المرضية المتأخرة.. لكنّه لم يرتدع وأصم أذنيه وأغلق باب فكره وحبس ضميره وصمم على أن يستمر في تنفيذ ما هداه إليه شيطانه.. فكّر ودبّر كيف يوقع فريسته في شباكه بأية طريقة.. سيصل إليها مهما كان الثمن وأياً كانت العوائق التي تقف حائلاً بينهما سيدمرها وينسفها بأسلوبه الخاص.. فقد كانت سهراته العابثة والماجنة مليئة بأصدقائه من ذوى السوابق ومعتادى الإجرام.

لم تمض على تلك الزيجة - مع إيقاف التنفيذ - سوى ستة أشهر ومطارداته المستمرة والمتلاحقة لها.. حتى كان صباح ذات يوم عندما اختفت الزوجة، وبحثوا عنها في كل مكان فلم يجدوا لها أثراً.

في ليلة ذات اليوم الذى اختفت فيه تم العثور على جثة محترقة لفتاة في «مقلب» قمامة قريب من المسكن.

انتقلت الشرطة والنيابة لمكان الحادث لمناظرة الجثة ومكان العثور عليها ولم تكن هناك وسيلة للتعرف على صاحبة هذه الجثة سوى بعض بقايا ملابسها التى تعرّف عليها الزوج، وقال إنّها ذات الملابس التى كانت ترتديها زوجته ليلة اختفائها وأيدته في هذا زوجة أخيه.

كانت الجثة مشوّمة تماماً، فقد أّت النيران على معظم الجزء العلوى من جسدها وأصبح من المستحيل التعرف على ملامحها، وبالتالي الوقوف

على شخصية المجنى عليها.

نشطت تحريات المباحث بحثاً عن صاحبة هذه الجثة وعن القاتل والدافع للقتل.

وقطع حيرة التفكير في الإجابة عن الأسئلة السابقة بمفاجأة لم ترد بخاطر فقد تقدّمت زوجة الأخ من تلقاء نفسها إلى النيابة طالبة الإدلاء بمعلومات تكشف بها عن الحقيقة وتزيل الغموض الذي أحاط بشخصية المجنى عليها وشخصية القاتل ودافعه على ارتكاب الجريمة.

قالت بنبرة ملؤها الثقة الممزوجة بالحسرة والندامة.

القتيلة هي.. زوجة شقيق زوجي.

والقاتل هو.. زوجي.

وانهمرت دموعها على خديها وأجهشت في بكاء عميق وهي تشخص ببصرها وكأنما تستعرض شريط حياتها المفعمّة بالأسى والألم.

إنّه للأسف زوجي وأبو أولادي ولكنّه كان منحرفاً بوهيمياً لا يبحث إلا عن ملذاته وما يشبع غرائزه ولا يعنيه بعد ذلك أي شيء حتى ولو كان الثمن أسرته، أولاده، أقرب الناس إليه.

كان لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه أمام غرائزه الفياضة والتي تجنح دائماً نحو الحرام.

وسألها المحقق كيف توصلت إلى أنه القاتل .. وما الدليل على ذلك؟!

فأجابت مؤكدة .. نعم .. هو القاتل وأنا واثقة من ذلك.

فقد خرج في تلك الليلة وهو يحمل سكيناً حادة أخفاها بين طيّات ملابسه وعاد إلى المسكن قرب الفجر وملابسه ملوثة بالدماء وكان يحمل السكين ذاتها، حيث قام بغسلها.

وسألها المحقق ..

أين تلك السكين؟!

فأجابت.

تخلّص منها ولا أعرف مكانها.

فسألها عن الجلباب.

فأجابت.

إنه أمرها بغسله لإزالة آثار الدماء من عليه.

وقدّمت لسلطات التحقيق الجلباب وعليه بقايا بقع داكنة زالت ملامحها بعد غسلها، ولم يستطع تقرير المعامل الوقوف على حقيقتها وعما إذ كانت دماء بشرية من عدمه.

وسئلت ..

كيف توصلت إلى أن الجثة التي عثر عليها زوجة شقيق زوجك؟!

فأجابت.

بقايا الملابس المحترقة التي عرضتها الشرطة على فور الحادث هي بقايا
الملابس ذاتها التي كانت ترتديها يوم اختفائها.

وسئلت.

عن الدافع الذي دفعه إلى قتلها؟!

فأجابت.

كانت أفعاله دنيئة وتصرفاته ساقطة وأنها نصحته مرارًا أن يتقَى الله من
أجل العشرة والأولاد التي تجمع بينهما وأنَّ ما يفكر فيه من إقامة علاقة آئمة
مع زوجة أخيه ضرب من الجنون.. ينحدر به إلى مصاف الوحوش، بل إنَّ
الوحوش الكاسرة ترفض هذا المنطق ولكنَّ شيطانه أعماه واستتجت أنَّه
اغتنبها بجبروته ووحشيته وأرضى نزوته فخشى افتضاح أمره.. قتلها سترًا
لفعلته الشنعاء.. وأضافت باكية وفرائصها ترتعد خوفًا فما عادت ساقاها
قادرتين على حمل جسدها وطلبت الجلوس..

أنا واجهته بهذه الحقيقة بأنَّه هو الذى قتلها فلم ينكرها، بل هددنى بالقتل
أنا وأولادى إن تفوهت بكلمة أو تلفظت بلفظ.

كان الدليل القولى مطابقًا لتقرير الصفة التشريحية من أنَّ المجنى عليها
تعرّضت قبل قتلها لعملية اغتصاب، ومن ثم فقد أطبقت الأدلة على المتهم
دامغة له بارتكاب قتل المجنى عليها بعد اغتصابها.

إلا أنَّ ما استوقفني واستبدَّ بى حيرة هو ما جاء بتقرير الصفة التشريحية من أنَّ سن صاحبة الجثة التى تم تشريحها أربعون عاماً، فى حين أنَّ المجنى عليها عمرها حسبما هو ثابت فى قسيمة زواجها ورواية والدها عشرون عاماً..

فطلبت من والدها أن يحضر لى مستخرجاً رسمياً من شهادة ميلاد ابنته.
ولم تمض أيام حتى أحضر تلك الشهادة الرسمية والتى تبين منها أنَّها تبلغ عشرين عاماً وشهرين.
وجاءت لحظة المحاكمة..

كانت الجريمة فى صورتها الماثلة على النحو السالف للوهلة الأولى، تتسم بالوحشية والتجرد من الإنسانية.. أخ يقتل زوجة شقيقه بعد أن يغتصبها ثم يحرقها وتشهد عليه زوجته وأم أولاده!.

كان هذا هو سيناريو الأحداث الذى ملأ مخيلتى عندما قطع هذه الصورة صوت الحاجب وهو يعلن بدء الجلسة.
وبدأت إجراءات المحاكمة..

وسألنى رئيس الدائرة عما إذا كنت جاهزاً للمرافعة، أحسست من حديثه ولمحت فى عينيه وعيون بقية أعضاء الدائرة اقتناعهم التام بإثم المتهم وبشاعة جرمه ونذالة فعلته واستعجالهم القصاص منه.

فأجبت..

أنَّ لى طلبًا جوهريًا وهو مناقشة الطبية الشرعية التى أجرت التشريح.
وقبل أن يسألنى رئيس الدائرة عن علَّة هذا الطلب استمرت فى حديثى
موضحًا أنَّ الدفاع ينازع فى شخصية الجثة التى عثر عليها وأنها ليست
الشخصية المنسوب للمتهم قتلها.

فسألنى رئيس الدائرة عن الأساس الذى ستبنى عليه المناقشة.
فأجبت طالبًا مراجعتى فى الصحيفة ١١٤ من الملف المطبوع «الخاص
بتحقيق القضية».

فقام أعضاء الدائرة بمراجعتى بما ورد بهذه الصحيفة تحت بند
«الكشف الظاهرى».

قرأت ما ورد به «الجثة لفتاة تبلغ من العمر أربعين عامًا».
أى أنَّ الجثة التى عثر عليها لفتاة فى الأربعين من عمرها، والتهمة
التي يحاكم المتهم من أجلها وهى قتل زوجة أخيه وهى تبلغ من العمر
عشرين عامًا، وقدّمت تأكيدًا لذلك للمحكمة صورة المستخرج الرسمى
لشهادة ميلادها التى أحضرها الأب.

وأجلت المحكمة -تحقيقًا لدفاعى- القضية لليوم التالى.
لحظتها أحسست بأنَّ هزّة قد أصابت الدليل الرئيسى فى الدعوى ولكن
ما يعنى فى المقام الأول ليس قناعتى ولكن هو قناعة المحكمة بالخطأ التى

رسمتها للوصول إلى الحقيقة وإزالة الغموض الذى أحاط بالحقيقة فى الدعوى الماثلة.

وجاءت الطبية الشرعية فى اليوم التالى وسألتها المحكمة عن سن الجثة التى شرحتها فأصرت على أنها تبلغ من العمر أربعين عامًا.

فسألتها المحكمة كيف استطاعت أن تتوصل إلى ذلك؟!

فأجابت أن ذلك تحكمه أصول علمية وأجهزة حديثة وأشعة تسلطها على العظام يمكن من خلال كل ما سلف تحديد السن على وجه مؤكد.

فسألتها سؤالاً زيادة فى تأكيد ما أريد أن أصل إليه..

هل الأجهزة من الدقة بحيث تستطيع أن تحدد السن على نحو يقينى.

فأجابت الطبية على الفور:

نعم وعلى درجة أكبر من الدقة بحيث يمكن تحديد شهر الميلاد..

ومن ثنىا خبرتى أحسست فى عيون هيئة المحكمة القلق الذى يدور فى خلدنا بعد هذه الشهادة.. هل اقتنعت بها كدليل فنى قاطع بأن الجثة المعثور عليها ليست للفتاة المدعى قتلها؟ أم أن الشك يساورها فى ذلك.

ورفعت المحكمة الجلسة للمداولة،

وعادت من جديد لتصدر قراراً بتأجيل القضية لليوم التالى،

استدعت كبير الأطباء الشرعيين لمناقشته.. وبالفعل حضر فى اليوم التالى.

فعاودت المحكمة سؤاله الأسئلة ذاتها التي وجهتها للطبيرة الشرعية فأيد روايتها، وأكد -من جديد- أن سن الشخص يمكن تحديدها بأجهزة حديثة على وجه الدقة.

وفوجئت بالمحكمة توجه لي سؤالاً عن مصدر المستخرج الرسمي.

فقدّمت لها صورته وعليها توقيع والدها، وقد مهره بتوقيعه أسفل عبارة «استخرج بمعرفتي وتحت مسؤوليتي» وتلك سنة انتهجتها بأن كل مستخرج أو دليل يقدمه الخصم أستوقعه على صورة منه ضماناً لصحته.. بل أعلنت أن والد المزعم قتلها موجود في القاعة.

فنادت المحكمة عليه.. ومازالت الشكوك بادية في عينيها.. وطلبت منه أن يقسم اليمين القانونية.

فأقسم بالله أن يقول الحق ولا شيء غير الحق عن صحة المستخرج الرسمي فأكد أنه هو الذي استخرجه وأن ابنته تبلغ من العمر عشرين عاماً وشهرين وقت اختفائها، وأكد أنها ابنته وأنه يعلم سنّها بداهة على نحو محدد.

رغم كل ما سلف فإن قناعة المحكمة مازالت يداخلها الريبة والشك خاصة مع إصرار الأب على تبرئة القاتل لابنته.. وأن هناك حقيقة قدّر لها أن تقبر في القضية المطروحة على المحكمة أن تواصل البحث والتحقيق حتى تكشف الغطاء وتزيل النقاب عنه.

وتحقيقاً لذلك أصدرت المحكمة قراراً بتكليف نيابة سوهاج بالانتقال للسجل المدني والاطلاع على تاريخ الميلاد الحقيقي للفتاة وإحضار مستخرج رسمى بمعرفتها من واقع السجلات الرسمية.

وكان اليوم الذى تحدد لنظر الدعوى بعد تنفيذ طلبات المحكمة، وتبين من المستخرج الذى أحضرته النيابة وقدمته للمحكمة صدق حديث الأب من أن ابنته فى العشرين من عمرها. وبدأت مرافعتى قائلاً:

سيادة الرئيس.. حضرات السادة المستشارين.. بعد هذا التحقيق الجلى الذى رفع الستار وأزال النقاب عن الحقيقة المفقودة فى الدعوى الماثلة، فقد ظهرت الحقيقة جلية واضحة فى أنصع صورها وأبهى مشاهدتها، وصدق ما أثاره الدفاع منذ الوهلة الأولى من أن الجثة المشوهة التى تم العثور عليها والتى ثبت فنياً أنها فى الأربعين من عمرها ليست للفتاة المزعوم قتلها والتى تبلغ من العمر عشرين ربيعاً يوم اختفائها، إنها لفتاة أخرى مجهولة، ولا يقدح من ذلك تعرف زوجها أو زوجة المتهم على أشلاء من الملابس المحترقة التى تكسوها ألسنة اللهب والنيران وهى من المثلثات التى لا تنهض بذاتها دليلاً على أنها جثة زوجته التى يبين وتكشف عن نفسية حاقدة نائمة مدمرة.. انتهزت فرصة العثور على الجثة والأحداث المحيطة بالأسرة والارتباط من زوجها العليل فرجّت بزوجها فى آتون هذا الاتهام للخلاص منه إما بدافع الغيرة أو لأغراض أخرى لم تكشف عنها التحقيقات.. إن ما

يعنى الدليل في الدعوى الماثلة إجابة عن سؤال.. هل الجثة المعثور عليها
لزوجة شقيق المتهم أم لا.. الإجابة بالطبع ومن واقع تقرير الصفة التشريحية
وسن المجنى عليها وسن الجثة وسن الزوجة.. وما أكدته الطب الشرعى من
استحالة حدوث هذا الفرق في السن.. إنه حديث المستحيل الذى يصطدم
بما أوجبه المادة ٣٠٧ من قانون الإجراءات الجنائية من أن المحكمة ملزمة
بالوقائع والأشخاص موضوع الاتهام.. أما، وقد ثبت أن واقعة قتل المتهم
لزوجة أخيه غير قائمة على أساس من الواقع المعتبر المؤسس على دليل فنى
فإنه يتعين على القضاء تبرئته من هذه التهمة.

رفعت المحكمة الجلسة للمداولة..

عادت لتتطرق بالحكم بعد وقت ليس بالقليل استمر لعدة ساعات في
المداولة في تلك القضية.

قضت المحكمة ببراءة المتهم مما أسند إليه..

خرج المتهم من سجنه مذهولاً.. شاردًا.. وهو يسترجع تصرفات
زوجته.. ما الذى دفعها إلى أن تتقدم بشهادتها لتطوق عنقه بحبل المشنقة..
لتتخلص منه وهى تعلم أنه برىء.. بحث عنها في كل مكان فلم يجدها..
كانت النيران تشتعل في أعماقه وهو يستعرض أمام عينيه مشهدها وهى تشهد
ضده في النيابة وأمام المحكمة وتؤكد أنه هو القاتل.. واستمر بحثه لأيام
وشهور ونار الانتقام تزداد اشتعالاً في أعماق نفسه المشنقة بالجراح

المتعطشة للانتقام.

وذات صباح استيقظ أهالي إحدى المناطق الشعبية بالجيزة على صوت أنين لسيدة تستغيث فهرعوا إليها وتم نقلها إلى المستشفى.

إنها الزوجة التي اعترفت على زوجها.

أدلت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بآخر كلماتها..

قالت أمام النيابة..

زوجها هو الذى سدّد إليها الطعنات القاتلة.

تركها بعد أن اعتقد أنها جثة هامة فارقت الحياة.. ولكنّها كان مغشياً عليها وأفادت.. وشاءت إرادة الله أن تكتب لها الحياة في لحظات لتكشف الحقيقة.

إنّها على يقين أنّه لم يقتل زوجة أخيه.. لأنّها عندما أحسّت بغدره وخسته وملاحقته لها ورغبته في أن يصحبها إلى طريق الرذيلة الذى اعتاد السير فيه اتفقت هي ووالدها على أن تهرب إلى الإسكندرية لتقيم لدى صديقة لها هناك لا يعرف أحد مكان إقامتها سوى والدها.

وباستدعاء والدها أكد هذه الحقيقة بل وأحضر ابنته من الإسكندرية وأدلت بأقوالها أمام النيابة بما يؤكد الأقوال الجديدة.. وأنّها لولا هروبها على نحو ما سبق لما تورّع شقيق زوجها في اختطافها واغتصابها وقتلها إن حاولت فضح أمره.

أما الجثة التي عثر عليها فقد قتلها فعلاً.. كانت زوجة لأحد أصدقائه لاحقها وطاردها وعندما نهرتة ورفضت مسابقتها وتحقيق أغراضه الدنيئة اغتصبها وقتلها بالطريقة ذاتها التي أشرت إليها في شهادتي مع تغيير شخصية المجنى عليها.. ولكنه حصل على البراءة لسبب لم أكن أتوقعه وهو اختلاف السن.. وأفصح عن شخصية القتيلة، حيث أكدت التحريات صحة روايتها واختفاء تلك السيدة في تاريخ معاصر وإبلاغ زوجها باختفائها وتحرير محضر بذلك.

وباستدعاء زوج القتيلة أكد اختفاء زوجته وأنه قد حرر محضراً بذلك وكان دائم البحث عنها حتى علم أخيراً بمقتلها على يد صديقه النذل. وهكذا حافظت على شرف الفتاة وقمت بتهريبها بعلم أيها وموافقته لأنني أيقنت أنها لن تفلت من أنيابه وفي الوقت ذاته تيقنت من قتله للسيدة الأخرى بعد اغتصابها، فكانت شهادتي انتقاماً منه وتخليصاً للأبرياء من رذائله وجرائمه المتعددة والمستمرة التي لا تغتفر.

وهكذا كان القدر للمتهم بالمرصاد فرغم أنه قضى ببراءته من تهمة قتل زوجة شقيقه التي ثبت أنها على قيد الحياة إلا أنه حكم بإعدامه شنقاً عن تهمة خطف واغتصاب وقتل زوجة صديقه.. وكذا قتل زوجته عمداً مع سبق الإصرار والترصد والتي لفظت أنفاسها الأخيرة فور إبداء أقوالها أمام النيابة. حقاً إنه القدر فقد كان من الممكن أن يفلت من قتل زوجته لعدم وجود

أية أدلة قولية أو فنية أو مادية عليه لولا اعتقاده بعد تسديد العديد من الضربات أنها فارق الحياة ولكن إرادة الله شاءت أن تمتد في حياتها عدة ساعات حتى تكشف جرائمه.

حقاً إنه القدر الذى فرض عليه أن يكون «قاتلاً رغم أنفه».

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو شقة

المحامي بالنقض

القضية العاشرة

في بيتنا شيطان



■ ■ ■ في بيتنا.. شيطان

ليلة لا أنساها عندما حضرت إلى مكتبي فتاة في مقتبل العمر.. كان الحزن والكآبة يكسوان وجهها ويعتصران عينيها التي احمرت من كثرة البكاء.. كانت الكآبة واليأس يستبدان بقسمات وجهها، فضاعت مع كل ما سلف مسحة الجمال التي تبدو لأول وهلة عندما حلت غرفة المكتب.

طلبت منها أن تركز إلى الهدوء والسكينة حتى أستطيع أن أفهم مشكلتها.. حاولت جاهدة أن تلمسك لكن الانفعال كان باديًا في عينيها التي احمرت من كثرة البكاء.. ملحوظًا في قسمات وجهها التي ارتسمت عليها مظاهر اليأس.

وسألتها عن مشكلتها التي قدمت من أجلها.. ازداد بكاءها، انفجرت الدموع من عينيها وانهمرت وكأنها المطر وقالت وهي تتحب:



- مش معقول.. أنا مش مصدقة.. أنا كأني عايشة في كابوس مفزع..
والله ده ظلم.. ده حرام.. وسقطت مغشياً عليها قبل أن تنبس بكلمة أخرى.

طلبت لها أحد الأطباء من عيادة مجاورة لمكتبى، ووقع الكشف عليها وقال إنها لا تعاني من حالة مرضية، وكل ما تعانيه هو حالة انفعال شديدة أصابتها بهيستيريا نتيجة تأثرها بحالة ما لم تكن في الحسبان فأصابتها بصدمة خارت معها قواها لعدم قدرتها على تحملها، وأعطاهها حقنة مهدئة فعادت إلى وعيها.

وأفصحت لها - من وجهة نظري - أن الوقت ليس مناسباً للحديث مع الحالة التى هى عليها، ولكنّها - وفي إصرار واضح - استجمعت قواها وقالت فى صوت خفيض ملؤه الحسرة والأسى والحزن واليأس:

- خطيبي اتحكم عليه بالإعدام.. حيتشلق وأنا متأكدة أنه برىء -
وحملت فى وجهى وهى تردد:

- تصور إنسان برىء يعدم من غير ذنب لم يرتكب أي جريمة.

سألته وقد أحسست من بريق عينيها ونظرات صوتها إصرارها على براءته.

- كيف تأكدت من براءته خصوصاً أن المحكمة قد حكمت بعد أن استعرضت الأدلة وأوجه الدفاع، وانتهت بإجماع الآراء على إدانته بالإعدام، خاصة أن حكم الإعدام له طبيعة خاصة وضمانات كبرى تفوق الضمانات فى

قضايا الجنايات العادية ومنها ضرورة أخذ رأى المفتى ليقول كلمته من واقع أوراق الدعوى التى ترسل إليه عما إذا كان يستحق القصاص منه شرعاً إعمالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُذِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ كما أن عقوبة الإعدام تقتضى ضرورة إجماع الآراء بعكس أى جريمة أخرى فيكفى لثبوت الإدانة والعقاب أن تسفر مداولة أعضاء المحكمة على الأغلبية وليس الإجماع.

أعدت عليها السؤال.. عن سندها الذى تركز إلى مؤكدة براءته.. رغم حكم المحكمة، وتمحيصها لكافة الأدلة وأوجه الدفاع فيها خاصة وأنه إذا كان لديها دليل براءته - كما تدعى - فلماذا تقاعست عن تقديمه للمحكمة.. وما الذى حجب المتهم أو دفاعه أو منعها من تقديمه.

أجابت:

- إحساسى يؤكد لى أنه برىء.. نظرات عينيه لى أقنعتنى بذلك.. كلامه بعد النطق بالحكم.. طول عمرى ما هنساه.. منظره يستحيل هيفارق عينيه وهو يقول لى: أنا ميهمنيش الدنيا كلها.. كل اللى يهمنى إنت.. باحلف لك بحبنا الطاهر إن أنا برىء.. إنى ما قتلتش عمى.. كل اللى يهمنى أنت.. صورتى قدام عينيك لازم تفضل حلوة زى ما هى.. الدنيا كلها ما تهمنيش.. قوليلى إنك مصدقانى.. كلامك ده هو الله حيهون علىّ جبل المشنقة وحا أفارق الدنيا وأنا راض مادام أنت راضية ومقتنعة ببراءتى.. لم تشعر بنفسها والدموع تملأ خديها وتبلل ملابسها.. كانت قناعتها بصدق حديثه بلا

حدود.. فقد لعب الحديث بأوتار قلبها وملأ هذا القلب الجريح، فما بات فيه مكان آخر غير الإيمان ببراءته.

ولم أتمالك نفسى وأنا أتنهّد تنهيدة عميقة بعد كل ما سمعت ورأيت.

كان مشهدًا مأساويًا بكل معانى «التراجيديا».. الفتاة مقتنعة تمامًا بكلماته وبرأته، وهو حديث لا يسمن ولا يغنى من جوع، لأنّ الأحاسيس والمشاعر المجردة لا تكفى بمفردها فى أن تحرك حكم الإعدام أو أى حكم بالإدانة قيد أنملة، ومن ثم فقد كان على أن أقرأ «دوسيه» القضية والمحاكمة التى دارت وأنصفّح أسباب الحكم لعلّى أجد لها مخرجًا، فإنكار المتهم وحديثه الوردى المشحون بالعواطف الملهبة لخطيبته لا يكفى لإبعاد جبل المشنقة عن رقبتة خصوصًا وأنّ خبرتى علمتنى أنّ كثيرًا من المجرمين الغارقين تمامًا فى بحر الجريمة يلوذون فى أغلب الأحيان - بالإنكار مهما كانت الأدلة مطبقة عليه سواء ما كان منها قوليًا أو ماديًا أو فنيًا رغم تعانق هذه الأدلة وتآزرها بعضها مع البعض الآخر إلا أنّ الغالبية العظمى يصرون على الإنكار.

أحسّت الفتاة بما يدور فى رأسى.. ونظرة الحيرة التى تكسو عيني، فبادرتنى قائلة:

- أرجوك تقف معاه ما تسيبوش.. الدنيا كلها تخلّت عنه حتى أهله.. أخوه الوحيد صدق إنّه قاتل وابتعد عنه وتركه لجبل المشنقة.

طلبت منها أن تمهلنى حتى أقرأ القضية بإمعان، وبدأت فى تصفح أوراقها.. كانت التهمة حسبما رصد فى تكييفها.. جريمة قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد.. كان القتيل عم المتهم الذى ربّاه.. فى حكم والده.. مما أثار الاشمئزاز من فعلته ودفع أهليته إلى التنصل والتبرؤ منه.. بل والتحامل عليه والوقوف ضده وانتظار اليوم الذى يطهرون ثوب الأسرة الأبيض من دنسه.. يرونه معلقًا فى حبل المشنقة إرواءً لغليلهم وجزاءً وفاً لدم ذلك الرجل العظيم الذى لم يتوان يومًا فى إسعاده.

ولنبداً القضية من أولها..

كانا شقيقين لا ثالث لهما.. «أشرف» وشقيقه «سمير» الذى يكبره بحوالى ست سنوات عندما أصيب والدهما بمرض خطير أقعده عن العمل، أصبح لا يستطيع حراكًا.. فقد الأمل فى الشفاء، وأدرك الرجل أن أيامه - فى الحياة - معدودة - لم ينس الرجل - وهو يحتضر - ولديه الصغيرين فأوصى أخاه «محمود» بهما وهو فى النزع الأخير.. أوصاه برعاية ولديه.. أن يعاملهما كما لو كانا من صلبه خاصة وأن أمهما كانت أيضا تعاني «كوكتيل» من الأمراض المستعصية.

ومات الرجل وترك أسرة لا تملك من حطام الدنيا شيئًا.. زوجة مريضة فى أمس الحاجة إلى العلاج والأدوية المستمرة.. وولدين أكبرهما فى العاشرة من عمره.. وكان شقيقه «محمود» من الطيبة والأصل عند حسن

ظنّه.. عمل بوصيته بل وأكثر.. واعتبر نفسه أبًا فعليًا لهما.. وكّرّس حياته من أجلهما وبدأ في تعليمهما وأغلق على مشاعره بـ «الضبة والمفتاح» وتزوَّج من أرملة شقيقه رغم علمه بمرضها ورغم ما كانت تعانيه من مرارة من هذا الزواج وإحساس بالتقصير في حقّه وأنها لا تستطيع إسعاده كزوج شأن كل الزوجات، إلا أنّها كتبت أحزانها في داخلها.. كان الرجل يحسُّ بأحاسيسها ومشاعرها ويواسيها ويهون عليها.. كان يسهر بجوارها الليالي الطويلة ليقدم لها الدواء.. كان صالحًا ورعًا تقيًا، يرضى الله في كل تصرفاته ويتقيه في كل أعماله لدرجة أنّه طلب من ابني شقيقه أن ينادياه بـ «أبّا محمود».. وظلَّ يواصل كفاحه معهما ويقف إلى جوارهما ولا يبخل عليهما بأي شيء حتى يكملتا تعليمهما.. والأيام تمرُّ والشقيقان يكبران وتخرجان في الجامعة.. وماتت أمهما، وهى تدعوه وتقدّر شهامته وتعترف بمروءته وأنّه لولا وقوفه إلى جوارهم هى وابنيها لدهمتهم عجلة الحياة.. وكتب عليهم الضياع.

ماتت بعد أن احتلت من عمره الكثير وقطفت زهرة شبابه عشر سنوات، وأضافت إلى عمره سنوات لم يعيشها، ورغم ذلك فقد حزن عليها حزنًا شديدًا.. كان يرى فيها الوفاء والإخلاص والطيبة والرغبة الصادقة في إسعاده.. ورغم ما كانت تعانيه من آلام المرض كانت تسعى قدر جهدها في أن تعتنى به وأن تقوم على شؤونها، وكان وقع ذلك في نفسه عظيمًا، فقد قرّر بعد وفاتها أن يحبس نفسه داخل «بوابة» حديدية وأيقن أنّه جرّب حظّه في الحياة وأنّ السعادة نسبية يختلف مفهومها من شخص لآخر، وأنّ سعادته

الحقيقية التى بات يراها تملأ عليه حياته هى ابنا شقيقه «أشرف» و«سمير». كان يرى أنه أب لهما بالفعل، وكانت كلمة «بابا» أشبه بالموسيقى التى تهتز لها أوتار قلبه.

ولكن السعادة لا تدوم، ففى الوقت الذى كان يسير به قارب الأيام فى نهر الطمأنينة والحب ظهرت «صخرة» عاتية اعترضت طريق القارب وقطعت عليه نشوة فرحته.. كانت تلك المرأة التى ظهرت فى حياة الأسرة فجأة فبدلت حالها رأساً على عقب. تقابل معها مصادفة والشعر الأبيض يكسو رأسه.. كانت أشبه بالجليد الذى لا يذوب وبصمات الزمن التى لا ترحل.. تركت آثارها على وجهه فملأته بالتجاعيد.. هكذا كان حال الرجل عندما التقى بها.. كان قلبه خاوياً من الحنان.. خالياً من الحب.. متعطشاً ينتظر أول كأس ترويه.. أما هى فقد كانت أرملة مات زوجها فى حادث ولم ينبج منها أولاداً.. كانت ممشوقة القوام.. حلوة الطلعة.. بياض بشرتها المختلط بجمرة الوجه يزيدنها فتنة وبهاء.. وقد كسا رأسها الشعر الأصفر.. كان أشبه بخيوط الذهب التى تهفهف على خديها.. والثوب الأسود - رغم قتامته - يزيدنها حسناً وبهاء. نظر إليها ولم يستطع أن يقاوم النظرة الأولى.. ظلَّ يختلس النظرات بلا وعى فقد نفذت نظرتها إلى قلبه البكر المتعطش إلى من يطفى ظمأه.. ورمقته هى الأخرى بنظرة فاحصة لها معناها.. ارتسمت أمام عينيه واستقرت فى أعماق مخيلته لا تفارقه.

ليلتها فارق النوم عينيه.. لم يغمض له جفن.. بات قلقاً مسهداً

وصورتها وملامحها العذبة ونظراتها الساحرة تتراقص أمام عينيه.

واستبدَّ به الخيال وسبح به في فضاء عريض وانهارت التساؤلات والتخيلات والأفكار على رأسه.. قارن بين نفسه وبينها.. بين الصبا والشيخوخة.. وتساءل والفكر يكاد يحطَّم رأسه.. هل من الممكن أن يجتمعا في سلة واحدة؟

وبينما كان الرجل شاردًا سابحًا في أفكاره ونور الصباح بدأ يطلُّ على الدنيا دون أن يدري، عندما دخل عليه ابن شقيقه «سمير» يناديه أكثر من مرة:

- مالك يا بابا «محمود».. سرحان في إيه؟

أحسَّ الفتى أنَّ عمه وقد كست الحمرة عينيه وذبلت جفونه من السهر.. أنَّه غير طبيعي وأنَّ هناك ما يؤرقه فازداد في سؤاله:

فيه إيه يا بابا؟

إلا أنَّ إجابته لم تكن مواكبة لحاله عندما أجاب..

- أبدًا مفيش حاجة

وقطع عليه حديثه:

- لا.. فيه حاجة.. وحاجة مهمة شاغلة بالك بتفكر فيها.. انت علّمتنا

الصراحة.. قول فيه إيه يا بابا ممكن أساعدك؟

وتحدَّث الرجل وقد انفرجت أساريره على استحياء.

- لو قلت لك عاوز أتجوز حتضايق انت وأخوك.

فابتسم وهو يهدئ من روعه ويقول في ثقة:

- «كل اللي يهمنا أن نشوفك مبسوط وسعيد.. أنا كان نفسى أعرض عليك الموضوع ده من زمان.. انت اتحملت وقاسيت كتير.. وجه اليوم الى لازم تشوف فيه نفسك».

نظر الرجل إلى المرأة وهو يتفحص شعره الأبيض ويحصي تجاعيد وجهه وكأنه أراد أن يرجع عن قراره.

- بس مين اللي ترضى بى بعد السن دى؟

فعاوده بابتسامة ملؤها الطمأنينة والتشجيع:

- انت بس شاور ومليون واحدة تتمناك.. انت بس الى قافل على نفسك الدنيا.. لازم تنطلق.. لازم تعوّض نفسك وتتمتع بالحياة.

- انت بس عليك بكام بدلة كده «شبابى» وكرافته مزهزة وتروح «لكوافير» كويس حترجع آخر شباب.. انت فعلاً شباب لكن مش واخد بالك.

ورغم تشجيع «سمير» لعمه بالزواج بل بارك زواجه حتى الأرملة التى حدثه عنها رَحَّب بها بل وأيده فى أنَّها الزوجة التى ستسعدُه وتعوّضه الأيام الخوالى.. إلا أنَّ «أشرف» كان على نقىض ذلك.. لقد توجَّس خيفة من تلك

المرأة.. كان يرى أنَّ زواج عمه منها غير مناسب، فهي من «عجينة» أخرى غير عجنته.. إنَّها امرأة «سبور» تهوى «الشيكة» والمظاهر.. بينما عمه عاش حياته على نقيض ذلك.. منظوياً على نفسه.. متفانياً في إرضاء زوجته المريضة.. منكباً على تعليمهما، وقد علّق حياته الخاصة على الرف!!.. واعتبر «أشرف» أنَّ إصرار العم على الزواج هو عصيان لتقاليد الأسرة خصوصاً أنَّه يكبرها بأعوام كثيرة وأنَّ جمالها الأخاذ يثير التساؤل والدهشة في علّة زواجها منه رغم أنَّ كفتي الميزان غير متعادلتين.. فجمالها وصباها وأنوثتها الفيّاضة تستطيع أن تتزوَّج الشاب المناسب لها.. أما وقد أَلقت بشباكها على هذا النحو على عمه فقد وجدت فيه «صيداً» ثميناً أو بمعنى آخر هو «زواج مصلحة» بعد أن سال لعبها أمام ثروته وممتلكاته التي جمعها بشقاء عمره.

وتم زواجهما.. بارك الأخ الأكبر هذا الزواج وأبدى سعادته وترحيبه به فكل ما يسعده يجعله فرحاً يريد أن يرد له جزءاً يسيراً من جميله عليه وعلى أخيه والمرحومة والدته.. لكنَّ الأخ الأصغر أصرَّ على تمرده ورفضه لهذه الزيجة وأعلنها صراحة وبملاء فيه أنَّه رافض لهذه الزيجة غير المتكافئة.

ورغم أنَّ الأخ الأكبر كان متزوجاً ويقيم مع زوجته وابنه الصغير في شقة بعمارة العم.. كان شقيقه الأصغر مازال يقيم مع عمه وزوجته، فقد أبى كرم العم وهو الذي اعتبره بمثابة ابن له أن يتركه ليعيش بمفرده بعد الزواج خصوصاً أنَّه كان قد تقدّم لخطبة فتاة، وكان على مشارف عقد قرانه بها، فأيامه

— مع عمه — معدودات ريشما وهو يعدُّ شقة الزوجية ليعيش فيها.

كان الليل هادئًا عندما قطعت سكينته صرخات زوجة العم وهي تبكي هستيريا!

- زوجي اتقتل.. اتقتل وهو يبصلي.

كانت صرخاتها بلا وعى:

- أشرف قتل عمه.. أنا شفته بيقنتله بساطور على رأسه وهو يبصلي.

تم إلقاء القبض على «أشرف» وهو لا يصدق هول ما حدث، واعتصم بالإنكار.

أكدت شهادة زوجة العم بتحقيقات النيابة أنها رأته وهو يهوى على رأس عمه وهو ساجد في الصلاة بـ «ساطور» كان في يده.

وكانت المفاجأة أن شقيقه الأكبر شهد ضده أيضًا، وأكد صحة ما قررته زوجة عمه.

وأضاف في التحقيقات أن شقيقه ناصب عمه العداء منذ أن فكر في الزواج بل وهدهد أكثر من مرة وتوعدّه بأنه سيقاوم هذا الزواج ولن يسمح باستمراره.

واستطردت الزوجة مضيفة أنها نجت من الموت بأعجوبة.. إذ هوى عليها بالساطور عندما فاجأته وهو يرتكب فعلته الشنعاء ولكن من حسن

حظها اندفعت من أمامه وابتعدت وهى تصرخ فلاذ بالفرار.

وصدّقت الأسرة خصوصاً بعد شهادة الأخ الذى اتهم أخاه بالقتل وأصرّ على ذلك، وأصرّ الجميع على القصاص منه والثأر لدم هذا الرجل الذى قتل بلا ذنب على يد ناكِر للجميل.. جاحد للمعروف.. ناسياً ما بذله عمه من تضحيات، وكيف أنّه نذر حياته من أجل أمه المريضة وتربيته أحسن تربية وتعليمه حتى تخرج فى الجامعة هو وشقيقه.. أى وحشية هذه؟ إنّهُ الضمير الذى مات.. إنّهُ الإحساس الذى تيسر.. إنّهُ القلب الذى تحجّر وتوحّش فما عرفت الرحمة ولا الإنسانية إليه سبيلاً.

كانت تلك هى وقائع وأحداث القضية حسبما سطرت فى أوراقها.

كان علىّ ابتداء أن أحرر أسباباً للنقض أملاً فى إلغاء الحكم بالإعدام لتتاح للمتهم فرصة المحاكمة من جديد أمام دائرة أخرى، وأسست أسباب النقض على أن هناك خطأ فى الإسناد ونقلاً من عيون الأوراق يجافى الثابت فيها، إذ إنّ شهادة الزوجة انصبّت على أنّها رأت واقعة الاعتداء على زوجها من المتهم، وقد أحال الحكم المطعون فيه فى خصوصية شهادة الأخ على ما شهدت به الزوجة، حيث روى وشهد شقيق المتهم بمثل ما شهدت به زوجة المجنى عليه.

ولما كان فحوى حديث الأخ أنّه حضر على صوت صراخ زوجة عمه وأنّه لم ير واقعة الاعتداء على عمه.. بل سمعها من زوجته، ومن ثم فقد باتت شهادته سماعية.. ورتوباً على ذلك فإنّ حالة الحكم فى شهادته على أنّه شهد

بمضمون ما شهدت به الزوجة مفاده لزوماً أنه رأى بدوره واقعة الاعتداء، وهو ما لم يقل به الآخر.. ولما كانت الأدلة في المواد الجنائية ضمام متساندة يشد بعضها أزر البعض الآخر، بحيث إذا سقط أحدها أو استبعد سقطت الأدلة جميعاً لأنه لا يعرف مدى تأثير الدليل الفاسد أو المستبعد على قناعة المحكمة.. لما كان ذلك، فإن الحكم المطعون فيه إذا اعتقد خطأً أن الشقيق قد شاهد واقعة الاعتداء - وهو ما لا أصل له في الأوراق - يكون قد أخطأ في الإسناد وأقام قضاؤه على ما يخالف الثابت بالأوراق مما يصمه بالبطلان، إذ إن الأحكام الجنائية يجب أن تبنى على أسس صحيحة في أوراق الدعوى.

وتم نقض الحكم لهذا الوجه من الطعن وتحديد محاكمة جديدة للمتهم أمام دائرة أخرى.

حضرت معه مدافعاً أمام محكمة الجنايات

كان أول ما استوقف نظري بعد اطلاعي على أوراق الدعوى عدة أمور.. أولها: عدم العثور على أداة الجريمة «الساطور».. وثانيهما: أن الصورة التي صوّرت بها الشاهدة كيفية وقوع الجريمة حسبما رصدها وكيل النيابة تفصيلاً في المعاينة التصويرية التي صوّرت بها الشاهدة الحالة التي كان عليها المجنى عليه لحظة اعتداء المتهم بالساطور عليه أنه كان ساجداً أثناء الصلاة.. راکعاً على جبهته، ثالثاً: أن المتهم قام بضربه بساطور على مؤخرة رأسه.

غير أن ما استوقف نظري تعقيباً على هذا التصوير ما جاء بتقرير الصفة التشرحية لجثة المجنى عليه.. إذ استخلصت منه الحقائق الآتية:

(١) أن الاعتداء أحدث تفتتاً بمقدمة الجبهة وهو ما يستحيل حدوثه مادام أن المجنى عليه كان ساجداً يصلى وجهته على الأرض.

(٢) أن إصابات مقدمة الجبهة قطع الطبيب الشرعى أنها أحدثت تفتتاً في عظام الرأس، وهو ما يحدث من الاعتداء بألة راضة كعصا ولا تحدث فنياً من الاعتداء بساطور يتعين أن يخلف إصابات قطعية رضية.

من أجل ذلك طلبت من المحكمة طلباً جازماً.. مناقشة الطبيب الشرعى الذى أجرى تشريح الجثة والذى حضر بالجلسة في اليوم التالى..
وسألته:

- هل تبينت من تشريح الرأس وجود إصابات بمؤخرة الرأس؟
فأجاب.. نفياً وقال..

إن الإصابة الوحيدة كانت في الجبهة من الأمام.

فسألته.. عن الآلة التي أحدثت تلك الإصابة المتفتتة على النحو الذى بان له من تشريح الرأس وأثبتته في تقريره.

فأجاب الإجابة التى كنت أتوقعها..

أنَّها حدثت من آلة رضية، وأنَّ الإصابة الرضية تحدث نتيجة ضربة أو ضربات على الجبهة بآلة رضية ثقيلة كقطعة حديد أو «شومة».

- وسألته.. وقد استبشرت خيرًا من هذه الإجابة.. قد كنت أبغى من هذه الأسئلة أن أصل إلى نتيجة، وكل سؤال أوجهه كان له مرمى أريد أن أصل إليه.. وأعلم سلفًا عن أبعاده من الناحية الفنية، فقد كانت خبرتى فى فن الطب الشرعى وأصوله من أنَّ الإصابة التفتتية التى تأخذ وضعًا مستعرضًا لا تحدث إلا من آلة راضة تأخذ شكلها على موضع الإصابة ولا يمكن أن تحدث من «ساطور».

وأعدت سؤال الطبيب الشرعى قائلًا:

- قررت الزوجة وهى الشاهدة الوحيدة أنَّ المتهم اعتدى على المجنى عليه أثناء سجوده بساطور، فهل من المتصور حدوث إصابات المجنى عليه التفتتية بمقدمة الجبهة وفقًا لهذا التصوير؟

فأجاب:

- مستحيل طبعا من الناحية الفنية، إذ إنَّه وفقًا لتصورها ما دام ساجداً يتعيَّن أن تكون الإصابة بمؤخرة الرأس وليس بمقدمة الجبهة، كما أنَّه يستحيل أن تحدث إصابات الجبهة التفتتية على النحو الموصوف بتقرير الصفة التشريحية بساطور وإنما يتعين أن تحدث بآلة راضة كعصا أو شومة غليظة، بينما إصابة الساطور تحدث إصابة قطعية رضية، هذا فضلاً عن أنَّه لا

توجد أية إصابات خلف الرأس.

وترافعت في القضية.. لم تكن مرافعة طويلة.. بدأتها..

الآن حصحص الحق وانقشع الزيف الذى كان يحول بين المتهم وبين الحقيقة المجردة.. لقد بان فرى الحديث وإفك الكلمة وفساد التصوير.. لقد ظهر جلياً أن الزوجة كاذبة وأن حديثها افتراء وبهتان مبين، وأن الحقيقة لها صورة أخرى تعمّدت الزوجة أن تخفيها، إنها تعلم علم اليقين أن للواقعة صورة أخرى مغايرة تمام التغاير ومخالفة كل الاختلاف لهذا الادعاء الباطل على هذا البرى.. فقد ثبت تناقض أقوالها وعدم موافقتها مع الدليل الفنى وقولة أهل الفن وهو الطبيب الشرعى باستحالة حدوث الواقعة وفقاً لتصويرها، واستحالة أن تحدث إصابة المجنى عليه وهو ساجد ويكون موضع الإصابة مقدمة الرأس، بل وثبت أيضاً استحالة حدوث الإصابة من ساطور وإنما حدثت من آلة راضة كعصا أو شومة، والآن سطع نور الحقيقة على الواقعة التى قدّر لها على لسان الشاهدة أن تظلّ في غياهب الظلم والظلمات.. أن للمتهم أن يحظى بحريته.. وأن لكم أن تنطقوا ببراءته.

وقضت المحكمة ببراءته.

لكن باب الحقيقة مازال موصوداً حتى الآن.. مغلقاً عليها.

وبات التساؤل الذى يحير بال الجميع ويقلق فكرهم..

- من القاتل إذا؟ ما الدافع الذى حدا به إلى قتل هذا الشيخ الطاهر النقى

الذى لقي ربه وهو ساجد؟

ما أقسى على ضمير الحقيقة وذمة العدالة أن يزال القاتل حرًا طليقًا..
وبات من المتيقن في ضميرى أن وراء مصرع المجنى عليه سرًا تخفيه هذه
السيدة، ولكن ما هذا السر.. هل بعد أن أصبحت تحمل جنينًا منه ستكون
بمولده هى المهيمنة والمسيطرة على ثروة زوجها، يكمن هذا السر بعد أن
أصبحت هى المستفيدة وواضعة اليد على كل أملاك زوجها بلا منازع، ولكن
ما الدليل؟

لقد علّمتنى خبرة الحياة وعملى مع الجريمة والمجرمين.. ألا أطلق
خيالى للظنون، كما علّمتنى تكوينى القانونى أن الدليل يبنى بالجزم واليقين
ولا يبنى على الفروض والاحتمالات المجردة.

ومرّت الأيام والشهور وصورة أحداث هذه القضية بالذات لا تفارق
فكرى وأنا أتساءل دائمًا بينى وبين نفسى.. ترى من القاتل؟ هل ستركه
عدالة السماء يرتع فى الأرض فسادًا وهو القاتل الأشر.

لم تمض على حكم البراءة الذى حصلت عليه بالنسبة لأشرف حتى
حضر إلى مكتبى وطلب منى أن أترافع فى قضية جديدة.

ونظرت إليه مستغربًا وأنا أتساءل:

- عن ماهية هذه القضية ونوع التهمة فيها؟

فابتسم ابتسامة لا تخلو من الأسى والحزن والحسرة وهو يقول:

- أخويا سمير متهم.

فسألته في شوق عن التهمة الموجهة إليه..

فقال والأسى يتزايد في داخله..

- لقد قتل زوجة عمه وطفلها الصغير.

وقدّم لي «دوسيه» القضية، وقرأته على الفور والدهشة والفضول يملأ رأسي.. كانت أحداثها أكثر ضراوة وأسى من أحداث القضية الأولى، فقد قتل «سمير» زوجة عمه وابنها الطفل الصغير، واعترف اعترافاً تفصيلياً وصريحاً وواضحاً بأنه القاتل.. وأنه آثم لا غفران لإثمه.. ومذنب أمام نفسه.. وأمام عمه.. وأمام الأسرة والقانون.. ذنباً لا تطهرها مياه المحيطات.

اعترف أنه سار في طريق الغواية.. تعانق مع الشيطان عندما أحب هذه السيدة.. إنّه العشق الذى يفهم خطأ بأنه حب.. عشق الجسد المجرد البعيد كل البعد عن الحب بمعانيه السامية المقدسة.. عشق فيها شهوة الجسد وبات أسيراً له لا يستطيع أن يتعد عنه، وهواه فكره الهزيل وقاده خياله العليل كى يحتفظ بجسدها إلى جواره - أن يزج بها في طريق عمه، وهو يعلم أن قلبه مازال بكرّاً خصباً ظمناً تواقاً إلى من يرويه، وزين له الزواج منها وباركه ورعاه وأوهمه أن ذلك عرفاناً لجميله وإسعاداً لنفسه التي عاشت مع

الحرمان.. وألقى في روع عمه تحدى أخيه لهذه الزيجة.. ومحاربته لها أنانية منه واستكثاراً للسعادة التي أدخلتها تلك الزيجة في حياته.. وأنه هو الوحيد الذى يتفانى في سعادته والإخلاص له.. ومرّت الأيام وعمه «زوج على الورق» أما هو فهو الزوج الفعلى.

ويضيف في اعترافه الذى يقطر ندماً وخزياً..

- وفى ذات ليلة فاجأتني بأنها حامل، لقد حدث ما لم يكن فى الخاطر أو الحسبان.. ما لم يكن متوقعاً.. فعمى عقيم.. وهو يعلم ذلك جيداً.. إنَّ الجنين الذى يدبُّ فى أحشائها ابني! ما العمل؟ لابد من التصرف وبسرعة قبل أن ينكشف الأمر ويضيع كل شيء.. طلبت منها التخلص من الجنين منعاً للفضيحة ولكنها رفضت فأفصححت أنَّها تعمّدت ذلك حتى تستولى على كافة ثروته ونعيش بعدها معاً فى ثراء ورخاء وحب.. وإزاء إصرارها واقتناعى بفكرها هدانى شيطانى إلى ضرورة قتل العم.. كنت مسلوب الفكر.. منعدم الإرادة.. أسيراً للملذاتى والمتعة الحرام معها.. زينت لى فكرة الجريمة كي يخلو الجو لنا سوياً ونستولى على ثروة العم ونعيش بلا منغص، وتم تدبير جريمة قتل العم.. أنا الذى قتلته وضربته على رأسه وهو يصلى، ولكن تصوير الشاهدة فى الحادث قد تبدد أمام تفنيد الدفاع وإثباته براءة أخى «أشرف».. وولدت طفلاً هو ابني، وما كان أحد يعلم بهذا السر غيرى أنا وهى.. فقد كان أخى الأصغر لا يعلم أنَّ عمى عقيم، كنت أنا الوحيد الذى لازمه أثناء كشف

الطبيب عليه وإجراء التحليلات التي أثبتت عقمه. تمرغت معها في الحرام.. كانت شيطانة بكل معنى الكلمة.. بل إن كلمة شيطانة تتضاءل أمام أفعالها.

واستطرد في اعترافه..

كان حديثه يقترب دماً وهو يروي كيف هانت عليه حياة عمه الذي رباه.. قتله من أجلها.. بلغت به الندالة والحطّة منتهاها عندما هانت عليه روح أخيه.. التي كانت قاب قوسين أو أدنى من جبل المشنقة بل وشهد ضده..

ومما زاد من حسرته وندمه بعد فوات الأوان أنها أنستة زوجته.. أهملها بل وأهمل ابنه الصغير.. الذي مرض وتركه دون علاج فريسة لمرض لالتهاب بسيط في الشعب الهوائية تفاقم بسبب عدم علاجه وتطوّر إلى التهاب رئوى حاد قضى على حياته..

لكن هل وقف إجرامها وفجرها عند هذا الحد؟

لقد اكتشف - فجأة - أن الأفعى لا تكتفى بلدغة واحدة، فقد وجدت فريسة أخرى.. اكتشف أنها على علاقة برجل آخر تجد متعتها معه بعد أن بدأت تبتعد عنه تدريجياً وتغيب عن المسكن في فترات طويلة وتعود في أوقات متأخرة من الليل.. ورائحة الخمر تفوح من فمها.. أحسّ بأنها طردته من حياتها ولاخر أمل راوده راقبها عن بعد.. فأيقن الحقيقة التي قتلتها وأفاق من الوهم الذي عاش فيه.. انتفض من بئر خيانتها التي تسرى في عروقها مسرى الدم.. أحسّ بأنها تدبر له أمراً للخلاص منه.. واجهها بخيانتها، بحبهما الذي حكمت عليه بالإعدام.. لكنّها لم تعبأ لمشاعره..

لأحاسيسه التي حطمتها.. لمستقبله الذي أحسَّ بأنه لا وجود له بدونها..
فهذَّته بأنه إن لم يتعد عن طريق حياتها وواصل مطاردته لها فإنَّها سوف تبلغ
النيابة عن أنَّه هو قاتل عمه..

تمالك نفسه وهو يعضُّ على بنانه من الندم ويقول:

- هنا أفقت من غفوتي.. استيقظت من نومى وصحا ضميرى .. صدَّقونى
.. كان عندى من المثل والمبادئ والقيم قبل أن أعرفها ولكنَّها قبرت كل ذلك
فى جسدها اللعين.. كانت شيطانة أغوتنى.. قررت وصممت أن أظهر نفسى
وأكفر ذنوبى وأثار لعمى وأخى ونفسى وابنى الذى كانت سبباً فى موته بسببها
ونفسى التى دنَّستها.. أن أخلص الناس من شرورها مهما كان الثمن.. لا بد من
قتلها وقتل طفل الخطيئة معها.. وبالفعل نفذت ذلك.. أحسست بأنَّ نفسى قد
اطمأنت وضميرى قد استراح.. والآن افعلوا بى ما شئتم.. اعدمونى.. فإنَّ
الإعدام أقلّ جزاء لمن يفتح الشيطان باباً فى عقله وفكره.

ولم تمض أيام حتى حضر «أشرف» وقَدَّم لى رسالة طالباً منى قراءتها..
رسالة من شقيقه سمير.. آخر كلمات كتبها قبل أن يتتحرر فى السجن.. أنهى
حياته بنفسه بعد أن اعتذر وطلب الصفح من الجميع مقررًا أنَّه طهَّر الأسرة
الشريفة من دنس أفعاله وطلب من الله الغفران، وأنَّه لم يطق انتظار حبل
المشنقة فأثر أن يعجل بحياته وقد باتت بلا ثمن ولا معنى.

أغرب القضايا

بقاء الدين أبو تقة
المحامي بالنقض

القضية الحادية عشرة

الخيانة قتلت
في الفجر



■ ■ الخيانة قتلت في الفجر

جمعت بينهما صداقة طويلة منذ الطفولة فهما في عمر واحد وأبناء قرية صغيرة في صعيد مصر.. الشئ الوحيد الذي كان يجعل كل منهما مختلفًا عن الآخر أنَّ الأول سليل أسرة عريقة تملك كل ما يحيط بالقرية من أطيان زراعية، أما الثاني فهو ابن فلاح فقير يعمل أجيرًا في أحد الحقول المملوكة للأول.. ورغم أنَّ الفارق الاجتماعي بينهما كان كبيرًا فإنَّ المحبة والمودة والإخلاص جمعت بينهما.. قلوبهما الخضراء الصافية النقية أذابت جليد الفوارق الاجتماعية.. كان ابن الثرى يذهب إلى المدرسة في البندر وهو يركب «الكرتة».. وابن الفلاح يركب الحمار.. لكن سرعان ما اتخذ ابن الفقير مكانه في «الكرتة» بجوار ابن الثرى.. ومنذ مراحل التعليم الأولى وهما يجتازان فصول الدراسة جنبًا إلى جنب حتى حصلا على الثانوية العامة وانتقلا إلى عاصمة الإقليم والتحقا بكلية الزراعة حتى نال كل منهما درجة



البكالوريوس، لم يكن الشاب الثرى فى حاجة إلى الوظيفة، ففى أملاك أبيه وأراضيه ما يكفيه، إذ إنَّ ما يحصل عليه «الخولى» فى مزارعه يربو عشرات المرات على ما يحصل عليه خريج كلية الزراعة فى أول عهده بالوظيفة.. لكن سرعان ما ترك الشاب الفقير الوظيفة تلبية لرغبة صديقه الثرى ليعمل بجانبه فى إدارة مزارعه ويشاركه فى مشاريعه فى تربية العجول والدواجن والخراف ومعمل الألبان، واستطاع الشاب بإخلاصه وجهوده وتفانيه فى العمل أن يضاعف ثروة صديقه.

ومضت بهما الأيام من نجاح إلى نجاح.. ومن تقدّم إلى تقدّم.. وتشعبت أنشطتهما الزراعية والصناعية حتى أصبحت مثار إعجاب واحترام وتقدير الجميع.. كان أشد ما يبهر القريب والبعيد عنهما ذلك الحب الذى جمع بينهما والإخلاص والتفانى.. كان كل منهما كظل الآخر يقرأ أفكاره من أول نظرة فى عينيه.. ويقف على مكنون نفسه من ملامح وجهه.. كانا روحاً واحدة وفكرًا واحدًا وأملًا متصلًا اجتمعت جميعًا فى جسدين.

وذات يوم قرر الصديق الثرى أن يكمل نصف دينه.. احتضن صديق عمره وزفّ إليه النبأ السعيد، كان أول من زفّ إليه هذه البشرى.

وأخذ صديقه من يديه وقدمه إلى عروسه وهو يقول له.. إنَّها تعرف عنك كل شيء، فقد تحادث معها عن كافة تفاصيل حياتهما صغيرها وكبيرها حتى خيل إليه من فرط حديثه عنه أنَّه يتحدث عن نفسه.. فقد كان حبه له وإعجابه بنشاطه وعمله وثقته فى إخلاصه ووفائه له مالكا عليه فكره

مستحوذاً على كل مشاعره.. ومن كثرة ومداومة حديثه عنه الذى لا ينقطع
رمقته بنظرة قطعت عليه حديث الثناء.. أنا ابتديت أغير منه.. أنا باحبك
وعاوزه أسمع كل صغيرة وكبيرة عنك انت وبس.

وفي حفل عرس الشاب الثرى كانت الفرحة قسمة بينهما.. ومضت
بهما الحياة سعيدة هائلة يكسوها الحب والإخلاص والتفانى في العمل.. كان
الزوج حتى بعد زواجه لا يفارق صديق عمره يظلّ معه طيلة اليوم.. في عمل
دائب ومستمر.. وفي المساء ظلّ كما كان من قبل -حتى في وقت الراحة-
يلازمه في البيت.. كانت الزوجة تشاركهما في تناول الطعام.. أما في جلسات
السمر فقد كانت تبدى ارتياحها وسعادتها بوجود الصديق معهما.. ولم تشعره
بالغيرة من صديقه.. بل شجّعته على ذلك.. كانت هي التي تداوم على دعوته
لقضاء السهرة معاً بعد إعدادها واختيارها أشهى أنواع الأطعمة.

في البداية لم يفسر الزوج اهتمام الزوجة بالصديق كان يرى فيه أخواً
وفياً قبل أن يكون صديقاً.. لم يتسرّب الشك إطلاقاً إلى قلبه.. حتى كانت تلك
الأمسية التي كانت تجمع بينهم كالمعتاد وفي غمرة البهجة والسرور الذى
كان يرفرف عليهم طلب الزوج من زوجته أن تبحث له عن «بنت الحلال»
التي تؤنس وحدته، وأنّ عليه أن يفكر في هذا الأمر جدياً قبل أن تسرق الأيام
شبابه ويفوته قطار الشباب.. عرض عليه بعض أسماء فتيات في القرية إلا أنّ
زوجته قاطعته في عصبية غير معهودة منها وهى تحتبس كلماتها التي لم تستطع

أن تكتم معها عدم رضاها عن الفكرة قائلة:

- سيبه في حاله.. انت مالك وماله.. خليه شايف شغله.. الجواز هيعطله ومصلحة الشغل تقتضى إنه يتفرغ لشغله تمامًا في هذه الفترة.

بدأ الشك يلقي بظلاله على قلب الزوج لأول مرة والريبة تجد طريقها إلى فكره.. ولعبت الظنون بمخيلته والتي قذفت بالعديد من التساؤلات وهو يسترجع اللقاءات العديدة التي كانت تجمعهم.. حاول أن يجد لها إجابة واجتهد في أن يطرد الوسواس والهواجس التي بدأت في ملاحظته.. ولكن تفكيره المتواصل في أن يجد تفسيرًا معقولاً ومقبولاً لما حدث عجز عن ذلك.

مضت الأيام وكأنها الدهر على فكره الذى احتله شبح الخيانة، فقد كان يرى في كل يوم من تصرفات زوجته ما يحمله بل يؤكد له هذا الاعتقاد. رأى في صديق عمره الحميم غريمًا منافسًا في حب زوجته له.

ولكن ما حجم هذه العلاقة؟ وكيف بدأت؟ من الذى كان بادئًا؟ وما الذى توصلت إليه؟

راقب زوجته كثيرًا.. وأيقن أنها تجاذبه الحديث بعد أن منعه من الحضور إلى مسكنه سواء في غيبته أو في حضوره.

أدرك الصديق ذلك بحسه المرهف نحو صديقه.. ابتعد تدريجيًا عن لقاءه في مسكنه.. واقتصرت أحاديثهما في أضيق الحدود في العمل فقط..

وشاع ذلك في القرية وأحسَّ الجميع بالفجوة التي اتسعت وازدادت عمقاً بين الصديقين وتسربَّ إليهما سر هذه الفجوة ولاكتها الألسنة كل حسب ما هداه إليه تخيله.. ولكنهم استقروا جميعاً عند نقطة واحدة.. الصديق هو الذى يطارد الزوجة.. يحبها.. يريد أن يتخلص من هذا الرباط الذى يربطها بزوجها.. لا يطيق العيش أو الحياة بدونها.. أصبحت كل حياته وأمله في الوجود.

ولم يصدق أحد ذلك الخبر الذى انتشر في البلدة وسرى مسرى النار المشتعلة في الهشيم.. الصديق الثرى أطلق الرصاص على صديقه الفقير.. استبدَّت الحيرة بالجميع وأطلقوا العنان لتخيلاتهم وتصوراتهم التي أجمعت على أن الصديق الثرى عندما تأكد من مطاردة صديقه لزوجته ومحاولاته المتعددة العبث بأفكارها.. والتلاعب بمشاعرها.. أطلق الرصاص عليه ثأراً للصدقة التي خانها وداس عليها ولم يرع حرمتها.

كانت تلك هى بداية الأحداث.. عندما بدأت تحقيق وقائع هذه القضية.. وأنا أعمل وكيلاً للنياحة العامة في صعيد مصر..

وجاءت تحريات المباحث لتؤكد أن الصديق الثرى الذى أطلق الرصاص على صديقه بقصد قتله وإبعاده تماماً عن مجرى حياته.. كما أكدت أن ما بدر من الصديق الفقير من أفعال وتصرفات طائشة كانت هي السبب.. لم يستطع مقاومة حبه لزوجته صديقه.. هام بها عشقاً.. أصبح مطارداً لها في

كل مكان، أفهمها وأكد لها أنه على استعداد أن يفعل أي شيء من أجل أن يحظى بحبها.. أن تبادل مشاعره.. أن تحس بنيران حبها التي تتأجج في قلبه وفكره وعقله.. لكنّها كانت تصدّه دائماً وتذكره بأنّه بالنسبة لها بمثابة أخ لزوجها وأنّ عليه أن يطرد وساوس الشيطان التي استبدت به وتدفع به إلى هذه الأفكار والتصرفات التي تتسم بالجنون.. واضطرت في النهاية أن تشكو إلى زوجها.. أن يعمل على إبعاده من القرية.. خاصة بعد الشائعات التي ترددت.. حفاظاً على حبهما واستمراراً للحياة أسرية هادئة مستقرة تجمعهما.

رغم أنّ الصديق الثرى أطلق العديد من الرصاصات على صديقه، إلا أنّه لم يفارق الحياة.. كان فاقد الوعي في المستشفى استعداداً لإجراء جراحات عاجلة..

وسألت الطبيب المختص عن إمكانية سؤاله..

فأجاب..

أنّ حالته الصحية لا تسمح بمجرد الكلام.. بل إنّهُ إذا تحدّث فحديثه لن يكون عن وعى وإدراك وإرادة حرة لأنّه أعطى جرعة من المخدر لتسكين آلامه استعداداً للتدخلات الجراحية.

أما المتهم فقد لاذ بالصمت ورفض الحديث سواء بالنفى أو بالاعتراف بالتهمة.

وعندما واجهته بتحريات الشرطة.

رفض الإجابة أو التعليق..

قمت بسؤال زوجة المتهم عن معلوماتها عن الحادث وعن الظروف والدوافع التي دفعت إليه.

ومثلت الزوجة وسألتها عن معلوماتها.. فجّرت «قنبلة» لم تكن في الحسبان.. قالت:

- زوجي.. قالتها.. «بنظرة ملؤها الحسرة والألم».. كان مخدوعاً في صديقه.. غارقاً في الثقة فيه.. لا يصادر له فكراً أو يرد له طلباً.. لم يرع زمانة الدراسة ولا صداقة العمر.. لم يكن وفيّاً أو أميناً على «العشرة» التي جمعت بينهما.. أدخله منزل الزوجية كأخ.. وثق بلا حدود في إخوته.. لكن كان لي رأي آخر وحكم عليه منذ أول يوم قدّمه لي في «الكوشة».. نظر إلىّ وهو يضغط على يدَيّ نظرة ملؤها «الرغبة».. ظلّت نظراته التي تشعّ منها الرغبة تلاحقني بلا استحياء.. وأنا أتجاهل ذلك.. وكثر تردده -دون سبب- على المسكن في غياب زوجي.. وكثرت أحاديثه التليفونية المفتعلة.. مختلقاً أسباباً واهية للحديث، حاولت أن أفهمه -بأسلوب مهذب- رفضي واستهجانى لهذه التصرفات.. وأننى زوجة سعيدة كل السعادة مع زوجي الذى تزوّجته عن حب وأعيش معه قصة حب وردية.. جنح به فكره الهذيل ونفسيته المريضة التي استحوذت عليها كافة أمراض الحقد والكراهية والضعينة، وفي بجاجة متناهية وجرأة بلا حدود أفصح لي أنّه يحبني منذ أن وقعت عيناه عليّ وأنا في الكوشة.. وأنّه يعاني من عذاب الحب ولوعته.. لا

يطبق العيش بدونى بل رفض الكثير من الزيجات لأنها هي التي تحتل قلبه.

لقد تجسّدت كل عواطفه وتبلورت كل مشاعره في حب كبير استحوذ على قلبه.. حبه وهيامه لى.. طالما سهر الليالى الطويلة وهو يناجى صورتها ويسترحم قلبها أن تهون عليه عذابه.. وتخفف من آلامه.. أن تبادله نفس المشاعر.. أن تعيش معه قصة حبه الكبير.

استوقفنى حديث الزوجة ملياً وهى تعرض غرام هذا الفتى الولهان وكيف أنّها تصدّه وتنهره وهو مازال يطاردها.

كان من غير المعقول بل وليس من المقبول أن تستمر في سماع قصائد الشعر فيها منه وعن عذاب وشدة لوعته من حبها خاصة وقد سألتها تأكيداً للفكرة التى استبدت بى وهو عدم تصديق هذه الأقوال لعدم معقوليتها عن المدة التى استمرت فيها مطارداته لها، فقررت أنّه منذ بداية زواجها التى قاربت سنتين.

واستطردت الزوجة:

ولما يئست من مطارداته وحفاظاً على رابطة الزوجية بينى وبين زوجى الذى أحبه كثيراً.. وقد أعيتنى الحيل في صدّه ولكنّه لم ييأس مستمراً في محاولاته الطائشة.

أخبرت زوجى بضرورة طرده من العمل ومن القرية.. أنّه كان مخدوعاً في صداقته.. إنّ قلبه ملئ بالحقد والنقمة عليه.. فمازال شبح الفقر يتراقص

أمام عينيه ويحتل فكره وقلبه ويستحوذ على كافة مشاعره فيترجمها بلا وعى إلى أفعال وتصرفات حاقدة وناقمة حتى بالنسبة لمن كان سندًا وسببًا في هذا النعيم الذى يعيش فيه وهذا المركز الذى يحتله.

و ذات ليلة رنَّ جرس التليفون.. كنت أتحاشى الرد لكثرة مطارداته وفي ثققل وتردد قمت بالرد.. كان على الطرف الآخر ذلك الصديق.. كان حديثه حديث مجنون فقد عقله والسيطرة على وعيه وإدراكه.

قرر بنبرات صوت أيقنت منها الثقة والتصميم أنه في النهاية توصل إلى الحل الذى سيقربه منها.. ينهى عذابه ويضع حدًا لآلامه.. إنَّ النيران تشتعل في داخله لمجرد تخيله أنها بين أحضانه.. لا بد أن تكون له وحده دون غيره حتى ولو كان زوجها. لقد جمع شتات فكره وانتهى إلى قرار لا رجعة فيه.. سيقتل زوجها.. سيتخلص منه.. ليخلو لهما الجو معًا.

ووضع سماعة التليفون..

شَلَّ فكرى وطار صوابى ووجدت نفسى أشعل سيجارة تلو الأخرى لأول مرة في حياتى.. كان موقفًا مفاجئًا ما كان يخطر لي ببال خطيرًا.. حياة زوجى في خطر أمام هذا الفكر الطائش المتهور فاقد الصواب.

هل أقوم بإبلاغ الشرطة عن كل ما حدث منه وعن تهديده بقتل زوجى..

وقطع هذه الأفكار المتلاطمة عودة زوجى من العمل.

أحسّ للوهلة الأولى بما أعانيه وهو يلحظ سيجارة مشتعلة في يدي لأول مرة وأعقاب السجائر تملأ «الطفاية».

فسألني في دهشة وعصبية وحيرة ممزوجة بالقلق الذي استبد به.

أجبت.. وجسدي يرتجف لا أملك السيطرة عليه.

آخر ما كنت أتصوره حصل.. صديقك صمم أن يقتلك..

وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها.

امتلاً وجهه بحمرة الغضب.. واحمرت عيناه وكأن الشرر يتطاير منهما.. وأسرع إلى مكتبه وأخذ مسدسه وأطلق ساقيه للريح رافضاً كافة توسلاتي له بعدم الخروج.

وعاودت سؤالها:

هل يفهم من ذلك أن زوجك هو الذي أطلق الرصاص عليه؟

فأجابت في حدة وعصبية وقد ازداد حنقها وغضبها..

- ما فعله يستحق عليه الموت.. بل إنني شخصياً فكرت بيني وبين نفسي كثيراً في كيفية الخلاص من هذا الكابوس الذي كان جائئاً على أنفاس حبنا.. الذي هدد مسيرة حياتنا.. الموت مصير لأمثاله الذين يقابلون الحب بالكرامية والوفاء بالغدر إنَّه مريض نفسياً تستبد به عقدة الفقر وتحرك فيه رغبة لا يستطيع أن يقاومها وهي الحق.

واستدعيت الزوج وواجهته بأقوال زوجته ولكنه أصرَّ على الصمت أيضًا.. كان شاردًا مذهولاً وكأنه يعيش أحداث «كابوس» مزعج لم يصح منه بعد.

وطلبت من الطبيب المعالج للمجنى عليه بعد عدة أيام من الجراحات التي أجريت له والعلاج الطبي الذي أعقب ذلك.. موافاتي بإمكانية حديثه بتعقل بعد إفاقته من العملية التي أجريت له واستخراج رصاصتين كانتا على وشك النفاذ إلى قلبه.

ومرَّت أيام واتصل بي الطبيب المعالج والذي أفاد أنه يمكن سؤال المجنى عليه، فقد تحسّنت حالته ويمكن أن يجيب ويتعقل بعد أن اجتاز بسلام مرحلة الخطر بل وكتبت له الحياة من جديد، فقد نجا من الموت بأعجوبة.

وانتقلت إلى المستشفى وقمت بسؤاله..

كانت المفاجأة التي لم أتوقعها بل والتي لا تخطر على بال أحد.

أجاب المجنى عليه بصوت خفيض يمتلأ صفاء ومودة.. عن سؤالى عن كيفية حدوث إصابته ومن الذى أحدثها..

- كان صديق عمرى ينظف المسدس المرخص له به عندما انطلقت منه رصاصتان دون قصد وأصابتنى..

فواجهته بتحريات الشرطة وأقوال زوجته.

فأكد أنَّ الرصاصتين انطلقتا منه وهو ينظف المسدس وأنَّه هو الذى انحرف بجسده فجأة فأصابته الرصاصتان وأنَّ ما جمع بينهما من صداقة العمر يستحيل معه مجرد التفكير في أن يكون قاصداً إحداث إصابته أو أن يمسه أي مكروه.

كانت إجابته قاطعة ومصممة على براءة صديقه.

لم يكن أمامى أمام حديث المجنى عليه وتصميمه على نحو ما سلف وخلو القضية من أدلة تؤكد أنَّ إصابات المجنى عليه كانت عن عمد وأنَّ إطلاق النار كان بقصد إزهاق روحه.. سوى حديث التحريات وهى لا تصلح بحد ذاتها أن تكون دليلاً صالحاً للإدانة.. بل لابد من دليل يقينى تعززه التحريات كقرينة وحتى حديث الزوجة لا يرقى إلى مرتبة الدليل إذ إنَّ مجرد خروجه منفعلًا وهو يحمل مسدسه المرخص لا يكفى كدليل لثبوت التهمة أمام حديث المجنى عليه الذى نفى مجرد قصد المساس بجسده وأنَّ الأمر لا يعدو أن يكون حدثًا عارضًا كان هو السبب في أن تجد الطلقتان طريقهما إلى جسده بعد انحرافه فجأة في مسار هاتين الطلقتين.

وإزاء ما سلف صدر قرار بألا وجه لإقامة الدعوى الجنائية.. أى بالأسلوب الدارج «حفظ القضية».

مرَّت الأيام.. ترك الصديق الفقير «الجمل بما حمل».. غادر البلدة

وبحث عن عمل جديد في بلدة نائية ليبدأ حياة جديدة تاركًا وراء ظهره كل ذكريات الماضي بحلوها ومرها..

كانت أضواء الصباح في طريقها إلى أجواء القرية الهادئة عندما قطع الصمت أصوات سيارات الشرطة والإسعاف تحيط بمسكن الصديق الثرى.. تم نقله بسرعة إلى المستشفى لإجراء إسعافات عاجلة والقبض على زوجته وسائقه الخاص.

بدأ اتصال الشرطة بالواقعة عندما تقدّمت خادمة الزوجة ببلاغ إلى الشرطة طلبت فيه أن يتسم إبلاغها بالسرية خوفًا على حياتها من الزوجة.

تضمن بلاغها أن الزوجة طلبت منها معونة زوجها الذي خرج حديثًا من السجن متهمًا في قضية إحداث عاهة مستديمة بأحد الأشخاص.. أن يقتل زوجها مقابل مبلغ كبير من المال.. وقادها شيطانها إلى تدبير وسيلة وكيفية القتل في أن يصدمه بسيارته وهو في طريقه إلى البندر لشراء مستلزمات عمله.. وتصوّر الحادثة على أنها قتل خطأ.

استرابت الخادمة وخشيت على حياة الزوج وسايرتها في خطتها الآثمة وقامت بإبلاغ الشرطة التي استأذنت النيابة لمراقبة التليفونات الخاصة بها.

كانت المفاجأة عندما أسفرت المراقبة التليفونية عن علاقة آثمة تجمعها مع السائق الخاص بزوجها.. كان على علاقة حب به قبل زواجها.. كانا يعدان للزواج عندما التقت به في أحد مصانعه عاملة فقيرة، بنت ملامح الفقر

والعود على شكلها ومظهرها.. أعجب بها.. وأحبَّ فيها البساطة.. كان رأيُه أنَّ الحبَّ كفيل بأن يذيب الفوارق الشاسعة بينهما..

تزوَّجها.. أوهمته بحبها.. بأنَّه أول رجل يغزو قلبها.. أكبرت فيه هذا التواضع الجم.. وخصوصاً بعد أن علمت بصدقة العمر وكيف أنَّه محا الفوارق وشطبها من قاموس فكره.

لكنَّ قلبها وفكرها وعشقها كان لهذا الميكانيكى الذى ارتبط قلبها به. قدَّمته إلى زوجها كسائق أمين.. وثق به.. عامله أحسن معاملة.. هياً له غرفة في بدروم الفيلا التي يقطن بها.

أسفرت المراقبات التليفونية عن تبادلها الحديث التليفونى مع السائق.. تخطيطهما لقتل الزوج والاستيلاء على أمواله.. سجَّلت المحادثات رفض الخادمة تنفيذ مخططهما.. هداها تفكيرهما إلى وسيلة لقتله لا تترك أثراً أو دليلاً.

كان زوجها يتناول قبل نومه كوباً من اللبن يتلعه معه قرصاً من الأقراص المنومة كي ينام نوماً عميقاً هادئاً يعوّضه ما يبذله من جهد في عمله.

كان تناوله هذا المنوم بناء على روصة طبية كتبها طبيبه المعالج كي ينام هادئاً طارداً من فكره كابوس الماضى.

اتفقت الزوجة مع عشيقها على إحضار المنوم ذاته ودسه في كوب اللبن بكمية كبيرة كفيلة لإنهاء حياته فوراً.. وتصوّر الوفاة على أنَّها نتيجة طبيعية

لتناوله جرعة زائدة تساعده على النوم السريع.

استمعت الشرطة للمكالمة الأخيرة التي تم فيها عقد العزم والتصميم على وضع الأقراص المخدرة في كوب اللبن للزوج.

وبالفعل تم لهما ما أرادوا وغط الزوج في سبات عميق.

انتظرا حتى الصباح للإعلان عن وفاته.

لكن الشرطة مصحوبة بسيارة إسعاف مجهزة بها طيب بعد سماع المكالمة سارعوا لإنقاذه وإلقاء القبض عليهما.

تم نقله إلى المستشفى وأجريت له الإسعافات السريعة اللازمة وانتهى التقرير الطبي الشرعي بعد تحليل السوائل التي تم استخراجها من أمعائه أن كمية المنوم كانت كبيرة وكفيلة بقتله لا محالة لولا كوب اللبن الذي دس فيه المنوم، فقد أبطل اللبن مفعول سرعة تعامل المنوم مع جسمه والتعجيل بوفاته.

لم يصدق الزوج بعد إفاقته وعودة الحياة إليه ما سمع.. أحس أنه يحلم حلمًا مزعجًا يريد أن يصحو منه ولكن تلك هي الحقيقة المؤلمة التي عليه أن يواجهها.

تم سؤال الزوجة..

أدركت أنه لا سبيل أمامها سوى أن تعترف بالحقيقة.

الحقيقة التي كتمتها في نفسها المتأمرة المتمردة.

رغم أن الأيام فتحت لها أبواب السعادة على مصراعيها إلا أنها آثرت أن تمضخ نفسها في أوحال الرذيلة.

أخذ بيدها.. انتشلها من الفقر.. أعطها قلبه.. منحها اسمه.. ولكن غلب عليها فكر الخيانة والتدنى.

حاول أن يرتفع بها.. ولكنها آثرت أن تظل في القاع.

اعترفت أمام المحقق..

- لقد فات الأوان.. لقد ضاعت كل آمالي وأحلامي، أن أستولى على أموال زوجي لأعيش بها حياتي الخاصة مع من أحب.. لا بد من أن أعترف بالحقيقة.. ده ذنب الراجل الى أنا ظلمته.. كان عنده أخلاق.. أخلاق كبيرة قوى.. كان محترماً بلا حدود.. قابل اتهامى له وظلمى بأخلاق نبيلة.. رفض أن يقول الحقيقة.. الحقيقة الى ح أقول عليها دلوقت علشان أرضى ضميرى.

كانت أنفاسها لاهثة وهى تردد كلماتها فى ثقائل، وقد كسا وجهها اصفرار فسّرتة لحظتها على أنه الخوف من المستقبل المجهول الذى ينتظرها والخزى والعار الذى سيلحقها إلى الأبد..

سألها استيضاحاً..

ماذا تقصد بالرجل الذى ظلمته؟

قالت والصفرة تزداد غمراً لوجهها والندم يفوح من حديثها:

- إنه صديق زوجى الذى اتهمته زوراً ودبرت خطة الخلاص منه.. أن أدفع زوجى إلى الشك فيه.. أدخلت في اعتقاده أنه يراودنى عن نفسى.. يريد أن يقتله ليخلو له الجو ونتزوج سوياً.

وبالفعل صدق زوجى وغلى الدم في عروقه وطاش فكره وحمل مسدسه بالفعل وتوجه إليه وأطلق عليه الرصاص قاصداً من ذلك قتله.

كان الصديق حافظاً للعهد راعياً للصدقة.. أقسم أنه لم يمسنى ولو بنظرة واحدة وأن كل ما ألصقته به كان كذباً.. أنا التى روّجت لشائعات مطاردته لى.. أنا التى دبّرت هذا السيناريو كى يقدم زوجى على قتل صديقه ويدخل السجن وأستولى على أمواله ويخلو لى الجو مع السائق.

وختمت حديثها والكلمات تخرج من فمها بطيئة متثاقلة:

- طمع الدنيا، الجشع، عدم الرضا والقناعة.. صحيح المثل «الإنسان ميملاش عينه غير التراب».

وأغمضت عينيها وهى تردد كلماتها الأخيرة..

أنا حاسة إننى باموت.. لقد تناولت جرعة سامة كنت أحفظ بها خلسة في طيات ملابسى عند إلقاء القبض علىّ..

إننى أخرج من الدنيا بلا شيء، لا أحمل معى سوى أوزارى وأخطائى..
وكل ما أطلبه أن يصفح عني من غدرت بهم في لحظة مات فيها ضميرى.
دعت الله بالمغفرة وأسلمت روحها إلى بارئها.

أما زوجها فقد انطلق بعد شفائه يبحث عن صديق العمر.. بحث عنه
طويلاً حتى عثر عليه وقصّ عليه القصة من أولها إلى آخرها.. وأنها كانا
ضحيتين لتلك الزوجة اللعوب وطلب منه نسيان الماضى وأن يعودا إلى
صفحة الماضى قبل أن تلوئها دنيا تلك الزوجة.. حياة ملؤها الحب والثقة
والاحترام.

نظر إليه مبتسماً وقال..

يمثل في ذهنى قصة قرأتها في الأساطير القديمة.. إنها قصة «الزمار» الذى
ضاقت به السبل واستبد به شظف العيش، وأمسك بمزمارة وجلس تحت
شجرة يطلق أنغامه، وإذ بحية تخرج من جحرها أسفل الشجرة ترقص طرباً،
وكلما ازدادت نغماته ازدادت طرباً ورقصاً.. ومن فرط إعجابها قذفت من
جوفها «جوهرة» فتلقفها «الزمار» وحلّ بها أزمته المالية.. وظلّ على هذا
الحال بين الحين والآخر يتردد على الحية.. هو يشدو بمزمارة وهى تتمايل
رقصاً وطرباً وانسجماً تقذف له في كل مرة جوهرة.. تبدل حال الزمار من
فقر إلى غنى.. ومن عذر ومعاناة إلى ثراء وغنى، والكل لا يدرى ولا يعرف
سر هذا الثراء الذى هبط عليه، حتى كان ذلك اليوم الذى مرض فيه مرضاً
شديداً.. وعندما طال مرضه استأمن ابنه على سره وطلب منه أن يتوجه إلى

ذلك المكان مستودع سر سعادته..

وبالفعل توجه الابن مرة تلو الأخرى.. هو يشدو بمزمارة والحية
تتمايل بجسدها طربًا ورقصًا وتمن عليه في النهاية بعطيتها المعتادة التي
كانت تمنحها لوالده من قبل.. ولكن في لحظة استبد الطمع بفكر الشاب
وملك عليه عقله وأعمى عينيه وقد أحسَّ أنَّ والده قد شارف على الشفاء..
وراوده فكره الجشع في الحصول على كل ما تحتزنه الحية في جوفها من
جواهر.. عليه أن يحصل عليه مرة واحدة.. ففكر ودبَّر في نفسه أمرًا.. وتوجه
إليها كالمعتاد وأطربها بنغمه وتمايلت رقصًا إلا أنَّه كان قد أعدَّ العدة لقتلها
ليحصل على الجواهر مرة واحدة قبل أن يشفى أبوه.. كان قد أعدَّ العدة
وجَهَّز قطعة من الحديد أخفاها بين طيات ملابسه انهال بها فجأة على الحية..
ولكن ضربته التي وجهها إلى رأسها أخطأتها، وأصاب ذنبها فقطعته وأفرغت
سمها في جسده فمات لتوه.. حزن الأب على ابنه حزنًا شديدًا.. ظن
المحيطون به أنَّه سيقضى عليه لا محالة.

لكن الزمن أنساه تدريجيًا مأساة ابنه.. وبدأ يفكر في لقمة العيش من
جديد فحمل مزمارة وتوجه إلى الشجرة وبدأ يصنف نغماته.. لم تشجن الحية
لنغماته هذه المرة.. لم تخرج إليه كالمعتاد.. أطلت برأسها في حذر وناشدتها
طالبًا منها الخروج لترقص على نغماته كما كان يحدث في الماضي.. ولكنها
رفضت.. وعندما استفسر منها عن سر هذا الرفض.. وأنَّ عليهما نسيان
الماضي والنظر إلى المستقبل.. أجابت بأنَّ الود الذي كان بينهما والصدقة

التي كانت ترفرف بظلالها عليهما والحب والثقة الذي كان يجمع بين
قلبيهما قد انتهى لأنَّ ما قاساه كل منهما كفيل بأن يمحو ذلك إلى الأبد.. فكل
منهما له ذكره الأليمة التي تستعصى على النسيان.. فلن ينسى هو موت ابنه..
كما لن تنسى هي قطع ذيلها.. لقد انتهى عهد الصداقة وعصر الثقة بينهما
وكل منهما خرج من هذه المأساة مثخنًا بالجراح.. وأشاحت برأسها وتركته
ودخلت جحرها.

أدرك الصديق معنى الحديث وفهم مضمون الرسالة.. تعانق
الصديقان وعاد كل منهما.. كل في طريق.

أغرب القضايا

بهاء الدين أبو تينة
المحامي بالنقض

القضية الثانية عشرة

الذئب والحمل



■ ■ الذئب والحمل

وقعت أحداث هذه القضية في أقصى صعيد مصر، كانت أحداثها مثيرة بشعة تمتزج فيها الدهشة بالغرابة والحيلة. كانت الخسة والنذالة.. تحجر القلب والوحشية التي لا حد لها ولا وصف.. هي الإطار الذي حوى أحداث هذه القضية.

كان رجلاً بالغ الصرامة والقسوة.. طغى جبروته على فكره.. واستبدَّ عنفه بعقله.. كانت له سطوة ورهبة بين أهل قريته كان مرهوب الكلمة لا يستطيع أحد أن يرد له قولاً أو يعصى له أمراً.. عرف الجميع عنه أنه رجل بلا قلب.. أو وحش كاسر بلا فكر ولا مشاعر.. مات قلبه وانعدمت أحاسيسه وفارقت الرحمة قلبه.. له باع طويل في الجريمة والإجرام.. كانت جرائمه كثيرة كعدد حبات الأرز، ومع ذلك فما كان بمقدور أحد كائناً من كان في قريته الوقوف في وجهه أو الشهادة ضده في أى جريمة من جرائمه حتى ولو رآه رؤية العين وارتكبتها في وضوح النهار.. لم يتحرك قلبه من قبل أمام

أى امرأة.. فلم يعرف الحب طريقاً إلى قلبه.. رغم أنّه كان «زير نساء».. عاشقاً لأجسادهنّ.. إلا أنّ مغامراته كانت ماجنة بعيدة كل البعد لا خلق ولا مبدأ لها غير النزوة المجردة والبهيمية المطلقة.. ولم يتحرك قلبه الصخرى إلا أمام هذه السيدة.. كان قلبه أمامها ضعيفاً واهياً خافقاً لأول مرة في حياته، فرغم أنّ من قابلهنّ في حياته لم يحركن شعرة في رأسه.. إلا أنّ تلك المرأة هزّت بعنف وغزت قلبه واستولت على فكره.. وأصبح ذلك الجبل أمامها ذرة من الرمال.. طفلاً وديعاً.

كانت هذه السيدة زوجة لعامل أجير فقير، وكعاداته دائماً الاستيلاء على ما في يد غيره واقتناص وغصب ما لا حقّ له فيه.. جرّب كل الحيل أمامها فلم يفلح.. راودها عن نفسها كثيراً وطاردها ليلاً ونهاراً علّه يصل إلى قلبها ولكنّه لم يحقق مراده، وباءت كل محاولاته بالفشل.. وفي كل مرة حاول فيها الظفر بها كانت تصدّه.. وفي المقابل كانت النار تتأجج بين ضلوعه وطول التفكير فيها ينهش في قلبه.. وشوقه إليها وحبّه لها سهام تغرس في قلبه وتدمى فؤاده.. كان بمقدوره أن يصل إلى مراده بجبروته وعنفه كما حدث مع الكثيرات قبلها.. وكلما نشطت هذه الفكرة في عقله أو ارتسمت في مخيلته طردها من عقله على الفور ولفظها من مخيلته بلا تردد.. رأى فيها صورة ونوعاً جديداً من النساء.. ورغم أنّ جميع النساء كنّ يحلمن بالظفر به لفحولته الطاغية وأمواله التي استحوز عليها من نهب العباد إلا أنّه رأى أنّها من عجينة خاصة.. وباءت كل أحلامه ومحاولاته بالفشل بأن تقع هذه العجينة بين أسنانه.. ولم تكن أمامه بعد

أن طال انتظاره وعندما أعيته الحيل والأفكار لم يكن أمامه من وسيلة سوى الشر الذى سيطر على أفعاله.. وكان حلاً لأى مشكلة تواجهه.

هدها شيطانه إلى استدعاء زوجها وتهديده وتوعده بالشور وعظائم الأمور إن لم يطلقها.. وعلى طريقة العصا والجزرة نجح فى مراده.. أجبر زوجها على تطليقها وتزوجها.. وأشاع فى القرية أن زوجها قد غدر بها وأنه قبض ثمن طلاقها وسام فى الثمن.. ولكن محبوبها الجديد لم يبخل من أجل عينيها، بل ودفع أكثر مما طلب.. وشربت زوجته وأهل القرية تلك «التمثيلية» الدنيئة، واقتنعت بنذالة مطلقها وعاشت فى مملكتها الجديدة ملكة غير متوجة بعد أن وضع قلبه بين يديها وماله وفكره وعقله رهنا لإشارتها.. لم يبخل عليها بشىء.. انسابت الأموال بين يديها.. أحضر لها أغلى الملابس وأفخر أنواع العطور.. ووضع تحت إمرتها العديد من الخدم حتى يعوضها عن حياة الفقر والحرمان التى عاشتها من قبل.. قلبه الصخرى تحول إلى عجينة طيعة بين أناملها تشكّلها كما تريد.. وزادت سعادته عندما دبّ أول جنين له بين أحشائها.. أحسّ بالندم لما فاتته فى صدر حياته وهو يعيش حياة العبث واللهو والمجون، وصمم -وهو يحوم حول الخمسين من عمره- أن يكرس حياته لأسرته وأن ينفض غبار الماضى حتى يفتح ابنه عينيه على صورة مشرفة لأبيه.

ولكن فرحته لم تدم وسعادته لم تستمر.. كان القدر له بالمرصاد وكأنه أراد أن ينتقم لماضيه.. فقد اختفت زوجته فجأة وهى فى شهرها السابع من الحمل، وبحث عنها فلم يجدها.

وبعد طول بحث تم العثور عليها قتيلة في مكان مهجور من القرية.. قتلت بطريقة بشعة ثم سكب عليها «البنزين» وأشعلت فيها النار.

كان واضحًا -منذ الوهلة الأولى- لرجال الشرطة الذين انتقلوا فور الحادث وعاینوا مسرح الجريمة.. أنَّ قتلها كان مدبرًا وأنَّ هناك قصداً مصمماً عليه لإزهاق روحها.. وإحراق جسدها.. إذ إنَّه من البادى للوهلة الأولى أنَّ إعداد القاتل «للبنزين» وإحضاره في هذا المكان كان مقصوداً، حيث تبين من التحقيقات أنَّه لا حاجة ولا ضرورة لوجود البنزين في تلك العشة المهجورة التي لا يقطن فيها أحد، كما أنه ثبت بسؤال صاحب الأرض التي وقع فيها الحادث أنَّه هجر تلك الأرض منذ فترة جاوزت السنتين لمرضه وأنَّ العشة كان قد شيدها وسط أرضه ليستظل بها عندما كان يزرع الأرض.. أما وقد هدَّه المرض ولن يجد من يقوم بفلاحتها فقد تركها على هذه الحال خاوية على عروشها لا يقربها أحد.

كانت بشاعة الجريمة على النحو الذى تم فيه العثور على الجثة وقد تفحَّمت تماماً أنَّ القصد من ارتكابها هو الانتقام من نفس متعطشة إلى إشفاء غليلها وإطفاء نار غيظها التي جرَّدت القاتل من أية أحاسيس أو مشاعر ليقتل امرأة وهى تحمل في أحشائها جنيناً أفصح انتفاخ بطنها عنه.

ولكنَّ السؤال الذى طرح نفسه: من القاتل الذى تحجَّر فؤاده ومات ضميره فارتكب جريمته في لحظة غاب عنه ميزان العقل..

كما أنَّ السؤال الذى يطرح نفسه بقوة ولا بد من إجابة سريعة ومقنعة:

لماذا ذهبت المجنى عليها إلى هذا الفضاء العريض، إلى تلك الأرض البور التي لا تطؤها قدم.. ولماذا ذهبت إلى هذا العش المهجور.. وهل كانت بمفردها أم كان معها أحد آخر.. ومن هذا الشخص.. ولماذا ذهبت معه.. وهل كان ذهابها معه اختيارًا أم إجبارًا..

كانت تلك الأسئلة الحائرة الباحثة عن جواب تحتل فكر سلطات التحقيق في القضية سواء الشرطة التي نشطت بحثًا أو وكيل النيابة الذي باشر التحقيقات. لم توصل سلطات التحقيق أي باب للاحتمال إلا وطرقته، فقد كان من الأسئلة المحيرة التي تبحث عن إجابة.. ما الكيفية التي تم بها قتل المجنى عليها.

هل تم قتلها بالاعتداء عليها أولاً.. وما الآلة التي استخدمت في الاعتداء.. ثم لماذا تم سكب البنزين عليها لإحراقها..

هل تم سكب البنزين لتشويه معالمها وعدم التعرف على شخصية الجثة أم أن القصد هو الإمعان في الانتقام منها.

هل تم ارتكاب الجريمة بأكملها داخل العش أم أن القتل كان في مكان آخر ثم تم نقل الجثة بعد قتلها إلى ذلك المكان الخالي، حيث تم إشعال النار بها.

كان لابد من الوصول إلى إجابات لهذه الأسئلة التي تقف أمامها علامات استفهام عريضة ومحيرة.

حامت الشبهات في البداية حول اثنين.

الزوج الحالي.. والزوج السابق.

حامت الشبهات حول زوجها الحالي وكان من الدلائل التي ترجح لهذه الشبهات ما عرف عنه وما اشتهر به من تحجر العواطف وتيبس القلب واستهانته بالنفس البشرية.

لكنّ هذا الاحتمال ما لبث أن تبدد أمام ما توصّلت إليه تحريات الشرطة أنّه كان محباً لزوجته محققاً لكل رغباتها.. كان سعيداً فرحاً يعد الأيام والليالي ليملأ عينيه بابنه الذي طال انتظاره.. كان يعدّ العدة للاحتفال بأعظم وأسعد حدث في حياته المليئة بالآثام والشور.

لكنّ سجله الحافل بالجريمة بكافة أنواعها.. بشخصيته المتمردة الشرسة.. التي تجنح دائماً إلى العنف غير المستقرة لم تستبعد هذا الاحتمال نهائياً.

هل اكتشف فجأة علاقتها بآخر فساورته أفكاره وظنونه السوداء أنّ الجنين ليس من صلبه.. فلم يتردد في قتلها هي والجنين ومثّل بجثتها وأخفى معالمها كي يتعذّر التعرف على صاحبته.

نشط رجال الشرطة في البحث والتحري وقد بات هذا الاحتمال متزايداً أمام ما اشتهر عنه من قسوة وعنف، أمام شخصيته المستبدة المتعطشة دائماً للدماء التي تستهين بأي عزيز مهما كان إذا بدر منه ما يمس هيئته وجبروته.

لكنّ التحريات جاءت مخيبة لكل التوقعات.. فقد ثبت أنّ زوج المجنى عليها لم يكن بالقرية وقت ارتكاب الحادث.. كان بعيداً عن البلد قبل ذلك بيومين فقد سافر إلى القاهرة لشراء جرار وبعض المستلزمات لأرضه.

تزايدت الأسئلة والاحتمالات التي لا يمكن أن تترك للظنون والاحتمالات دون أن نكون أمام يقين يغلق كافة أبواب الاحتمالات.

أليس من المحتمل أن يكون سفره إلى القاهرة من قبيل التدبير المحكم للجريمة.. ليثبت وجوده في مكان آخر ويكلف أحداً من أعوانه الأشرار بارتكاب تلك الواقعة.

لم تقف تحريات الشرطة بحثاً وراء الزوج، بل تابعت تحرياتها حول مطلقها. حامت الشبهات حول مطلقها، خصوصاً أنه كان متواجداً في القرية يوم الحادث، وكان قد غادرها بعد طلاقه لزوجته بناء على أوامر زوجها الجديد وتهديده وتوعده بالقتل إن ظل يوماً بالقرية.. بل إن مطلقها قد غادر القرية ليس خوفاً من هذا التهديد -فحسب- وإنما لإحساسه أنه فقد كل شيء في هذه القرية الظالمة فما عاد له غالٍ فيها يبكي عليه.. زوجته التي يحبها أكثر من نفسه أجبره الطاغية على تطليقها.. وبات لا يستطيع العيش في قرية فقد فيها محبوبته بل والأقسى والأمر أنها تعيش بين أحضان رجل آخر اغتصبها بجبروته واقتنصها بأمواله بعد أن غرر بفكرها واحتال على مشاعرها بتلك القرية الدنيئة التي أشاعها بين أهل القرية وحفر في ذهن الناس أنه قبض الثمن غدرًا بها، وهو من كل ذلك برىء فما قبض ثمنًا ولا باع حبه لها.. بل إن أموال الدنيا كلها لا تساوي يومًا من أيام العذاب بل لحظة من الألم الذي حلَّ به وعانى من عذابه منذ أن فارقتها.. لقد فارقت السعادة.. واستسلم للهم والغم منذ أن تركها.. لقد بات وحيداً في الدنيا بعد أن ترك قريته وهجر أهله وذويه بعد أن أصبح «أضحوكة» في أفواههم «ومسخة»

أمام أعينهم.. أحسَّ في عيون الناس بمدى احتقارهم له واستهزائهم لشخصه واستهجانهم لفعلة.. أحسَّ بأنَّه لا عيش له وسطهم.. فقد ذبحوا رجولته ونحروا نخوته وكرامته بينهم وأنَّ عليه أن يرحل في الظلام رحيلاً بلا عودة.

لكن ما الذى حدا به أن يعود رغم كل ما حدث؟ كان هذا هو السؤال الذى بادره وكيل النيابة المحقق به.

عجز عن تفسيره ولم يستطع تبريره خصوصاً أن الأدلة قويت ضده أمام هذا العجز وانحسرت عن زوجها الحالى وبات هو صاحب المصلحة الوحيدة فى ارتكاب الجريمة انتقاماً جماعياً منها ومن زوجها الذى اغتصبها منه ومن الجنين الذى تحمله من هذا الوغد الشرير.. بل زاد من ضراوة الاتهام ما ثبت من وجود آثار مادة البنزين بأظافره أثبتها تحليل المعامل الكيماوية بعد قص وكيل النيابة لأظافره خصوصاً بعد سكب البنزين عليها وإشعال النار فيها.

أنكر الواقعة فى البداية وأصرَّ على الإنكار وأنَّ مادة البنزين التى عثر على أثرها عالقة بأظافره كان نتيجة حمله لزجاجة بها بنزين يحتفظ بها ليشعل بعض الحطب للتدفئة وسكب جزء منه لسرعة اشتعال النار بها..

وتساءل متحجباً وهو يلطم خديه:

كيف يقتل أحبَّ الناس فى الدنيا إليه.. لو أجمع أهل الأرض جميعاً على قتلها لافتداها بحياته.. إنَّه يحبها حباً جنونياً.. لا حياة له ولا معنى للحياة بدونها.. فهوها ما زال يملأ قلبه وصورتها لا تبارح عينيه.. والحب والكراهية ضدان لا

- يلتقيان.. وأكد أنه كان على استعداد أن يقدم حياته فداء لها وقرباناً لحيهما.
- لكن ما لبث أن انهار عندما واجهته النيابة بأن جرمه مضاعف وإثمه لا يغتفر.. فلم يقتصر على قتله المجنى عليها فحسب بل قتل الجنين الذي تحمله في أحشائها.. وكان على وشك أن يطل على الحياة طفلاً.
- انهار وقد غاص في بكاء هيسيرى عندما علم بأمر حملها وهو يهذى:
- لقد ضاع كل أمل لى.. لقد عدت للقريبة لكى أتحمس أخبارها.. كنت على أمل أن يكون زواج البلطجى بها نزوة من نزواته الطائشة، وأنه لن يلبث فى أن يتخلّى عنها كما كان يحدث مع غيرها.. بعد أن يحقق مآربه وينال غرضه منها.
- لكن تصوره كان خيلاً محضاً.. اكتشف أنه كان يلهث وراء وهم.. كان حلمه سراباً.. ما لبث أن تبدد على صخرة الحقيقة بعد أن علم بأنها كانت حاملاً.
- وتحدث فى صوت خفيض:
- أنا قتلتها.
- وناقشته النيابة فى كيفية تنفيذ الجريمة
- فأجاب بصوت كسير:
- أنا قتلتها.. ألقيت عليها البنزين وولعت النار فيها.
- قضت محكمة الجنايات عليه بالإعدام شنقاً.

كانت تلك هي أحداث القضية حسب ما نضحت به أوراقها.

تقدّمت بمذكرة ضمنتها أسباب النقض جاء بها.

أنّ المتهم «الطاعن» أنكر ثم اعترف فجأة وبلا مقدمات على نحو ينبئ أنّه كان يائساً من الدنيا.. رافضاً للحياة.. ومن المسلمات القانونية أنّ الاعتراف الذى يعوّل عليه كدليل إثبات معتبر لا بد أن يكون مطابقاً للواقع والحقيقة ومتفقاً مع الأدلة الفنية فى الدعوى، ولما كان المتهم قد انصبّ اعترافه على أنّ كل ما ارتكبه من فعل مادی هو سكب البنزين على المجنى عليها وإشعال النار بها حتى فارقت الحياة.. مما مفاده أنّه أشعل النار بالمجنى عليها وهى على قيد الحياة.. وهو ما يجافى الثابت بتقرير الصفة التشريحية من أنّ هناك اعتداءً بآلة صلبة على رأس المجنى عليها أحدث بها كسوراً تفتتية أدّت إلى نزيف ضاغط على المخ كان سبباً للوفاة، وأنّ الحروق التى بالجثة حروق غير حيوية «أى حدثت بعد الوفاة».. ومن ثم فإنّ اعتراف المتهم بات متناقضاً تناقضاً يستعصى معه المواءمة مع الدليل الفني وما جاء بتقرير الصفة التشريحية غير مطابق لهذا الدليل مما يكون الحكم المطعون فيه وقد أخذ بهذا الاعتراف رغم مخالفته لما جاء بالدليل الفني مشوباً بالخطأ فى الإسناد مخالفًا للثابت بالأوراق، إذ اعتقد الحكم خطأ وهو ما لا أصل له فى الأوراق أنّ المحكوم عليه بسكبه البنزين على المجنى عليها قتلها، فى حين أنّ سبب الوفاة هو الاعتداء بآلة راضة على رأسها، ومن المسلمات القانونية أنّ شرط التأثيم الذى يصلح أساساً للإدانة أن يكون الاعتداء على إنسان حى فإذا ثبت أنّ اعتداءً أيًا كان نوعه أو جسامته قد وقع على

إنسان ميت لا تتوافر فيه أركان جريمة القتل.. ورتوباً على ما سلف وكان البين أن سبب الوفاة ليس الحروق وإنما سبب آخر وهو الاعتداء على رأس المجنى عليها بألة صلبة راضة.. وهو ما لم يرد باعتراف المتهم ولا تكشف عنه الأوراق فإن إدانة المتهم على نحو ما سلف دون بيان لعلاقة السببية بين فعله وسبب الوفاة يشوبه بالقصور في التسيب والخطأ في الاسناد.

تم قبول الطعن وقضت المحكمة بنقض الحكم المطعون فيه وإعادة محاكمة المتهم مجدداً أمام دائرة أخرى غير التي أصدرته.
وجاء ميقات محاكمة المتهم مجدداً..

كانت المرة الأولى التي التقيت به.. كان شاردًا مهمومًا.. مشدوهاً.. حائرًا.. حزينًا.. كانت ملامح اليأس تكسو قسماً وجهه البائس اليائس من الحياة.. من الدنيا.. من كل الناس.. كان يردد أمامي أنه قنت من الحياة.. الموت أحب إلى نفسه من حياة تتسم بالذل والمهانة وفقد أعز الأحباب بعد أن انتزع القدر منه زوجته.. محبوبته أمام عينيه.. قسراً وعلى يد ذلك البلطجي الذي أهان كرامته وقتل سمعته واعتباره في عيون القرية.. هل من السهل على نفسه نظرات الناس إليه وحكمهم بأنه نذل جبان بدلاً من أن يحكموا هذا الحكم على هذا الطاغية الذي انتزع زوجته.. واغتصب محبوبته منه.

وسالت الدموع من عينيه وهو يردد أن أمنيته الوحيدة في الحياة أن يعدم فوراً، فما عاد يطيق الحياة في دنيا.. انعدمت فيها القيم وغابت عنها

المبادئ.. وضاعت فيها المثل، وأصبحت القوة هي القانون والطغيان هو الدستور الحاكم.. وأضاف مستنكرًا:

- كيف غابت هذه الفكرة عني؟ نعم كان لابد أن أقتله هو، فهو الجانى الحقيقى الذى حطّم حياتى، وأضاع آمالى فى الحياة.. ما ذنبها حتى أقتلها؟
كان حديثه مع نفسه - ومعى - أشبه بمن يهذى.
وأعدت سؤاله:

- ما وسائل الاعتداء على المجنى عليها؟
فأجاب والعصية لا تفارق نظرات عينيه ولا نبرات صوته:
- أنا قتلتها.. أشعلت النار فيها.. مش برضه لقيتوا النار مولعة فيها؟..
عاوزين منى إيه أكثر من كده؟

وأعدت سؤاله وأنا أطلب منه الهدوء والركون إلى السكينة والعقل:

- ألم تعتد عليها بأى وسيلة أخرى؟
فنظر إلى مندهشًا وقد ازداد حدة
- ولّعت فيها النار.. هو فيه أكثر من كده موت؟
وقلت له:

- انت لم تقتل أحدًا.. فيه سر انت مخيه.. إيه هو؟ لازم أعرفه.. ضرورى

تتكلم تقول الحقيقة.. الى بتقوله كله كذب.. لا يمت بالحقيقة بأى صلة.

- فأشاح بوجهه عنى وآثر الصمت وقال والدموع تنساب على خديه..
وكانه المطر فى يوم عاصف دون أن يحسّ بها:

- أرجوك أنا عايز أموت

قالها ونبرات صوته.. تفصح ما بداخله من يأس ونفس محطّمة رافضة
الحياة مصممة على الموت.

فرجوته أن يثق بى وأن يفضى إلى بالحقيقة إنّه آثم فى حق نفسه.. وهو
ومن يتحر سواء وجزاؤه بذلك عند الله عظيم وعقابه جهنم وبئس المصير
خالدًا فيها أبدًا.

أيقظت كلمة انتحار ضميره النائم من غفوته وحركت فيه الخوف من الله
وعذابه إذا أصرّ على كذبه الذى هو الانتحار بعينه.. وأنه بات قاب قوسين أو
أدنى من أن يخرج ما كان مدفونًا فى أعماقه، حبيسًا فى صدره..

وفجأة وبصوت ملؤه التأكيد والتصميم.. صاح:

أنا فعلا ما قتلتهاش.

واستطرد وقد ارتسمت صورة البراءة ناطقة فى عينيه.

- أقتلها إزاي وهى روحى وحياتى.. أنا كنت عايش على أمل أن ييجى
اليوم وتعرف الحقيقة.. تعرف إنى مظلوم وأن جوزها هو الظالم المفترى

الحقيقى وأنه حايسيها بعد ما يأخذ الى عاوزه منها وترجع لى تانى.

فبادرته مطمئنا بقولى:

- أنا مصدقك.. آمال إيه الى حصل بالضبط؟

فأجاب والحسرة تملأ نبرات صوته.. المثلث بالأحزان.

- أنا جيت البلد متخفى عشان كان نفسى أشوفها.. أعرف إيه

أخبارها.. قلت يمكن يكون سابها أو طلقها أو تقدر حبى ليها ونهرب

ونسيب البلد.. ونسى الماضى..

وأضاف وهو يتنهّد تنهيدة عميقة.. أفصح عما يسيطر على فكره..

أنا لو كنت عاوز أقتل كنت قتلته هو.

فبادرته متسائلاً:

- ألم تعتد عليها بالضرب بأية آلة؟

فأجاب:

- طبعا لأ.. أضرب نفسى إزاي؟ دى كانت كل أملى فى الحياة.

وأعدت سؤاله:

ما سبب العثور على آثار البنزين بين أظافرك؟!

أجاب بلا تردد أو تلعثم..

- يا بيه أنا زى ما قلت فى التحقيق.. البنزين ده أنا حطيته على حطب
علشان يولع بسرعة علشان أتدفى ودى الحقيقة.

فعاجلته بسؤال آخر..

من الذى أشعل النار فى جثة المجنى عليها؟!

أجاب.. بعد أن أقسم مغلظا..

أنه لا يعرف عن مقتلها شيئاً.. كيف تم القتل.. من القاتل.. دافعه إلى القتل..

ثم انطلق بعد برهة من التفكير قائلاً:

مفيش غيره هو اللى قتلها.. الغدر فى طبعه واللى فيه طبع عمره ما
يغيره.. هو اللى قتلها بعد ما حقق غرضه ووصل للى هو عايز يوصله.

وحانت ساعة المرافعة.

بدأت مرافعتى بطلب مناقشة الطبيب الشرعى استجلاءً لكيفية قتل المجنى
عليها على نحو واضح أمام الأسباب التي سبق أن حررتها لنقض القضية، وأسباب
حكم النقض الذى أخذ بها وعادت القضية للمحاكمة من جديد على أساسه.

وبينما كانت القضية مؤجلة انتظاراً للأجل الذى ضربته المحكمة
لحضور الطبيب الشرعى، فقد وقع الزلزال الذى كشف صدق دفاعى.. من
أنَّ اعتراف المتهم غير حقيقى.. إنَّه كاذب فى اعترافه.. إنَّه ليس القاتل..

فقد تم القبض على شاب بقرية هذا الفتوة يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً

إلا قليلاً.. كان قد تربّص لهذا الفتوة بعد مقتل زوجته بسكين وانقض عليه وذبحه بعد أن نجح في الإجهاز عليه.

وكانت قمة المفاجأة..

فقد اعترف الشاب أنه هو قاتل زوجة الفتوة، وأن طليقها لم يرتكب الجريمة، وقد أثر أن يقتلها وهي حامل حتى يعذب الفتوة طيلة حياته بعد حرمانه من أول ابن له تمناه طيلة حياته وأصبح على شفا مولده وقد شارف هو الخمسين من عمره.

واستطرد الشاب في اعترافه موضحاً أن هذا الفتوة قد قتل أمه -من قبل- بعد أن اغتصبها داخل مسكنها.. كان وقتها طفلاً صغيراً وشاهد المأساة.. احتبسها داخل قلبه الصغير.. ظلّ وحش الانتقام يقطن داخله يكبر معه كلما كبر سنة.. حتى جاء اليوم الذي هداه شيطان الانتقام في أن يثأر لأمه.. ينتقم لشرفها من زوجة هذا الفتوة.

وأضاف.. أنه رأى الموت بعينه وهو مازال طفلاً لا يعرف معنى الحياة أو الموت عندما فتك هذا الخنزير بأمه، معتدياً على عرضها، سالباً شرفها ثم قتلها.. دفناً لجريمته..

أدرك منذ طفولته معنى الموت.. الذي رآه أمام عينيه في شخص أمه.. كان لا ينام الليل أو النهار.. فارق النوم جفونه.. كان يستيقظ صارخاً مذعوراً عندما تلاحقه صورة أمه.. ذلك «الكابوس» المزعج الذي كان يطارد عينيه.. صوت

أمه التي كان يراها بالصوت والصورة وهي تغتصب وتطلب منه الانتقام والثأر لشرفها ودمها.. وعندما تزوج هذا الفتوة من السيدة بعد تطبيقها رأى الجميع يباركون هذا الزواج ويتسابقون لتهنئته.. ويصدقون كذبه من أن مطلقها قد قبض الثمن.. وعندما علم أن زوجة الفتوة حامل، وأن السعادة تغمره انتظاراً لمولوده الأول قرر أن يبدد هذه السعادة.. أن يعذب نفسه.. أن يقضى على أمله في الحياة.. فقد كانت زوجته كل شيء له فيها.. كان ينتظر مولوده بفارغ الصبر.. لذلك قرر أن يحرق قلبه ويقضى على كل آماله، فاستدرج السيدة إلى المكان المهجور بعد أن أخفى الجاموسة التي كانت ترعاها في العشة.. وكان قد أحضر وأعد فيها «البنزين» وانهاled عليها بالعصا على رأسها حتى سقطت على الأرض وتأكد من وفاتها، ثم سكب عليها البنزين، وأشعل فيها النار، كانت شهوة ولذة الانتقام تملك عليه كل فكره، كان مغيباً طارداً من عقله وضميره كل شيء، وقد احتل مكانهما حقه لهذا الرجل ورغبته في الانتقام منه.. وعندما علم أن طليقتها قد تم القبض عليه بتهمة قتلها ورأى الفتوة ينهار كالجبل وتتساقط حجارته وركبه الهم والحزين واستسلم للكآبة.. اعتقد أن خطته -في تحطيمه- قد نجحت وأن قتله لزوجته وللجنين الذي بين أحشائها قد أذل كبرياءه وبدد أمله وقضى على أحلامه في السعادة.. وأن كأس العذاب التي تجرع منها منذ طفولته قد آن الأوان لأن يشرب منها هذا الفتوة.. ويذوق مرارته ويتجرع منها كما تجرع هو منها من قبل.

لكن حزن الفتوة لم يدم طويلاً فقد تماسك وعاد لجبروته من جديد..

عاد إلى مجونه وفجره ونزواته التى لا تنقطع.

وأضاف الشاب قائلاً:

- أدركت أن انتقامى لم يصب منه مقتلاً وأن دائرة الانتقام لم تقفل بعد.. صممت على الخلاص منه تطهيراً للمجتمع من دنسه وحماية للأبرياء من شروره فقتلته.. ولكن الذى كشف الحقيقة هو «بطاقتى» التى سقطت منى فى مكان الحادث..

لم يلبث أن أصيب الشاب -بعد اعترافه- بحالة من الهستيريا وانعدام الوزن أدخل على إثرها مستشفى الأمراض العقلية، فقد طار صوابه وجن جنونه من هول ما مرَّ به من آلام وأحزان منذ طفولته طغت على فكره فأفقدته العقل والإدراك.

أما الزوج فقد خرج إلى الحياة طليقاً، ونجا من حبل المشنقة وعاد إلى قريته بعد أن دقت أجراس الحقيقة.. لكنه عاد كسيراً وحيداً محطماً، وقد هدَّه اليأس فباعده بينه وبين الأمل فى المستقبل بعد أن فقد زوجته وضاع معها حبه.. كانت تلك الصورة التى ارتسمت أمام عيني ورسخت فى مخيلتى.. وأنا أضافحه مودعاً ومهتئاً له بالبراءة وأحُثُّه بأن يطوى صفحة الماضى.. ويبدأ من جديد صفحة جديدة.. ملؤها الأمل..

ومرت السنون.. كانت عشر سنوات أو أكثر بقليل عندما أخبرنى مدير المكتب أن موكلاً جديداً قد حضر لتوكيل المكتب فى قضية جديدة وبصحبه صديق يدعى أنه عميل قديم بالمكتب ويرغب فى مقابلتى شخصياً

قبل الحديث مع الوكيل..

تم اللقاء.. إنه الرجل نفسه.. ويقدم لى ولدين.. والفرحة في نبرات صوته..
وهو يقدمهما لى.. قائلاً: سلموا على عمكم ده له الفضل على بعد ربنا..

وقصّ على قصته بعد أن عاد إلى بلده وكيف أن كلماتي ونصيحتي له
كانت نعمة من الأمل تسرى في جسده.. وملأت عليه فكره.. وتزوج من فتاة
أخرى.. أحبها وأحبته وأنجب منها ولديه..

- وعندما سألته.. عن حبه الأول..

أجاب على الفور.. وبلا تردد:

- كان ماضيًا.. كانت نصيحتك لى في أن أترك الماضي وراء ظهري وأنظر
بعين الأمل للمستقبل هي الدافع في إصراري على نسيان هذا الماضي الأليم.
وقال بلهجته الصعيدية:

حقًا.. اليأس هو القاتل الحقيقي للإنسان.. والأمل هو القاتل لهذا
اليأس.. وقد زرعت في نفسي الأمل الذي قتلت به يأس الماضي وسرت على
طريق الأمل. أنهى حديثه لنبداً في الحديث عن القضية الجديدة...

الفهرس

المقدمة	٥
القضية الأولى : ادينى عمر.. وارمينى فى البحر	٧
القضية الثانية : الأفعى... والثعبان	٣٥
القضية الثالثة : العقرب والضفدع	٦٥
القضية الرابعة : صراع مع الوهم	٩٣
القضية الخامسة : ضيف على مائدة.. عشناوى	١١٥
القضية السادسة : لقاء مع ابليس	١٣٩
القضية السابعة : نصابون لكن ظرفاء	١٦٥
القضية الثامنة : عدالة السماء	١٨٥
القضية التاسعة : قاتل رغم أنفه	٢٠٥
القضية العاشرة : فى بيتنا شيطان	٢٢٥
القضية الحادية عشرة : الخيانة قتلت فى الفجر	٢٤٩
القضية الثانية عشرة : الذئب والحمل	٢٧١

